

دراسات فی تاریخ
امبراطوریہ نقیب الہریظیہ

دکتور
اسم غنیم

1991

دار العرفة الجامعية
١. ش. سوتير - إسكندرية
ت : ١٦٢ - ٤٨٢

اهداءات ٢٠٠٠

الأستاذة الدكتورة/ إسمت مخيم

أستاذ العصور الوسطى

جامعة الإسكندرية

دراسات في تاريخ
إمبراطورية بنغال الإسلامية

دكتور
إسماعيل غنيم

١٩٩١

دار المعرفة الجامعية
شارع ستيرة الأواريطه
الابستغنية

المحتوى

البحث الأول :

الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية إنحرافها ضد القسطنطينية

البحث الثانى :

**إمبراطورية فى المنفى ، ثيودور لاسكاريس وإحياء الامبراطورية
البيزنطية فى نيقية**

البحث الثالث :

زواج التحالف فى العصور الوسطى

البحث الرابع :

معركة بلاجونيا ، ونهاية الصراع بين نيقية وإبيروس حول القسطنطينية

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يظل الأستاذ الجامعي طوال حياته دائم البحث والتنقيب في ميدان تخصصه ، وكلما كانت أبحاثه جديدة ومبتكرة ، كلما ازدادت أهميتها وقيمتها العلمية ، وقد كانت حصيلة سنوات عديدة من البحث منذ حصولي على درجة الدكتوراة في عام ١٩٧٣ ، وحتى هذا الوقت من عام ١٩٩٠ ، مجموعة من الأبحاث والدراسات استنفذت مني الكثير من الوقت والكثير من الجهد ، ولكن أحمد الله سبحانه وتعالى ، أن ظهرت في النهاية في صورة طيبة • وقد كانت جميعها دراسات جديدة ومتنوعة ، ألقت الضوء على موضوعات هامة في تاريخ العصور الوسطى •

وقد قامت بعض دور النشر ، سواء في داخل مصر أو خارجها ، بنشرها ، كما نشر بعض منها في مجلات علمية ، ولما كان من الصعب الحصول على بعض هذه الأبحاث ، فقد رأيت تيسيرا على من يريد الاطلاع عليها ، والاستفادة منها ، أن أقوم بتجميعها في عدة كتب ، بحيث يضم كل كتاب مجموعة من الأبحاث التي تشترك في الموضوع الواحد •

ويضم هذا الكتاب مجموعة من الأبحاث في التاريخ البيزنطي ، وأنه

لمن دواعى سرورى أن يكون موضوعها قد تناول - تاريخ إمبراطورية نيقية البيزنطية، وهو الموضوع الذى لم يتناوله بحث أو كتاب فى المكتبة العربية حتى الآن • فالبحث الذى عنوانه : «إمبراطورية فى المنفى ، ثيودور لاسكاريس ، وإحياء الامبراطورية البيزنطية فى نيقية» يعالج كيفية تأسيس ثيودور الاول لاسكاريس للكه فى مدينة نيقية فى آسيا الصغرى، بعد فتح الصليبيون للعاصمة البيزنطية القسطنطينية فى ١٢٠٤م • ، والبحث الذى يليه يتناول عصر خليفته وزوج ابنته يوحنا ثاتاتريس من خلال عرض موضوع : «زواج التحالف فى العصور الوسطى» • أما بحث : «معركة بلاجونيا ، ونهاية الصراع بين نيقية وابيروس حول القسطنطينية» فيعرض لحدث من الاحداث التاريخية الهامة فى منطقة شرق أوروبا وغرب آسيا الصغرى فى الفترة السابقة مباشرة على استرداد امبراطورية نيقية البيزنطية للعاصمة القسطنطينية ، ذلك الحدث الذى كان له أثره الفعال فى تغلب ميخائيل الثامن باليولوجوس على منافسيه ، وفوزه بالقسطنطينية دونهم •

ولما كان المدخل الطبيعى لدراسة تاريخ إمبراطورية نيقية البيزنطية هو الحملة الصليبية الرابعة ، وما أدت اليه من سقوط العاصمة البيزنطية القسطنطينية فى يد الصليبيين فى عام ١٢٠٤م ، واقامة مملكة لاتينية ، وفرار العائلات الأرستقراطية البيزنطية ، وتأسيسهم لثلاث ممالك ، واحدة فى الجانب الأوروبى خلف جبال بندوس فى منطقة إبيروس ، والثانية فى طرابيزون على ساحل البحر الاسود ، والثالثة فى نيقية فى

آسيا الصغرى ، لذلك كان لابد من عرض أحداث هذه الحملة حتى يكون
تسلسل الأحداث واضحا أمام الباحثين والدارسين ، خاصة وأن أحداث
هذه الحملة كانت موضوع بحث قمت بإعداده ، ونشرته دار المعارف
بالاسكندرية ، وكان أحد بحثين نلت بهما جائزة جامعة الاسكندرية
للتشجيع العلمى عام ١٩٨٤ •

أرجو أن أكون قد وفقت فى عرض هذه المجموعة من الأبحاث ،
وأسأل الله التوفيق والسداد ،،،

إسمت غنيم

لوران

٧ يوليو ١٩٩٠

البحث الأول

أحمد الصليبي الرابعة وثنوية إغرافنا ضد القسطنطينية

الدكتور
إسماعيل غنيم
جامعة الإسكندرية



دار المعارف

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١٩
الفصل الأول : الآراء المختلفة حول تغيير اتجاه الحملة	٢٥
الفصل الثاني : مسئولية البيزنطيين	٣٧
الفصل الثالث : الحملة الصليبية الرابعة وبداية إنحرافها	٦٥
الفصل الرابع : الحملة الصليبية والعاصمة البيزنطية	٨٩
الخاتمة	١٢٣
الصور	١٢٣
الخرائط	١٤٧
المراجع العربية	١٥٣
المراجع غير العربية	١٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تعتبر الحملة الصليبية الرابعة من أغرب الأحداث في تاريخ الحروب الصليبية ، لما اتسمت به من طابع مميز عن باقي الحملات الصليبية الأخرى ، ولما ترتب على إنحرافها من نتائج .

وقد استحوذت هذه الحملة على إهتمام عدد كبير من المؤرخين حاولوا البحث عن أسباب إنحرافها وإتجاهها ضد القسطنطينية ، ذلك البلد المسيحي ، بدلا من إتجاهها ضد مصر لفتحها ثم الاستيلاء بعد ذلك على الأراضي المقدسة في فلسطين كما كان مقررا لها .

وقد انقسم المؤرخون الذين عالجوا هذا الموضوع إلى فريقين فريق ارجع هذا التغير في إتجاهها إلى (التعمد) ومنهم على سبيل المثال المؤرخون الفرنسيون الكونت ريان Conte Riant وماس لاثيرى Mas-Latrie وهانوتوكس Hañotoux والمؤرخان الألمانيان هوبف Hopf ، ووينكلمان Winkelman . وفريق آخر ارجع هذا التغير في إتجاه الحملة إلى (الصدفة) ومنهم على سبيل المثال أيضا ، المؤرخ الألماني نوردن Norden والفرنسى لوشير Luchaire

وقد عالج جميع المؤرخين ، سواء أصحاب نظرية التعمد أو نظرية الصدفة ، هذه الحملة في ضوء دوافع الغرب اللاتيني وحدها ، وعدائه المتراكم ضد الدولة البيزنطية ، لكن احدا منهم لم يحاول إلقاء الضوء على دور البيزنطيين أنفسهم ومستوليتهم في العمل على إنحراف هذه الحملة ضد عاصمتهم ، وهو

ما أراه أقرب إلى الحقائق التاريخية، كما سيوضح من خلال هذا البحث .

والجدير بالذكر أن أهم المصادر التي امدتنا بالمعلومات التاريخية عن الحملة الصليبية الرابعة هو كتاب المؤرخ المعاصر جيوفري فيلهاردوين Geoffrey Villeharduin من شامبني ، والذي شارك في الحملة الصليبية وكان يشغل منصب مارشال Marshall وقد دون أحداث الحملة يوما بيوم بأسلوب قوى ، واضح ، ومباشر .

وترجع أهمية هذا المصدر إلى أن فيلهاردوين كان على مقربة من واقع الأحداث ، فقد كان منصبه يلى مباشرة كل من قائد الحملة الماركيز بونيفيس أوف متفترات (١) والكونت بلدوين أوف فلاندرز وهينولت (٢) . مما أتاح له المشاركة في صنع القرارات التي اتخذها المجالس العسكرية للحملة والاطلاع على الوثائق الهامة الخاصة بالحملة ، وكثيرا ما أرسل كرسول من طرف الصليبيين ومتحدثا رسميا باسمهم إلى مختلف القوى .

وقد أتى فيلهاردوين في كتابه عن «فتح القسطنطينية بواسطة البارونات الفرنسيين ومشاركة البنادقة في عام ١٢٠٤» .

la Conquete de Constantiople par les Barons francais associez aux Venitiens l'an 1204.

يوصف دقيق لكافة أحداث الحملة الصليبية الرابعة منذ بداية تكوينها وحتى سقوط العاصمة البيزنطية في أيدي الصليبيين في عام ١٢٠٤ ثم تتبع الأحداث التالية سواء الخاصة باللاتين أو الإمارات التي أسسها بعض رجال الطبقة

(١) بخصوص الماركيز بونيفيس ومركزه في الغرب الأوروبي وصلات عائلته

بيزنطة انظر الفصل الثالث من هذا البحث ص ٦٦ - ٦٧ .

(٢) يوجد في الفصل الرابع من البحث نبذة عن الكونت بلدوين أوف فلاندرز

وهينولت ، ص ١٠١ .

الارستقراطية البيزنطية حتى عام ١٢٠٧ م :

وقد حاول فيلهاردوين في كتابه هذا أن ينسب فتح القسطنطينية للبارونات الفرنسيين وحدهم وأظهر دور البنادقة في هذا الفتح على أنه دور ثانوي واقتصر على مشاركة الفرنسيين في هذا العمل الذي يعتبره فيلهاردوين عملاً بطولياً قام به بني جلدته الفرنسيين .

وقد دون فيلهاردوين كتابه بالفرنسية القديمة ، وظهرت ترجمة إنجليزية له هي التي اعتمدنا عليها في بحثنا هذا نشرها Sir Marzials في لندن في عام ١٩٦٥ .

وأتفق مع د. بربيل سمالي الذي يقول أن فيلهاردوين «لم يكن من مؤلفي الروايات الخيالية ، فقد روى الأحداث الحقيقية والمدهشة في قصة غزو جيش صغير لمدينة كانت آنذاك قوية بمحصونها ، غنية بكنوزها ، ولو أنه استخدم المحسنات اللفظية وقصص المعجزات لكانت أفسدت تأثيره .

كان جيوفري ذا نظرة ثاقبة فيما يتعلق بالتفاصيل العسكرية كما أنه يتميز بالقدرة على نقل إنطباعه إلى القارئ مباشرة .

وكانت صياغة الخطب مصدر إزعاج بالنسبة له ، ورغم أنه كان يشارك في اجتماعات القادة ، إلا أنه كان يقنع بملخص موجز لما قيل في هذه الاجتماعات دون أن يزينه بالزخارف البلاغية أن مذاكراته قيمة وثمينة كموضوع جديد» . (١)

وهنا مؤرخ آخر هو روبرت كلاري Robert De Clari وهو أحد

(١) سمالي : المؤرخون في العصور الوسطى ، ترجمة د. قاسم عبده قاسم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ١٨٨ ، ص ١٩١ .

الفرسان إشتراك في الحملة الصليبية الرابعة ودون أحداثها منذ البداية وحتى سقوط القسطنطينية في أيدي (فرسان المسيح الحجاج) في عام ١٢٠٤ وإنتهى الكتاب بسرده لموقعة هادريانوبل في ابريل ١٢٠٥ . ومعلوماتنا عن روبرت كلاري ضئيلة للغاية وكل ما نعرفه عنه أنه من مقاطعة كليري لي بفرنوا Clery Les permois وقد نسب إليها فسمى كلاري . وقد أسهم روبرت في الحملة الصليبية الرابعة تحت لواء أحد كبار السادة الاقطاعيين الفرنسيين ويدعى بطرس داميان Pierre D'Amiehs وكتاب روبرت كلاري السدي أطلق عليه اسم «فتح القسطنطينية» Lacoquete deconstantinople مدون باللغة الفرنسية القديمة أيضاً شأنه شأن كتاب فيلهاردوين وقد قام مسيو فييب لاور Philippe lawer أمين قسم المخطوطات بالمكتبة الأهلية بباريس بنشره في مجموعة :

Les classiques français du moyen age

ومن سدد على هذه الطبعة التي نشرت في باريس في عام ١٩٢٤ .

ومن خلال دراستنا لهذا المصدر نستطيع القول أن روبرت كلاري كان يمثل وجهة النظر الشعبية في الحملة الصليبية الرابعة ورغم أن بعض الأحداث التي ذكرها والخاصة بالتاريخ البيزنطي قبل سقوط القسطنطينية في عام ١٢٠٤ فيه الكثير من المغالطات التاريخية والخيال الذي يدل دلالة واضحة على ضئالة معلوماته شأنه شأن معظم الطبقات الشعبية التي اشتركت في الحملة الرابعة ، ورغم أن تواريخه غير دقيقة ، إلا أنه أتى ببعض التفاصيل لأحداث تعتبر مكملة لتاريخ فيلهاردوين ، كما أنه أتى بوصف تفصيلي للغنائم التي غنمها الصليبيون من القسطنطينية بعد فتحها وكذلك جاء بوصف لا بأس به للقصور الامبراطورية وبعض الكنائس والأطلال التي رآها بالقسطنطينية مما يساعد .

الباحثين في التاريخ البيزنطى على الإلمام بما وجد بالقسطنطينية وقتذاك من منشآت ضخمة وكذلك يدل دلالة واضحة على مدى الثراء الذى تمتعت به القسطنطينية آنذاك .

وفى مجال المقارنة بين تاريخى فيلهاردوين وروبرت كلارى ، أرى ان الأول يتفوق على الثانى ، حقيقة أن الأثنين كانا معاصرين واشتركا فى الحملة ولكن فيلهاردوين كان يشغل منصبا كبيرا مما أتاح له أن يكون على إتصال أكثر بالأحداث ، ومن ثمة فانه تاريخه أجدر بالثقة .

هذا إلى جانب رسائل البابا اينوسنت الثالث (١) إلى الصليبيين فى مختلف المناسبات ، تلك الرسائل التى ألفت الكثير من الضوء على العديد من الأحداث ، قد حوتها مجموعة *Patrologia Latina* التى نشرت فى باريس فى عام ١٨٥٥ م .

وبخصوص الأحداث الخاصة بالدولة البيزنطية ، فقد أمدنا بعض المؤرخين البيزنطيين بالمعلومات التاريخية عنها ، وعلى الأخص المؤرخ المعاصر خونيا تيس *Nicetas Choniates* الذى يطلق عليه أحيانا نقيتاس اكوميناتوس *Nicetes Acominatus*

ولد نقيتاس فى مدينة خوناي *Chonae* فى اقليم فريجيا فى آسيا الصغرى وتوفى فى عام ١٢١٣ م ، وقد إشتغل بالسياسة وتولى عدة مناصب هامة فى الدولة ، فأتثناء حكم الامبراطور اسحاق انجيلوس كان نقيتاس يشغل منصب السكرتير الامبراطورى ، ثم تولى حكم تيم فيليبوبوليس *Phileppopolis* فى اقليم مقدونيا ، ثم شغل منصب المستشار الاعظم *Grand Logothete* وبعد

(١) فيما يتعلق بالبابا اينوسنت الثالث وجهوده من أجل السمو بالبابوية ، أنظر الفصل الثالث من هذا البحث ، ص ٥٣ - ٥٦ .

استيلاء اللاتين على القسطنطينية في عام ١٢٠٤ فر إلى نيقية واستقر في بلاط
الامبراطور ثيودور الأول لاسكاريس ، و كتابه Historia أرخ فيه
للفترة الواقعة بين ١١١٨ - ١٢٠٦ .

ونشر هذا الكتاب في مجموعة :

Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae

التي نشرت في مدينة بون عام ١٨٣٥ .

كذلك تمت الاستعانة في هذا البحث بالعديد من المؤلفات الفرنسية
والألمانية والإنجليزية ، لكبار المؤرخين الذين تعرضوا لسرد وتحليل أحداث
الحملة الصليبية الرابعة .

وأرجو أن أكون قد وفقت في عرض وجهة نظري الخاصة بهذا الموضوع
مما يفتح آفاقا جديدة أمام الباحثين في التاريخ البيزنطي وتاريخ الحروب
الصليبية على حد سواء .

والله الموفق ،

اسمت غنيم

لوران

٧ يوليو ١٩٨١

الفصل الأول

الآراء المخالفة حول تغيير اتجاه الحملة

— مسئولية كل من :

البابا اينوسنت الثالث .

الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات .

البنادقة ودوقهم انريكو داندولو .

الملك الالماني فيليب السوابي .

— معالجة الحملة في ضوء العلاقات السياسية والاقتصادية والدينية بين

الشرق والغرب .

اختلفت الآراء حول مسئولية تغيير اتجاه الحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطينية ، وقد أرجع بعض المؤرخين مسئولية هذا التغيير إلى البابا اينوسنت الثالث ، بدافع أساسي هو العداء القديم بين الكنيستين الشرقية والغربية ، ورغبة البابا في اخضاع كنيسة القسطنطينية للسيادة البابوية والانتقام من البيزنطيين الذين عرقلوا مرور القوات الصليبية وسيبوا ه المتاعب منذ قيام الحروب الصليبية (١) .

أما المؤرخ الفرنسي تسييه Tessier فقد حمل الماركيز دونيغيس أوف مونتفرات قائد الحملة ، مسئولية هذا التغيير في اتجاهها ، وأوضح أنه كان صاحب الدور الرئيسي والأقوى ، وأن فتح القسطنطينية ، كان عملا عظيما ولكنه ليس ألمانيا أو بندقيا ، وإنما فرنسيا (٢) .

نكن المؤرخون كارل هوبف وماس لاتيرى وادوين بيرز يفتقون على أن البنادقة ودوقهم العجوز انريكو داندولو (٣) هم المسؤولون عن هذا التغيير في اتجاه الحملة ويستندون في رأيهم هذا على المعاهدة التي أبرمت بين البنادقة وسultan مصر الملك العادل الأيوبي .

فقد أوضح المؤرخ الألماني هوبف أن البنادقة غرروا بالصليبيين وأنهم في الوقت الذي إتفقوا معهم فيه على نقلهم إلى مصر وكان الصليبيون ينتظرون

(1) Vasiliev : History of the Byzantine Empire, Vol II, P. 455.
بخصوص المزيد من التفاصيل عن دور البابا اينوسنت الثالث في توجيه الحملة ضد القسطنطينية أنظر :

عبيد : روما وبيزنطة ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٣٠٤ - ٣٥٢ .

(2) Tessier (Y) : La quatrieme Croisade, La division sur zara et Constantinople, Paris, Laroux, 1884, PP. 174 — 238.

(٣) - فيما يتعلق بدوق البندقية انريكو داندولو أنظر الفصل الثالث من هذا البحث ،

في الـيدو Lido استعدادا للذهاب إلى مصر ، في نفس الوقت ، كان البنادقة يرمون معاهدة مع الملك العادل الأيوبي حاكم مصر آنذاك .

ويقول هوبف فيما يتعلق بهذه المعاهدة أن الملك العادل أرسل رسلا إلى البندقية مع هدايا ثمينة للدوق داندولو وقدم له هؤلاء الرسل مشروع معاهدة تجارية فحواها أن يغير البنادقة إتجاه الحملة الصليبية عن مصر مقابل منحهم امتيازات جديدة هي حي خاص بهم في الاسكندرية ومنحهم الأمان لأنفسهم وبضائعهم والحجاج الذين يفدون معهم لزيارة الأراضي المقدسة وقد أرسل الدوق داندولو رسولين من قبله هما مارينو داندولو Marino Dandolo ودومنيكو ميشيلي Domenico Michieli للرد على سفارة الملك العادل ، وتمكنا من إبرام المعاهدة في القاهرة في ١٣ مايو ١٢٠٢ ثم عادوا إلى البندقية ومعهم أحد الأمراء المسلمين نائبا عن السلطان للتصديق عليها من جانب — داندولو (١) .

وقد بنى المؤرخ الفرنسي ماس لانبرى رأيه أيضا على هذه المعاهدة التي أبرمت بين البنادقة والملك العادل ، وأرجع دوافع البنادقة وراء هذا العمل ، إلى الانتقام بعنف للأضطهاد الذي عانوا منه في القسطنطينية ومن أمثلته ما تعرض له داندولو ومواطنيه من السجن بناء على أوامر الأمير بطور البيزنطي مانويل كومنينوس رغم المعاهدات التي بين الطرفين . وهناك دافع آخر هو رغبة البنادقة في استعادة مركزهم وامتيازاتهم التجارية في العاصمة البيزنطية ، تلك

(1) Hopf : Geschichte griechenlands von Beginn des Mittela-
lters bis unsere zeit, in Erschlgruter, Encyclo-pedia vols. 85 — 86,
(1867—68), P. 188.

الامتيازات التي حرّمهم منها الامبراطور اليكسيوس الثالث انجيلوس ومنحها لمنافسيهم الجنوية واليازنة (١) .

كذلك اعتمد المؤرخ أدوين بيرز في رأيه على هذه المعاهدة وقال بأن التفوق الذي أحرزته جنوا ويزا على البندقية في القسطنطينية ، قد عرضته هي في مصر ، عن طريق الامتيازات التي حصلت عليها هناك ، وأن ثمن هذه الامتيازات كان حياة المسيحيين والقضية الصليبية . ويضيف بيرز سبباً آخر لعداء داندولو للعاصمة البيزنطية ورغبته في الانتقام منها ، وهو أنه فقد بصره بأمر من الامبراطور البيزنطي مانويل كومنينوس وذلك أثناء زيارته للقسطنطينية في عام ١١٧٢ أو عام ١١٧٣ (٢) .

وهناك فريق آخر من المؤرخين حمل الملك الألماني فيليب السوابي مسؤولية إنحراف الحملة ضد القسطنطينية . نظراً لأن فيليب كان مرتبطاً بروابط المصاهرة مع الامبراطور المخلوع إسماعيل انجيلوس . الذي زوجه من ابنته إيرين وبالتالي فقد وجه فيليب الحملة ضد القسطنطينية حتى يعيد لوالد زوجته عرشه المفقود . ومن جهة أخرى حتى يحرز التفوق على البابوية أثناء صراعه معها بتوجيه الحملة الوجهة التي يراها ، وبذلك يجرّد البابا من سيطرته عليها .

وأول من حمل فيليب السوابي مسؤولية إنحراف هذه الحملة ضد العاصمة البيزنطية هو البابا اينوسنت الثالث نفسه فقد جاء في خطابه إلى الامبراطور البيزنطي اليكسيوس الثالث انجيلوس في ١٦ نوفمبر ١٢٠٢ ما يلي :

(1) Mass Latrie : Histoire de l'île de Chypre sous le regne des princes de la maison de Lusignan, 3 Vols. Paris, 1852 — 61, Vol. 1, pp. 1611 — 164.

(2) Pears : The Fall of Constantinople, Being the Story of the Fourth Crusade, New York, 1975, pp. 263 — 146, P. 259.

«...أننا لم نعر أى اهتمام مطلقا لاليكسيوس ابن الامبراطور السابق اسحاق انجيلوس ، الذى ذهب لفيليب ذوق سوايبا لكى يحصل على مساعدته من أجل إنزاع الامبراطورية منك» .

وفي موضع آخر من نفس الخطاب ، يقول البابا :

.. وحينما أجبناه طبقا لما نراه صالحا ، انسحب من عندنا وتوجه بخطى ربيعة نحو فيليب - زوج شقيقته - المذكور آنفا ، وحينما تشاورا معا ، أرسل فيليب على الفور رسله إلى زعماء الجيش المسيحى ، يلتمس منهم ضرورة اقتحام مملكة القسطنطينية مع اليكسيوس ، وأنهم يجب أن يعيروه النصيح والتأييد من أجل استعادتها لأنه ووالده جردا من حقهما فى الامبراطورية ظلما» (١)

كذلك أرجع المؤرخ البيزنطى المعاصر نقيتاس خونيا تيس Nicetas Choniates المسئولية إلى فيليب السوابى ، وأوضح نقيتاس أن الامبراطور المخلوع اسحاق انجيلوس قد أرسل وهو فى سجنه خطابات إلى ابنته ايرين زوجة فيليب السوابى ملك المانيا ، يطلب منها أن تنتقم لوالدها ، وقد أجابت ايرين عليه مطهرة استعدادها لتحقيق كل ما يطلب ، وأن الأمير اليكسيوس قد تمكن من الهرب بعد ذلك من السجن ، على ظهر سفينة بيزية وتمكن من الوصول إلى ألمانيا حيث رحبت به شقيقته ايرين وطلبت من زوجها فيليب أن يبدل له الحماية والمساعدة من أجل استرداد العرش البيزنطى وأن زوجها قد استجاب لذلك (٢) وهناك أيضا المؤرخ الفرنسى الكونت ريان الذى يرى أن فيليب السوابى

(1) Innocentii III : Epistolae, in Patrologia, latina ed Paris 1855 Vol. CCXIV, Cols 1123 — 1124.

(2) Coniates : Historia, ed. Bekker, in Corpus scriptorum Historiae Byzantinae, Bonn, 1835, p. 710 712.

هو المسئول عن توجيه الحملة ضد القسطنطينية ، وأن هذا العمل من جانب فيليب كان شئاً ذا أهمية في النضال الطويل بين البابوية والامبراطورية الألمانية وأن دوره القيادي في تغيير اتجاه هذه الحملة كان من أجل أن يعيد إلى العرش البيزنطي حليفه ووالد زوجته امحاق انجيلوس ، وأن ذلك بلا شك سيخدمه في نضاله مع البابا ومنافسه في ألمانيا لوتولوف برنسويك Otto of Brunswick وأن بونيفيس لوف مونتفات كان أداة الامبراطور فيليب الذي نفذ سياسته في الشرق (١) .

أما المؤرخ الألماني وينكلمان ، فقد دلل على رأيه في إتهام فيليب السوابي بثلاثة براهين ، أولاً أن الامير اليكسيوس انجيلوس جاء إلى الصليبيين يطلب مساعدتهم تحت حماية فيليب السوابي ، والثاني أن العداء بين فيليب السوابي والبابا كان لا يزال قائماً والنضال بينهما مستمراً ، لذلك رأى فيليب أن يقوم بدور قيادي للحملة الصليبية الرابعة ويوجهها الوجهة التي يراها حتى يبدو العرش الألماني متفوقاً على البابوية . وثالث هذه البراهين ، ان فيليب كان يدرك رد الفعل الذي سيحدث لدى البابا اينوسنت الثالث نتيجة تغيير اتجاه الحملة ، وعدم تنفيذ أوامره الخاصة بإتجاهها ضد المسلمين وإستعادة الاراضي المقدسة ، لذلك كان فيليب حريصاً على أن يتضمن الاتفاق الذي تم بين الامير اليكسيوس والصليبيين بندا يرضى البابا ، وكان هذا البند هو الخضوع بإخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية . وقد أيد وينكلمان رأيه بإدانة فيليب السوابي ومسئولته عن انحراف الحملة ضد القسطنطينية بما ذكره أحد أصحاب الحوليات الألمان في القرن الثالث عشر الميلادي ، من أن القسطنطينية قد حوصرت بأمر

(1) Riant : Innocent III, Philippe de Souvabe et Boniface de Montferra dans Revue des questions historique, XVII, 1875, pp. 331 — 366, XVIII, 1875, pp. 69 — 72.

الملك فيليب ، كذلك حرص فيليب السوابي على حق زوجته في العرش البيزنطي بعد وفاة والدها ، شقيقتها (١) .

وقد حلل المؤرخ الألماني نوردن في بحثه القيم أسباب تغير اتجاه الحملة الصليبية الرابعة ، - أوضح أن اتجاهها ضد القسطنطينية كان بمثابة (فك عقدة) الصراع القديم بين الغرب الأوروبي والدولة البيزنطية ، ذلك الصراع الذي أصبح حادا منذ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي .

وقد بدأ نوردن بإستعراض النضال بين الدولة البيزنطية والنورمان في جنوب إيطاليا ، منذ أيام روبرت جويسكارد (ت ١٠٨٥) الذي استولى في عام ١٠٧١ م على مدينة باري آخر معقل للبيزنطيين هناك ، وحتى أيام وليم الثاني (ت ١١٨٩) . وأوضح أنه بعد مائة عام من تاريخ وفاة روبسرت جويسكارد تمكن النورمان من الاستيلاء على سالونيك التي تلي في الأهمية القسطنطينية مباشرة ، وقد تمكن الامبراطور اسحاق انجيلوس من إرسال جيش بقيادة القائد البيزنطي اليكس يوس باراناس Alexius Baranas استطاع أن ينزل الهزيمة بالنورمان عند ديمترياس : Demetrios في ٧ نوفمبر ١١٨٥ ، وفي العام التالي تمكن من استعادة كل ما فتحه النورمان من أراضي بيزنطية حتى كيفالونيا .

وقد ظل النورمان على عداوتهم للدولة البيزنطية وظلوا يطعنون في ثديهم ، وحين آل عرش النورمان إلى الامبراطور الألماني هنري السادس عن طريق زواجه من الأميرة النورماندية كونستانس وريثة هذا العرش ، ورث هينري ما ورث من تركة النورمان عداوتهم للدولة البيزنطية ، بالإضافة لما كان يضمه

(1) Winkelmann : Philip Von Schwaben und Otto IV, Von Braunschweig, (Leipzig 1873 — 78) Vol. I, pp. 524 — 28.

الامان أصلا من كراهية للبيزنطيين ، وكان هنرى السادس يحلم بوضع تاج خلفاء قسطنطين فوق رأسه ، وقد أعد حملة بالفعل وكان فى طريقه للقسطنطينية لولا أن حالت وفاته فى سن مبكرة دون إتمام هذا المشروع . على أن شقيقه فيليب السوابى الذى خلفه فى حكم المانيا ، لم يستطع أن ينفذ سياسة هنرى السادس الحربية ضد بيزنطة ، وذلك بسبب اشتعال الحرب الأهلية فى المانيا بينه وبين منافسه أوتواوف برنسويك ، لذلك لجأ فيليب السوابى إلى سياسة مصاهرة العائلة البيزنطية الحاكمة ، وكانت هذه السياسة فرعا آخر من خطط هنرى السادس العظيمة للفتح ، وعن هذا الطريق يؤول للامان عرش بيزنطة فى يوم ما .

واستعرض نوردن بعد ذلك العداء بين الدولة البيزنطية والصليبيين الذى بدأ منذ تأسيس المملكة الصليبية فى الشام وفلسطين ، وموقف البيزنطيين من الحملات الصليبية حتى الحملة الصليبية الثالثة التى اشترك فيها امبراطور المانيا فردريك بربروسا ، الذى فكر فى فتح القسطنطينية بعد المتاعب التى أثارها أمامه البيزنطيون . وقد كان استيلاء الصليبيين على العاصمة البيزنطية مما يفتح الطريق أمامهم إلى الأراضى المقدسة ويساعدهم على الدفاع عن هذه الأراضى :

ثم إنتقل نوردن إلى استعراض العلاقات بين الدولة البيزنطية وجمهورية البندقية ، تلك العلاقات التى بدأت طيبة بعد وقوف أسطول البنادقة إلى جانب الامبراطور البيزنطى اليكسيوس كومنينوس أثناء صراعه البحرى مع روبرت جويسكار د ١٠٨١ . وفى العام التالى عقدت معاهدة بين الامبراطور وجمهورية البندقية ، وعقمتها حصلت البندقية على أول امتيازاتها التجارية العظيمة فى القسطنطينية ، وذلك عن طريق منحها حيا كبيرا لاطنيها فى العاصمة ،

واعفائها من المكوس في الموانئ البيزنطية . ثم تطورت العلاقات بين الطرفين بشكل أدى إلى تفوق الجنوية والبيازنة على البنادقة في القسطنطينية واستعادة البندقية لنفوذها في عام ١١٨٥ في عهد اسحاق انجيلوس ثم حرمانها من امتيازاتها في عهد شقيقه مغتصب العرش اليكسيوس ، ورغبة البندقية في استعادة هذه الامتيازات بإشراكها في إعادة حليفها السابق اسحاق انجيلوس إلى العرش عن طريق توجيه الحملة الرابعة ضد القسطنطينية ، وانتقام دوق البندقية داندولو من البيزنطيين الذين تسببوا في فقدانه بصره .

يضاف لذلك كله ، العداء الديني بين الغرب اللاتيني وكنيسة روما وبين الشرق الهلنستي وكنيسة القسطنطينية (١) .

وهكذا ناقش نوردن قضية الحملة الصليبية الرابعة في ضوء العلاقات السياسية والاقتصادية والدينية بين الغرب والشرق ، وأوضح العلاقة الخفية بين اتجاه الحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطينية وبين تاريخ المائة والخمسين سنة السابقة .

من هذا العرض يتضح اختلاف وجهات النظر بين المؤرخين حول هذا الحدث التاريخي الخاص باتجاه الحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطينية وفتحها وإقامة مملكة لاتينية بها ، بدلا من إتجاهها ضد مصر ومحاربة المسلمين واسترداد الأراضي المقدسة في فلسطين .

وقد دفعت كثرة المناقشات التي ثارت حول هذا الموضوع ، المؤرخ

(1) Norden (w) Der vierte kreuzzug in Rahmen der Beziehungen des Abendlandes zu Byzanz. (Berlin, 1898)- pp. 1 — 47.

الفرنسي أشيل لوشير إلى القول «ان علم التاريخ لديه أشياء أخرى يفعلها أفضل من مناقشات لا تنتهى حول مشكلة لا تحل» (١) .

ورغم أهمية هذه الآراء كلها وقيمتها الكبيرة ، إلا أننى أرى أن الأحوال الداخلية التى مرت بها الدولة البيزنطية فى هذه الفترة من تاريخها ، كانت هى المسئول الأول عن إنحراف الحملة الصليبية الرابعة وإتجاهها ضد القسطنطينية ، وذلك على النحو الذى سيتم توضيحه فى الفصول التالية من هذا البحث .

(1) Luchaire (A) : Innocent III , La question d'orient, Paris, Librairie Hachette, 1907, P. 97.

الفصل الثاني

مسئولية البيرنطيين

- انهيار القوة العسكرية
- انحلال الجهاز الادارى
- الصراع من أجل العرش

لقد عانت الدولة البيزنطية في هذه المرحلة من تاريخها من عوامل متعددة كانت السبب في اضطراب أحوالها الداخلية . وأفسحت المجال للغرب الأوروبي للتدخل في شئونها وتحقيق أحلامه في القضاء عليها :

وأول ما عانت منه الدولة كان ضعف قوتها العسكرية ، فان الجيش والاسطول اللذين كانا مثار فخر البيزنطيين في عهودهم السابقة ، وحققوا الدولة عن طريقهما الكثير من الانتصارات والفتوحات ، أصبحت الآن على درجة من الاضطراب والضعف .

وإذا سلمنا بتلك العبارة التي وردت على لسان الامبراطور قسطنطين السابع ، والتي قال فيها «ان الجيش للدولة كالرأس للجسد إذا إنتابه الضعف تعرضت الدولة للخطر» ، أدركنا مدى الخطر الذي كان يربص بالدولة البيزنطية نتيجة لذلك .

وكان الجيش في العصر الذهبي للامبراطورية ، وأعني به القسم الأول من عهد الاسرة المقدونية (١٠٦٧ - ١٠٢٥) ينقسم إلى قسمين : القسم الأول هو التاجماتا Tagmata و كان يربط في العاصمة وضواحيها . والقسم الثاني هو الثيماتا Themata أو جيوش الولايات : وكان يربط في الولايات . وقد تكون القسم الأول (التاجماتا) من أربع فرق للفرسان هم الاسكلارية Scholas والاكسكوبيتر Excubitor والاريشموس Arithmos ، والهيكاناتاس Hicanatas كما ضم فرقة للمشاة عرفت باسم نوميري Numeri

وكانت هذه الفرق الخمس تكون قوة الحرس الامبراطوري وتضم الواحدة منها ما يقرب من أربعة آلاف إلى عشرة آلاف مقاتل : وكان يرأس

كل فرقة ضابط برتبة دمستق Domesticus وقد أصبح قائد فرقة الاسكلارية ، القائد العام للجيش في القرن العاشر الميلادي :

أما جيوش الولايات (التيما) فكان يرأس كل جيش منها استراتيجوس Strategus يختار من الطبقة العسكرية ، وكان يتولى حكم الولاية أيضا وبذلك جمع في يديه بين الشؤون العسكرية والمدنية .

وكان جيش كل ولاية ينقسم إلى قسمين أو ثلاثة يعرف كل قسم منها باسم تورما Turma ، أو الكتيبة ، ويعهد بقيادة كل منها إلى قائد يعرف باسم آمر الكتيبة Turmarchai ، والكتيبة تنقسم إلى سرايا Moira : وهذه تنقسم بدورها إلى عشر فصائل ، يعهد بقيادتها إلى رائد يطلق عليه اسم قومس Comes .

وبالإضافة لذلك وجدت قوات أخرى أسندت إليها مهمة الدفاع عن الحدود بما فيها من قلاع وأبراج وتحصينات أخرى ، وقد أطلق على هذه القوات اسم Acritai كذلك وجدت فرق من المحالفين Foederati كانت تعسكر في أقاليم الحدود ، وترافق الامبراطور عند الخروج للغزو .

وكانت التاجماتا أو الجيش المركزي يستخدم أساسا في الهجوم ، فكان يصاحب الامبراطور أو دمستق القوات الاسكلارية عند القيام بحملة ما ، ثم تلحق به قوات من الولايات والحدود . أما جيوش الولايات التيما فكانت تستخدم في الدفاع شأنها في ذلك شأن قوات الحدود .

وكانت الجيوش البيزنطية تتكون من الفرسان أولا ثم المشاة وقد انقسم كل منهما إلى قسمين فرق ثقيلة السرح ، وفرق خفيفة السلاح ، فكان الفارس ذو السلاح الثقيل يلبس خوذة فولاذية ودرعا من الزرد يكسوه من رقبتة إلى

فخذه ، وقفازا من الحديد ، وأحذية من الفولاذ ، كما تميز الضباط بوضع علامة فولاذية على الجبهة . وكان الفارس يحمل عباءة خفيفة ليرتديها فوق سلاحه أيام الصيف ، وعباءة فضفاضة من الصوف لتقيه برد الشتاء ، وكان سلاحه سيفاً عريضاً وخنجرًا ورمحاً وقوساً للرمية وجعبة للسهم ، وإن كان ممن يقفون في الصفوف الأولى ويقومون بالهجوم جعلت لحصانه درعا فولاذيا على صدره وعصابات من الفولاذ على جبهته :

أما الفارس ذو الأسلحة الخفيفة فكان عادة من الرماة ويرتدي سترة من الزرد .

أما المشاة ذوو الأسلحة الثقيلة فكانوا يلبسون دروعا من الزرد وخوذاً فولاذية ، وكانت أسلحتهم السيف والرمح وفأسا ذات نصل قاطع من ناحية وسن مدببة من الناحية الأخرى . وكان المشاة ذوو الأسلحة الخفيفة يلبسون قميصا طويلا من الزرد إلى الركبة أو دروعا خفيفة وكان سلاحهم السهم والحراب .

هذا ، ولم يزد تعداد الجيش البيزنطي عن مائة وعشرين ألف مقاتل ، منهم ما يقرب من السبعين ألفا كان عليهم واجب القتال في الجبهة الآسيوية ، وكان الجيش يضم إلى جانب المقاتلين مهندسين متخصصين كان عليهم دراسة جميع العقبات الطبيعية التي يمكن أن يصادفها الجنود في أرض المعركة والعمل على التغلب عليها ، كما كانت تصاحبه فرقة طبية ملكية : وكان هناك فرقة من الفرسان تابعة لقسم الخدمات الطبية مهمتها حمل الجرحى من ميدان المعركة إلى أطباء الجيش في الخلف (١) .

(١) فيما يتعلق بالجيش البيزنطي ونظمه وأسلحته أنظر المراجع التاليه : =

كان ذلك عن نظام الجيش البيزنطي الذي خاض به أباطرة الدولة البيزنطية العديد من المعارك وحازوا عن طريقه الكثير من الانتصارات . على أنه بعد وفاة الامبراطور باسيل الثاني في ١٠٢٥ م ، خلفه على العرش أباطرة ضعفاء ونساء ، وهؤلاء جميعا لم يوجهوا للجيش ما يستحقه من الاهتمام والرعاية ، كما أنهم حاولوا التغلب على الأزمات المالية التي واجهتهم عن طريق تخفيض عدد الجيش ، الذي سار نتيجة لذلك في طريق الضعف والإهيار ، حتى بلغ من إهمال أمره أنه حينما تعرضت بعض المناطق على حدود الامبراطورية في عصر قسطنطين دوقاس (١٠٥٨ - ١٠٦٧) للغزو تقرر إقامة الصلاة العامة ، والتمس الجميع من الله وقوع المعجزات ، وتبين للأباطرة أن شراء السلام من الأعداء ، أقل تكلفة من إعداد الجيوش لقتالهم (١) .

وقد استمرت هذه السياسة الخاصة بإهمال الجيش ، وفي ساعات الخطر كان الاباطرة يلجأون إلى الاستعانة بالجنود المرتزقة من الجنسيات المختلفة وكان لهذه السياسة خطورتها فان هذه العناصر كان لا يمكن الأطمئنان إلى ولائها التام ، فقد كانت على استعداد دائماً لخدمة من يدفع الثمن الأعلى ، دون النظر إلى مصلحة أي فريق من المتحاربين ، يضاف لذلك أن بعض هذه

= Runciman : Byzantine civilization, pp. 136 — 148.

Guillon (A) : La civilisation Byzantine, Arthand, Pars, 1974, P. 164 — 172

Brehier (L.) : Les institutions de l'empire byzantin, Editions Albin Michel, Paris, 1970, 271 — 322.

(1) Foord : the Byzantine Empire, London, 1911, P. 319.

العناصر كان يرفض القتال في بعض الاحيان ، وأثناء اشتعال المعركة ، إذا كانت الامبراطورية تقاتل عدوا يربطها بتلك العناصر صلة الاصل الواحد ، كما حدث أثناء معركة متريكوت في ١٠٧١ م حين ألقى الجند المرتزقة من الأثر الكافز في الجيش البيزنطي بأسلحتهم وإنضموا إلى جيش السلاجقة ، وكان ذلك من أسباب هزيمة الامبراطور رومانوس ديوجينيس في تلك المعركة .

هذا إلى جانب أن أباطرة هذا العهد ركنوا إلى حياة الدعة والترف ، وإبتعدوا عن ميادين القتال ، وبعد أن كان الأباطرة أمثال باسيل الأول ونقفور فوقاس ويوحنا تريمسكس وباسيل الثاني يقودون الجيوش بأنفسهم في ساحات القتال ويتحملون مشاق الحرب ، أصبح أباطرة هذا العصر يوكلون مهمة قيادة الجيوش إلى عناصر مرتزقة أيضا .

كان من نتيجة استخدام المرتزقة في الجيش البيزنطي أن انحطت الروح القومية ، ويقول المؤرخ الاسباني بنيامين أوف توديلا Benjamin of Tudela الذي زار القسطنطينية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي ، «ان اليونان يستأجرون جنودا من كل الأمم يطلقون عليهم اسم البرابرة ، ليست لديهم الروح العسكرية ، وهم كالنساء ، غير لائقين للأعمال الخربية» .

حقيقة أن تقاليد ونظم الجيش البيزنطي كانت لا يزال معمولاً بها حتى عام ١٢٠٤ ، لكن الروح العسكرية القومية التي صنعت الكتيبة البيزنطية الناجحة التي حققت الانتصارات في عهود القوة ، كانت قد اختفت (١) . وقد كان من نتيجة الصراع بين الأسرة الحاكمة في بيزنطة لمدة ربع قرن

(1) Pears : The Fall of Constantionple, PP. 211 — 212.

سابق على عام السقوط في ١٢٠٤ أن أصبح الأباطرة عبيدا لجنودهم المرتزقة ، فقد أخذوا في شراء تحالفهم بعطاءات كبيرة ، وأدى ذلك بالتالي إلى إزدياد قوة هؤلاء المرتزقة وجشعهم . وفي عام ١١٩٥ حين قبض اليكسيوس . نجاوس على شقيقه الامبراطور ايماق ووضع به بالسجن ، أخذ الامبراطور الجديد يقدق بلا حساب على أتباعه من المرتزقة ، وبعد أن فرغت أموال الخزينة الامبراطورية ، لجأ إلى توزيع أملاك الدولة على هذه القوات حتى ينال رضاهم عنه وحمايتهم له (١) .

وقد بلغ من انهيار الجيش البيزنطي في عصر هذا الامبراطور أنه حينما قرر الامبراطور الألماني هنري السادس غزو القسطنطينية تحقيقا لأطماعه فيها ، تملك الذعر الامبراطور اليكسيوس الثالث ، وقرر أن يدفع ضريبة سنوية لهنري عبارة عن مبلغ ضخم من الذهب ، وتحقيقا لذلك فرض اليكسيوس على كافة طبقات الشعب ضريبة الالمين .. German Tax . وحينما رفض رجال السناو ورجال الدين وعامة الشعب دفع هذه الضريبة ، لجأ إلى نهب خزائن الكنائس والذهب والفضة والمجوهرات التي حليت بها مقابر الأباطرة الراحلين لكي يستعين بكل ذلك على شراء السلام مع الالمان بدلا من محاربتهم (٢) .

لكي هذا هو الحال بالنسبة للجيش البيزنطي في الوقت الذي تعرضت فيه العاصمة البيزنطية للخطر من جانب الصليبيين ، ولم يكن الاسطول بأحسن حالا ، خاصة إذا علمنا أن البيزنطيين بصفة عامة وفي عصورهم المختلفة كانوا ينظرون للاسطول على أنه مساعد للجيش لا سلاحا قائما بذاته ، ومن ثمة فلم

(1) Pears : The Fall of Constantine, P. 212.

(2) Ostrogorsky : History of the Byzantine State, P. 412. Pears : op. cit., P. 213.

يحفظ الاسطول قط بنفس الأهمية ولا العناية التي حظى بها الجيش (١) .

وكانت القوة البحرية للامبراطورية البيزنطية في شرق البحر الأبيض المتوسط في عصرها الذهبي ، أى النصف الأول من عهد الأسرة المقدونية ، تتكون من أسطول حربي دائم يضم اسطولا مركزيا امبراطوريا ، وثلاثة اساطيل اقليمية .

وكان الاسطول الامبراطوري يتخذ مركزه عند القسطنطينية وترابط بعض قطع منه عند جزيرة متلين بقصد حراسة مضيق الهللسبونت ، وقد أصبحت هذه الجزيرة أكثر القواعد البحرية أهمية ، إذ كانت عائقا في وجه نشاط المجاهدين المسلمين من كريت وبحر ايجة .

وكان يتولى قيادة الأسطول الامبراطوري ادميرال عرف باسم Drongarius of the Ploimen كان بمثابة القائد العام للبحرية .

أما الثلاثة الأساطيل الإقليمية ، فكانت أسطول ثيم كبير هايوت ، على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى المواجه للبحر الأبيض المتوسط ومهمته حماية الشواطئ الجنوبية للاناضول ضد غارات القوات الاسلامية القادمة من طرسوس والشام .

واسطول ثيم بحر ايجة ، ومهمته حماية الشواطئ الأوربية لهذا البحر . واسطول ثيم ساموس ويتولى حماية الشواطئ الاسيوية لبحر ايجة ضد غارات مسلمي كريت .

(1) Runciman : Byzantine civilization, PP. 149 — 155.

لويس : التوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، ١٩٦٠ ، ص ٢٤٥

وقد وجدت إلى جانب هذه الاساطيل قوات بحرية أقل أهمية من بعض الثغور مثل هيلاس والبلوبونيز وكيغالونيا وبامبلاجونيا .

وقد احتفظ كل اسطول أقليمي بمستلزماته الخاصة من سفن الحرب والبحارة ودور الصناعة وأحواض البناء والمعدات البحرية الأخرى ، وذلك على نفقة الاقاليم التي ترابط فيها هذه الاساطيل ؛ وفي أوقات الحرب كان على الثغور البحرية التي تقع في مناطقها أن تمدّها بكل ما يلزمها من سمن النقل والمؤن .

وكانت سفن الاسطول على أنواع منها سفن تدعى (درومونة) وهي سفينة ذات صفيّ من المجاديف ، وكانت تستخدم لحمل المقاتلين وكانت حمولتها تبلغ الثلاثمائة مقاتل . و (البامفيلية) وهي سفينة سريعة الحركة غالبا ما كان قائد الأسطول يتخذ منها سفينته الخاصة . و (الغليون) Galley وبها صفوف مفردة من المجاديف . وكانت توضع في مقدمة السفن آلات لقذف النار الاغريقية كما كان البحارة يجهزون بقنابل يدوية تحتوي على نفس تلك المادة الكيماوية القاتلة الشديدة الانفجار .

وقد وجه البرنطيون إلى علم العمليات البحرية اهتماما كبيرا فدرس القادة البحريون الأوصاف الطبيعية للساحل والجزر وخصائص الرياح ، وكانت الاشارات تتم عن طريق الرايات واستخدام الأضواء ليلا ، كما كانوا يفضلون المناوشات المنفصلة على المعارك البحرية الفاصلة . أما حين يضطرون لحسوس معركة وجهها لوجه مع العدو فأنهم يفضلون حينئذ تنظيم الأسطول على شكل نصف دائرة :

هذا وقد لقي السلاح البحري البيزنطي عناية كبيرة وذلك في أواسط القرن العاشر الميلادي ، أثناء حكم الامبراطور رومانوس ليكاينوس (٩١٩-٩٤٤ م) الذى كان قائدا للأسطول البيزنطي قبل أن يثب إلى العرش الامبراطورى . ومن ثمة فقد اهتم بالقوة البحرية للامبراطورية ، وأخذ في بناء سفن حربية أكثر ضخامة وأعظم قوة عن ذى قبل ، وبذلك تكون الاسطول البيزنطي الذى أصبح أداة فعالة في يد نقفور فوقاس . ويمكن ملاحظة ذلك من الوصف الذى جاء لبعض سفن الاسطول الذى صاحب نقفور في حملته على كريت الاسلامية في يوليو ٩٦٠ ، فقد بلغت بعض السفن الحربية ان كان عدد المحدفين بها يبلغ ٢٥٠ بحارا ، وكان للسفينة الواحدة أربعة طبقات للمجاديف .

على أن الاسطول البيزنطي لم يلبث أن لقي إهمالا نسبيا وذلك في الغالب ، لخوف الاباطرة من القوة المفرطة التى قد يبلغها قائد الأسطول حيث وجد رومانوس ليكاينوس في أمرة الأسطول خير وسيلة يرقى بها إلى العرش .

يضاف لذلك عدم تعرض الامبراطورية لاختار بحرية كثيرة من جانب القوى المنافسة لها مما جعل الابقاء على أسطول كبير ذى قوة فعالة يسدو اسرافا لا مبرر له في نظر بعض الاباطرة (١) .

(١) بخصوص الأسطول البيزنطي في الأزمنة التاريخية المختلفة ، أنظر المراجع التالية :

Runciman : Byzantine Civilization, PP. 149 — 155.

Guillon : La Civilization Byzantine pp. 172 — 175.

Brehier : Les institutions de l'empire byzantine, pp, 323 — 342.

لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط ،

٢٤٢ — ٢٤٥ .

بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة د . حين مؤنس ، ص ١٩٤ —

« م ٢ — الحملة الصليبية »

١٩٥ .

حقيقة ان البيزنطيين حافظوا على وجود الاسطول ، غير أنه أصبح على درجة من الضعف لا تسمح له بإحراز نصر بحرى على الاعداء ، وحين تعرضت الامبراطورية لخطر النورمان البحري في عهد اليكسيوس كومنينوس (١٠٨١ - ١١١٨) لجأ هذا الامبراطور إلى الاستعانة بأسطول البندقية لدفع هذا الخطر ، وتمكن هذا الاسطول من تحطيم أسطول النورمان في عام ١٠٨٥ م (١).

وقد سار الاباطرة اللاتينيون لاليكسيوس على نفس تلك السياسة الخاصة بالاستعانة بأساطيل المدن البحرية الايطالية ، وخاصة البندقية . للدفاع عن سواحل الامبراطورية والمقاتل البحري نيابة عن البيزنطيين ، حينما تستدعى الحاجة ذلك . واستمر الحال على هذا النحو حتى عام ١٢٠٤ حين وقع الهجوم البحري على العاصمة البيزنطية وكان هذا الهجوم بأسطول البنادقة أنفسهم ، أى أن الاسطول الذى تولى الدفاع عن العاصمة البيزنطية فى الفترة السابقة تحول الآن إلى خطر يهددها .

فى ذلك الوقت كان الادميرال ميخائيل ستروفنوس Michael Struphnos شقيق زوجة الامبراطور اليكسيوس الثالث متوليا شئون الاسطول البيزنطى وقد بلغ به الاهمال والجشع وعدم تقدير المسئولية ، إلى درجة أنه باع ذخيرة الاسطول كلها ، وبذلك أصبح الاسطول لا يستطيع القيام بأى دور فعال فى مقاومة الحصار البحري للعاصمة البيزنطية من جانب اسطول البنادقة فى عام ١٢٠٤ م (٢) .

كان ذلك فيما يتعلق بضعف القوة العسكرية البيزنطية . وقد كانت الآثار

(1) Ostrogorsky : op. cit. P. 358.

(2) Pears : The Fall of Constantinople, p. 211.

المرتبة على ذلك خطيرة ، فحين تعرضت العاصمة البيزنطية للهجوم من جانب البنادقة والصليبيين في عام ١٢٠٤ ، لم يتهيا للعاصمة وجود الجيش أو الاسطول الكفء الذى يستطيع أن يضطلع بواجبه فى الدفاع عنها وإبعاد هذا الخطر الذى يهددها .

يضاف لذلك عامل آخر يتعلق بمسئولية البيزنطيين عما لحق بعاصمتهم على أيدي الحملة الصليبية الرابعة . وهذا العامل خاص بإنحدار الجهاز الإدارى فى الدولة نتيجة لعدم كفاءة الأباطرة الذين تولوا العرش البيزنطى فى هذا العصر . ذلك أن عهد الأباطرة العظماء أمثال ثقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس وباسيل الثانى ، كان قد إنتهى وتولى تصريف شئون الحكم أباطرة لا يتمتعون بأية كفاءة إدارية . ويكفى لإظهار ذلك عمل مقارنة بين أحد الأباطرة العظماء مثل باسيل الثانى وأباطرة عائلة انجياوس .

يصف المؤرخ البيزنطى ميخائيل بيسالوس : الذى كان قريب العهد بعصر الإمبراطور باسيل الثانى هذا الإمبراطور بقوله : أنه إمتاز بالنشاط الوافر والصلابة . كما إشتهر بمهارته العسكرية ، فكان فارسا شجاعا ملأ بكل صغيرة وكبيرة فى شئون الحرب وتنظيم الجيوش ، كما إشتهر بالحزم وشدة المراس فى القتال وحرصه على أن يلتزم جنوده وقادة جيشه بتنفيذ أوامره حرفيا ، وكان ينزل أشد العقاب بمن يجرد عن تعليماته حتى وأن حتمتق للامبراطورية الانتصار عن هذا الطريق .

وقد عرف عن باسيل خروجه على القاعدة التى جرى عليها الأباطرة الذين سبقوه ، فى تحديد أوقات معينة لحملاتهم تقع عادة بين منتصف الربيع ونهاية الصيف . ثم يعودون للعاصمة لقضاء فصل الشتاء بها . فإنه لم يلتزم

بهذه القاعدة ، وإنما كانت عودته إلى العاصمة مرتبطة بإنجاز عمله وتحقيق الغرض الذى خرج من أجله . هذا ولم تقل كفاءة الامبراطور باسيل ومهارته الإدارية وتصريفه لشئون الدولة عن مهارته فى ميدان الحرب والقتال (١) .

أما يحيى الانطاكى - المؤرخ المسيحي الذى عاصره - فقد أجمل صفات الامبراطور باسيل الثانى فى عبارة موجزة وأن كانت تحوى الكثير من المعانى قال «أنه لم يزل فى جميع أيام ملكه مقتصرًا فى مطعمه ومشربه وزيه لازماً الحمية طوال حياته : ناظرًا فى سائر أمور مملكته ما جل منها وما صغر ، وخلف من المال ستة آلاف قنطار مسكوكة . وكان جميع ما وجد من المال حين احتوى على الملك أربعة قناطير لا غير» (٢) .

فإذا انتقلنا إلى اباطرة أسرة انجيلوس ، وجدنا أن أولهم وهو اسحاق (١١٨٥ - ١١٩٥) كان من النوع الذى لا يهتم كثيراً بشئون الدولة . وقد أطلق لأتباعه العنان وسمح لهم بالتدخل فى تلك الشئون دون أى مراقبة منه أو إهتمام بما يجرى . وقد أصبح من الأمور العادية أن يتحدث الناس عن الموظفين الفاسدين فى العاصمة والولايات ، وفظاعة جباة الضرائب ، وأخبار الرشاوى وبيع الوظائف ، ويقول المؤرخ البيزنطى نقيتاس خونيائيس «ان الامبراطور اسحاق الثانى يبيع وظائف الدولة كما تباع الخضار فى السوق» .

وقد بلغ من حب هذا الامبراطور للمال وإستهتاره بحقوق رعاياه أنه فرض على المقاطعات ضريبة خاصة لتغطية نفقات زواجه من شقيقة ملك هنغاريا ،

(1) Psellus : Chronographia, Traduit du grec par Renauld, Paris, 1926, Tome 1, pp. 20 — 22.

(٢) يحيى الأنطاكى : صلة كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، بيروت ١٩٠٥ ، ص ٢٤٩ .

وقد احتفل بهذا الزواج بأبهة وعظمة نادرتي المثال ، وكان ينظر إلى الامبراطورية التي أوقعها الاقدار في قبضته نظرتة إلى مزرعة خاصة يحق له استغلالها واستثمارها لصالحه وصالح أسرته (١) .

أما مائنته ، فإنها كانت يوميا مثالا للاسراف والبذخ ويصفها خونيا تيس بقوله أنها عبارة عن « غابات من الطيور وبحار من الاسماك » وأنهار من الخمر وجبال من الخبز » (٢) .

وكان يرتدى في كل يوم حلة جديدة ، ويوما بعد يوم يذهب لعمل ما نطلق عليه في وقتنا الحاضر اسم « الحمام التركي » مستعملا فيه العطور الانخاذة ، ويخرج منه خروج العروس ، ويمشي مختالا كالطاووس . كما أنه كان مولعا بالخمر والنساء ، وأحاط نفسه بالمغنيين والمهرجين .

وهكذا فافتت نفقات البلاط كل الحدود ، في الوقت الذي كان دخل الخزينة الامبراطورية في نقص مستمر ، وبالتالي لم يعد هناك موازنة بين الدخل والنفقات ، ولكي يتغلب الامبراطور على ذلك لجأ إلى التردى في إبتزاز الشعب عن طريق الضرائب ، والغش في سك العملة ، وإلى نهب الكنائس ، وحتى الاواني المقدسة نقلت من الكنائس إلى القصر لاستعمال الامبراطور وحاشيته ، كما جردت الأناجيل من الأحجار الكريمة والحلى النفيسة التي استخدمت في تجليدها (٣) .

أما شقيقه اليكسيوس الثالث (١١٩٥ - ١٢٠٣) فلم يكن بأكثر كفاءة

(1) Ostrogorsky : op. cit. pp. 401 — 402.

(2) Chonates (N) : Historia, ed Bonn, p. 579.

(1) Pears : The Fall of Constantinople, pp. 205 — 206.

منه ، فقد كان أبعد ما يكون عن الامبراطور الصالح لتصريف الشؤون الإدارية للامبراطورية ، ويمكن ملاحظة ذلك من هذه الكلمات التي وصفه بها خونياتيس إذ قال : « ان أية ورقة تقدم للامبراطور من أجل توقيعه كان يوقعها مباشرة لا يبالى إذا كانت هذه الورقة تشتمل على مجموعة من الكلمات الفارغة ، أو ملتصقا يسأل البحار في الأرض ، أو الفلاحة في البحر ، أو نقل الجبال إلى وسط المحيطات ، أو رفع جبل آتوس من مكانه ووضع فوق قمة جبل اوليمبوس » (١) .

وهكذا فقد ساءت الأمور أكثر من السابق ، وحل الجوع والحرب بسكان الريف نظراً لازدياد الضرائب عليهم ، وكثيرا ما كانت نفس الضريبة تجبى ثلاث مرات في العام الواحد ، وذلك لمواجهة نفقات البلاط ودفع الأموال للأعداء لشراء السلام معهم . وقد وجد الأباطرة أن هذه الطريقة أسهل واجدى من خوض معارك وحروب يعرفون سلفا أنهم لن يكسبوها . هذا في الوقت الذي كانت ولايات الامبراطورية تمر صة لهجمات الأعداء وشواطئها مفتوحة أمام غارات القراصنة ورغم أن مساحة الأرض الخاضعة للدولة كانت تتقلص باستمرار لما يستولى عليه الأعداء منها ، فإن عدد المقاطعات التي قسمت إليها الامبراطورية قد تضاعف في القرن الثاني عشر عما كان عليه أثناء حكم الأسرة المقدونية ، وأصبحت الامبراطورية مشكلة من وحدات إدارية صغيرة لا تشابه ما كانت عليه في الماضي إلا في الاسم فقط ، وقد أدى نمو الاقتطاعات الخاضعة إلى إزدياد نفوذ كبار ملاك الأراضي على حساب نفوذ رجال الحكومة في المقاطعات ، حتى أصبح المالك

الاقطاعى هو الحاكم الإدارى الفعلى فى مقاطعته ، وأدى ذلك إلى ظهور نوع من الامارات المستقلة عن الحكم المركزى التى يحكمها أكبر مالك لساأرض فيها (١) ؛

وهكذا أصبحت الامبراطورية البيزنطية فى تلك الفترة تعاني من انحلال جهازها الإدارى ، وانتشر الشغب فى أنحائها سواء فى الولايات أو فى العاصمة نفسها . وقد زاد من تفشى هذا الشغب المعارك الدامية التى كثيرا ما قامت فى شوارع العاصمة بين الأجانب والأهالى ، وبين الأجانب بعضهم والبعض الآخر مثل المعارك التى غالبا ما كانت تنشب بين البنادقة والبيازنة (٢) .

على أن أهم الأخطاء التى ارتكبها البيزنطيون وتسببوا بها فى العمل على انحراف الحملة الصليبية الرابعة ضد عاصمتهم كان الصراع الذى قام بينهم من أجل الاستحواذ على العرش البيزنطى .

ويرجع ذلك الصراع إلى أواخر عهد الأسرة الكومنينية ، فقد تولى العرش الامبراطور مانويل كومنينوس (١١٤٢ - ١١٨٠) الذى كان متأثرا إلى حد بعيد بأسلوب الفروسية الغربية ، وأحب العادات الغربية وأدخلها فى تقاليد البلاط البيزنطى . كما أنه تزوج من اميرتين غريبتين هما برتا الالمانية ، ومارى الفرنسية «التي غاقت أفروديت بعينيها الساحرتين ، وشعرها الذهبى ، وابتسامتها العذبة» (٣) الأمر الذى أضفى على قصره مظهرا غريبا وجعله مختلف عما كان عليه الحال زمن أسلافه ، بعد أن ساد فيه جو من المرح والتمتع بالحياة والبعد عن التقاليد ، وأقيمت المبارزات بين الفرسان على النحو الذى كان معروفا

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 402.

(2) Vasiliev : op. cit. p. 349.

(3) Choniates : Historia, p. 15.

في الغرب الأوروبي في تلك الفترة من العصور الوسطى ، واشترك الامبراطور مانويل بنفسه في هذه المبارزات ، الأمر الذي أثار دهشة رعاياه البيزنطيين الذين لم يألّفوا مثل تلك التصرفات من أباطرتهم السابقين ، وقد أدى هذا الاتجاه نحو الغرب إلى إنفتاح حدود الامبراطورية البيزنطية أمام اللاتين الغربيين ، الذين تدفقوا إليها وزادت أعدادهم داخل العاصمة وقد تقلد عدد كبير منهم بعض المناصب العليا في الدولة مما أدى إلى قاتٍ وتدمير العناصر اليونانية داخل الامبراطورية (١) .

وبعد وفاة الامبراطور مانويل في ١١٨٠ خلفه على العرش ابنه اليكسيوس الثاني الذي كان في الثانية عشر من عمره فتولت الوصاية على حسب التقاليد المعمول بها والدته ماري الانطاكية، اللاتينية الأصل، وقد وقع اختيارها على ابن أخ الامبراطور الراحل ويدعى اليكسيوس وكان يحمل لقب Protosebastos (٢)

ليساعدوها في تصريف شئون الامبراطورية ، نظراً لما كان يعرف عنه من تعاطف مع اللاتين وتأييد لسياسة التعاون معهم ، ولم يكن هذا اختياراً موفقاً من جانب الامبراطورة ماري ، إذ أدى ذلك إلى إثارة المشاكل والانتقادات لسلوكها بين أفراد الأسرة الحاكمة من آل كومنين ، وأفراد الشعب على حد سواء (٣) .

(1) Ostrogorsky : op. cit., p. 380.

(٢) معنى هذا اللقب (الجليل الأول) وهو لقب شرف دون لقب قيصر Caesar ، وكان يسمح لحامل هذا اللقب وزوجاتهم أن يتناولوا الطعام على المائدة الامبراطورية .
أنظر عن ذلك :

Runciman : Byzantine Civilization, p. 84.

(3) Ostrogorsky : op. cit. p. 394.

Hussey; The later macedonians, The comneni, and The Angeli, 1025—1204, in C.M.H. ed Hussey, Cambridge, 1975, Vol. IV, part 1, p.24.

يضاف لذلك أنه كان من الطبيعي أن تعمل ماري ويؤيدها اليكسيوس على التعصب لأبناء جنسها اللاتين مما زاد في كراهية البيزنطيين للفتنة الحاكمة وتطلّعهم إلى التخلص منها ، وقد انحصرت هذه الكراهية بشكل خاص نحو عنصرين منهم هما : التجار الإيطاليون الذين أثروا على حساب الشعب البيزنطي والعنصر الآخر هو الجنود اللاتين المرتقة الذين اعتمدت عليهم الامبراطورة ماري ومنعتهم ثقتها ودعمها . وقد حاول أفراد أسرة كومنين أن يعملوا على التخلص من هذا الحكم اللاتيني عن طريق التخلص من ماري وصديقتها اليكسيوس ، ونتيجة لذلك اندلعت فتنة داخلية في مايو ١١٨١ ، ولجأت ماري إلى كنيسة آيا صوفيا للاحتباء بها ، ولانتهى الأمر بفشل هذه الفتنة ، لأنه لم يتهبأ لها زعيم له من الصفات ما يجعله أهلاً للنجاح من ناحية ، ومن ناحية أخرى لتدخل البطريرك ثيودوسيوس الذي عمل على إقرار الصلح بين الطرفين وروبغ ماري واليكسيوس على سلوكهما (١) .

عند ذلك بدأ اسم اندرونيكوس كومنين ، يلمع في سماء الأحداث الجارية وقتذاك ، ويوضح المؤرخ البيزنطي نقيتاس خونيايتيس الموقف في هذه الكلمات « وقبل كل شيء فأننى سوف أتذكر كيف أنه في وقت الانزعاج والألم فإن الامبراطورية الرومانية ، لجأت إلى عزيزها السابق اندرونيكوس العظيم ، لتحطيم إستبداد اللاتين الجائر الذين مثل الاعشاب الطفيلية فرضوا أنفسهم على الفرع الصغير للامبراطورية . جاء سريعاً ، ولم يحضر معه أعداد كبيرة من الاتباع أو المشاه أو الفرسان ، ولكنه تسلح فقط بالعدالة ، سائراً دون تردد نحو المدينة الحبيبة ، وأول ما منحه للعاصمة كان

(1) Brehier : Byzance, pp. 342 — 343.

Ostrogorsky : op. cit., p. 395.

تخليصها من الطغاة اللاتين المتعجرفين ، وتنظيف الامبراطورية من خليط البرابرة بدافع من حبه الطاهر .

أما عن اندرونيكوس هذا الذى تركزت حوله آمال البيزنطيين فى ذلك الوقت العصيب ، فهو ابن عم الامبراطور الراحل مانويل كومنينوس ، ويصفه المؤرخون بأنه كان رائع الصفات ، ذا ثقافة عالية . ذكيا فصيحاً ، شجاعاً فى ميدان الحرب ، على دراية واسعة بالشئون الإدارية للامبراطورية ، وإن كان مما عرف عنه أيضاً إسرافه فى المغامرات العاطفية التى كانت مثار أحاديث الناس فى بيزنطة .

وكان التنافس بين اندرونيكوس ومانويل قديماً ، فقد وقف الأول من الثانى موقف التحدى والمعارضة لسياسته الخاصة بمحاولات التقرب من الغرب كما كان عدوا للطبقة الارستقراطية الاقطاعية . وقد كان اندرونيكوس يطمح فى العرش ، لذلك تأمر ضد سلامة ابن عمه الامبراطور ، وكان من نتيجة هذا الخلاف كله أن اضطر اندرونيكوس أن يعيش حياة التشرد والترحال والحرب الدائم من وجه الامبراطور ، بعد أن سجنه فى القصر لمدة تسع سنوات وقد لجأ إلى أحد الأمراء الروس ومكث عنده فترة من الزمن ، ثم عاد للعاصمة ونجح فى كسب ود الامبراطور مانويل ، الذى أكرمه ومنحه الكثير من العطايا ، ثم أرسله إلى إقليم قيليقية لجمع خراجة وخراج جزيرة قبرص وقد أنجز اندرونيكوس مهمته بسرعة وبدلاً من العودة للعاصمة توجه إلى انطاكية وخطب فيليبيا Philippa شقيقة الامبراطورة ماري زوجة مانويل ، غير أنه تركها دون سبب ظاهر ، وذهب إلى فلسطين فى ١١٦٧ ، حيث قام بمغامرات عاطفية مع ثيودورا أرملة الملك بلدوين الثالث التى كانت تعيش فى عكا بعد وفاة زوجها ، وقد ذهب بها إلى بلاد المسلمين ، حيث أنجبت

له طفلا ، ثم تركا هذه البلاد ، وأتجها إلى جورجيا وتحالف ، اندرونيكوس مع الأتراك ضد الامبراطور مانويل على أنه لم يلبث أن عاد إلى العاصمة البيزنطية ثابا متراميا عند قدمي الامبراطور ، الذي عينه حاكما لأقليم بونطس Pontus ورغم تقدمه في العمر بعد أن تجاوز الستين إلا أنه ظل يحلم بالحكم (١) .

حين علم اندرونيكوس بما عليه الوضع في العاصمة ، جمع قواته القليلة العدد وأتخذ طريقه إلى القسطنطينية ولم يلق مقاومة تذكر ، بل أنه لقي الكثير من التأييد وانضم إليه كثير من المؤيدين خاصة بعد أن أعلنها حربا قومية دينية بأسم اليونان ، والارثوذكسية . وفي ربيع ١١٨٢ م وصل بقواته وبمن انضم إليه أثناء رحفه إلى خلقيونية وعسكر فيها . وقد حاول اليكسيوس المسيطر على الأمور في العاصمة أن يمنع تقدم اندرونيكوس عن طريق إغلاق البوسفور في وجهه معتمدا في ذلك على الأسطول الذي كان أغلب رجاله من اللاتين . غير أن قائد الأسطول سرعان ما اتخذ جانب اندرونيكوس وانضم إليه ، وفي نفس الوقت اندلعت فتنة خطيرة في القسطنطينية في سبتمبر ١٠٨٢ وقبض الأهالي على البروتوسباستوس اليكسيوس وسملوا عينيه وأودعوه بالسجن ، وقاموا بمهاجمة بيوت اللاتين في العاصمة ونهبوها وأحرقوا متاجرهم ، واعملوا فيهم يد الذبح ، وكان القتل نصيب كل لا تبنى لم يستطع الفرار قبل ان تصل إليه يد الأهالي (٢) .

(1) Kinnamos (Y) : Deeds of John and Manuel Comnenus, Translated to English by Chales M. Brand, Columbia University Press, New York, 1976, Book V, pp. 175 — 176, Book VI, pp. 188 — 189.

Hussey : op. cit., p. 244.

Ostrogorsky : op cit., p. 395.

(2) Hussey : op. cit., p. 244.

وهكذا شق اندرونيكوس طريقه إلى العاصمة وسط مذبح مروعة سالت فيها دماء اللاتين ، وكانت هذه المذبح تنفيذا عن كل ما عاناه البيزنطيون من عجرفة وتسلط هذا العنصر على الحكم .

وقد أعلن اندرونيكوس أنه إنما جاء ليخلص الامبراطور الشرعي القاصر اليكسيوس الثاني من شرور أمه وآثامها ومن أجل ذلك أجبر الامبراطور الصغير على أن يوقع بيده على وثيقة لإعدام والدته الامبراطورة ماري وشقيقته ماري ابنة مانويل الأول (١) ، وقد لقي حتفه معها عدد كبير من اللاتين الذين اعتمدت عليهم الامبراطورة أثناء فترة وصايتها على العرش البيزنطي (٢)

وفي سبتمبر عام ١١٨٣ م توج اندرونيكوس كامبراطور مشارك في الحكم للامبراطور اليكسيوس الثاني ، ولم يمض شهران على تتويجه حتى تخلص من الامبراطور الشرعي بالقتل ، ولكي يضمن على حكمه شرعية أكثر تزوج من أرملة الامبراطور الصغير وكانت تدعى آجني — Anna-Agnes — وهي ابنة لويس السابع ملك فرنسا — وكانت آنذاك في الثانية عشر من عمرها أما اندرونيكوس فكان في الثالثة والستين (٣) .

بعد ان تربع اندرونيكوس على العرش البيزنطي أخذ على عاتقه القيام بالعديد من الاصلاحات الإدارية في الدولة وكان رائده في اصلاحاته تلك أنه «ليس هناك اعوجاج لا يستطيع الامبراطور تقويمه ، وليس هناك ظلم لا يستطيع الامبراطور دفعه» (٤) وينقسم عهد اليكسيوس إلى مرحلتين ، المرحلة

(1) Hussey : op. cit., II, p. 244.

(2) Ostrogorsky : op. cit., pp. 395 — 396.

(3) Hussey : op. cit., p. 244.

(4) Ostrogorsky : op. cit., p. 396.

Vasiliev : op. cit., p. 433.

الأولى : كان يقوم فيها بإصلاح الفساد وإنزال العقاب بمسبييه ، وأما المرحلة الثانية : فقد تحول فيها عمله في الإصلاح إلى تعطش للدماء ولجوءه إلى العنف بدون مبرر . بدأ اندرونيكوس بنشاط إصلاحى كبير ، فزاد رواتب الموظفين حتى يحميهم من إغراء الرشاوى ، وعين قضاة إشتهروا بالسمعة الحسنة ، كما قام بتخفيف أعباء الضرائب وإنزل عقابه بمن لا يلتزم الأمانة من جباةها ، والذين يحققون مكاسب شخصية عن طريق إبتزاز الفلاحين ، وكان لذلك أثره في تحسين الأوضاع في مقاطعات الامبراطورية ، وجعل الفلاحين يشعرون بالأمان والراحة اللذين حرما منها زمنا طويلا ، ويقول نقيتاس خونياتيس : «أن الفلاح الذى كان يعطى مالم يقصر لقيصر ، كان لا يمس بأى سوء، وكان لا يحرم ، كما كان الحال من قبل ، من آخر قميص على جسده ، ولا يعذب حتى الموت ، لأنه كان لاسم اندرونيكوس فعل السحر في إبعاد جباة الضرائب الجشعين عن الفلاحين الضعفاء . ونتيجة لذلك زادت شعبية اندرونيكوس وألف الشعب أشعارا له يمجدون أعماله ويتغنون بها .

ومن أمثلة ذلك ما قاله ميخائيل اكوميناتوس ممجدا الامبراطور : «منذ زمن بعيد ، ونحن مؤمنون بأنك لطيف مع الفقير ، مرعب الجشع ، لأنك حامى الضعيف ، وعدو للمعتدين ، لأنك لا ترغب في أن يميل ميزان العدالة يمينا أو يسارا ، ولأنك صاحب الأيدى الطاهرة التى لم تتاوت بالرشاوى قط» . على أنه بمرور الوقت أخذ عدااء اندرونيكوس للطبقة الارستقراطية يزداد عنفا وقد حارب اندرونيكوس كل من ينتمى إلى هذه الطبقة سواء بالمولد أو بالثروة . وتحولت مطاردته لهذه الطبقة إلى مذبحه جماعية ، مما أدى إلى فرار كثيرين منهم إلى إيطاليا ، وهناك حاولوا إشعال نيران العدااء بين الإيطاليين وبيزنطة ، كما أن الجمهوريات التجارية الإيطالية التى قاست الكثير

من جراء خسائرها وخصوصا خلال مذبحة عام ١١٨٢ التهب شعور كراهيتها للبيزنطيين وحقدتها عليهم (١) .

وقد استغل حاكم صقلية ولیم الثاني هذه الظروف المضطربة في بيزنطة وجهاز حملة ضدها في ١١٨٥ وكان هدفه من هذه الحملة الانتقام لمذبحة عام ١١٨٢ ، وكذلك الاستحواذ على العرش البيزنطي ، وقد استولى ولیم الثاني على دورازو Dorazzo ثم اتخذ النورمان طريق Via Egnatia وساروا نحو سالونيك ، وحاصروها برا وبحرا لمدة عشرة أيام وفي اغسطس عام ١١٨٥ سقطت هذه المدينة الهامة في أيديهم ، فتعرضت للنهب والتخريب واجرى النورمان بها مذبحة مروعة إنتقاما لمذبحة عام ١١٨٢ . وبعد أن مكث النورمان عدة أيام ، اتخذوا طريقهم نحو القسطنطينية .

عندما وصلت انباء استيلاء النورمان على سالونيك واقترب قواتهم من العاصمة البيزنطية ، ثار الأهالى على الامبراطور اندرونيكوس الذى لم يتخذ الاجراءات اللازمة لمقاومة الأعداء، وفي الوقت الذى كان اندرونيكوس خارج العاصمة يقوم برحلة لحو في جزر الأمراء القريبة منها، إندلعت فتنة خطيرة في العاصمة في ١٢ سبتمبر ١١٨٥ تزعمها أحد أفراد الطبقة الارستقراطية التى طالما تعرضت لنقمة اندرونيكوس وكان هذا الشخص هو اسحاق انجيلوس الذى استولى على القصر الامبراطورى واعتلى العرش ، وحين عاد اندرونيكوس إلى العاصمة دفع به اسحاق إلى الجماهير الثائرة فمزقه أربا (٢) .

(1) Vasiliev : op. cit., Vol. II, pp. 437 — 438.

(2) Hussey : op. cit., 11, p. 438.

Vasiliev : op. cit., Vol. II, p. 438.

لم ينتهى الصراع الداخلى من أجل الاستحواذ على العرش بإنهاء الأسرة الكومنينية فى ١١٧٥ . وإنما استمر كذلك وبشكل أكثر خطورة فى عهد أسرة انجيلوس . فى سنة ١١٩٥ قام اليكسيوس انجيلوس وخلع شقيقه الامبراطور اسحاق وسجن عينيّه وقبض عليه هو وابنه الصغير الذى يدعى اليكسيوس أيضا . وسجنهما . واعتلى العرش . ولم يلبث ان فر الابن اليكسيوس على ظهر سفينة بيزيه فى نهاية عام ١٢٠١ م . ولجأ إلى الغرب الأوروبي طالبا مساعدة اللاتين ضد عمه الذى اغتصب العرش من والده (١)

وهكذا تطور الصراع الداخلى حول العرش بشكل أدى إلى إستعانة البيزنطيين أنفسهم بالغرب اللاتينى ، وبذلك مهدوا الطريق لأسقاط عاصمتهم وصل الأمير اليكسيوس انجيلوس إلى صقلية ومنها إلى روما ، حيث التمس مقابلة البابا اينوسنت الثالث ، ومثل أمام البابا والكرادلة حيث شرح للجميع مشكلته وطلب تأييد البابا ومعاونته له من أجل إستعادة عرش بيزنطة . على أن هذه المقابلة لم تحقق للأمير اليكسيوس ما كان يأمل فيه ، وكل ما فعله البابا اينوسنت أنه زوده بالنصح والإرشاد ، ويبدو أن البابا حاول أن يثنيه عن عزمه على الالتجاء للقوة من أجل إسترداد حقه ، فانسحب من أمام البابا عازما على التوجه إلى فيليب السوابى ملك ألمانيا ، الذى كان متزوجا من الأميرة البيزنطية ايرين انجيلوس . ابنة اسحاق وشقيقة الأمير اليكسيوس .

وقد أوضح البابا اينوسنت هذا الأمر فى خطابه إلى الامبراطور اليكسيوس الثالث انجيلوس فى ١٦ نوفمبر ١٢٠٢ بقوله : «... أن اليكسيوس المذكور .

(1) Choniates : Historia, pp. 710 — 712.

Runciman : A history of Crusades, Vol. 3, p. 112.

حينما جاء إلى حضرتنا ، فيما مضى ، مثل إمامنا وإمام أخواننا ، مع كثير من النبلاء الرومان ، وقد تقدم بشكوى خطيرة يؤكد أنك قبضت على والده ظلماً وبدون حق الحققت به العمى ، وسجنت كلاهما لمدة طويلة . ولأنه لا يستطيع أن يلتمس العون من أحد اسمى منا ، ولأننا مثل الرسول ، مديونون للغبي مثل العاقل ، كان لابد أن نحقق له العدالة .

وحينما اجبناه ، طبقاً لما نراه صالحاً ، انسحب من عندنا متوجهاً بخطى سريعة إلى فيليب - زوج شقيقته - المذكور « آ نفا (١) .

وفي طريقه إلى المانيا ، مر الأمير اليكسيوس ، بمدينة فيرونا في لمبارديا ، وهناك علم بوجود جيش صليبي كبير مجتمع في البندقية ، في طريقه إلى الشرق لاسترداد الأراضي المقدسة من يد المسلمين ، وهنا راقته فكرة الاستعانة بهذا الجيش الصليبي من أجل مساعدته في استرجاع العرش البيزنطي .

فقد روى مؤرخ الحملة فيلهاردوين ، أنه أثناء مرور اليكسيوس بمدينة فيرونا ، أوضح له أعوانه المرافقون له ، والذين سبق أن يسروا له سبيل الفرار من سجنه ، أن هناك جيش من الصليبيين مجتمع في البندقية ، وأوحوا إليه بفكرة الاستعانة به في استعادة ملك أبيه فقالوا له : « مولانا ، هنا في البندقية ، القرية منا ، جيش مؤلف من أفضل وأشجع العناصر والفرسان في العالم ، وهم ذاهبون إلى الأراضي المقدسة ، استنجد بهم من أجل مساعدتك ، أنت ووالدك الذي أبعد عن سلطانه قهراً ، وإذا رغبوا في مساعدتك فأتهم سيبدلون

(1) Innocent III : Epistolae, in Patrologia Latina ed. Paris, 1855, Vol. CCXIV 1123 — 1124.

لك النصيح والأرشاد ، ربما أخذتهم ، نعمة على حانك ، (١) .

وقد أعجب الأمير اليكسيوس بالفكرة ورحب بها وبالفعل أرسل رسلا من أتباعه إلى الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات قائد الحملة والبارونات الآخرين ، وبعد أن استمع هؤلاء جميعا لرسل الأمير البيزنطى ، ومعرضوه عليهم خاصا بمساعدتهم لأليكسيوس فى إستعادة العرش البيزنطى . أجابوا على هؤلاء الرسل بقولهم : «لقد فهمنا جيدا ، ما ذكرتموه لنا ، وسوف نرسل رسولا من طرفنا مع الأمير ، إلى الملك فيليب ، حيث دو ذاهب اليه ، وإذا الأمير رغب فى مساعدتنا فى إستعادة الأراضى المقدسة ، فأننا سوف نساعدته فى استرداد عرشه ، لأننا نعلم أنه اغتصب منه ومن والده ظلام (٢) .

ولم يكن الأمير ، بتلبية الحال ، ليبخل عليهم ببذل الوعود المغرية من أجل أن يحصل على مساعدتهم له ، وبمكنا وضع هذا الأمير البيزنطى أول فصل من فصول المساء التى حلت بآثر سلبية على يد الحملة الصليبية الرابعة. أما قصة هذه الحملة والتطورات التى حدثت وإنشأت بستموط العاصمة البيزنطية فى يد اللاتين ، فسيتم شرحها بالتفصيل خلال الفصلين التاليين من هذا البحث .

(2: Vilchardouin : La conquete de Constantinople par les Français associés aux vénitiens L'an 1204. English Translation by Sir Marzials, London, 1965, p. 18.

الفصل الثالث

الحملة الصليبية الرابعة وبداية انحرافها

- البابا اينوسنت الثالث والدعوة للحملة .
- الاستعانة بأسطول البنادقة لتقل الحملة للشرق .
- تولى بونيفيس أوف مونتفرات قيادة الحملة .
- انحراف الحملة ضد مدينة زارا المسيحية .

في سنة ١١٩٨ ، تولى كرسى البابوية واحد من المع البابوات الذين تولوا هذا المنصب في العصور الوسطى ، وهو لوثر اوف سيجنى Lothar of Segni الذى عرف باسم البابا اينوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦) وهو ينتمى إلى عائلة رزمانية عريقة هي عائلة Conti سادة مقاطعة سيجنى ، وكان يبلغ السابعة والثلاثون من العمر حين تولى منصب البابوية (١) .

وقد درس اللاهوت في باريس على يد Peter of Corbeil وهو واحد من الرجال اللامعين في هذا العلم ، كما درس أيضا القانون في بولونا على يد واحد من أشهر رجال القانون في ايطاليا وهو Uguccio of Ferrara

وقد ظهر البابا اينوسنت الثالث في هذه الفترة ليسترد النفوذ السياسى للبابوية في ايطاليا وعبر جبال الالب ، وليحمى السلطة الاكليريكية من جور السلطة العلمانية ، وفي ظل هذا البابا نظمت الحياة الدينية في الغرب الاوروبى وادبرت بشكل لم يسبق له مثيل من قبل ، فيينا خلف البابا جريجورى السابع «مرارة الحزن وعظيم القلق» نجد ان اينوسنت الثالث جعل من البابوية «المركز الاكثر تمجيذا على وجه الأرض» وذلك لأن البابا نائب المسيح ، وخليفة بطرس ، الذى ليس له نظير بين البشر ، فهو بصفته نائب المسيح يعتبر «ملك الملوك وسيد السادة» ، وهو يجمع في شخصه بين السلطتين الدينية والدنيوية ، لأن كلاهما أتت من نفس المصدر الألهى . وهكذا أصبح البابا على عهد اينوسنت الثالث صاحب السلطة المطلقة في كل شىء وهو ما يعرف باسم ... Plenitudo Potestatis

وكان من رأيه ان ابايا هو القاضى الأعلى في الشئون الدينية والدنيوية على حد سواء ، فهو يمثل القانون الجنائى في الأمور المدنية ، كما يمثل القانون

(١) أنظر الصورة رقم (١) للبابا اينوسنت الثالث .

الكنسى فى الأمور الدينية . ولذلك أصبح البابا هو الفيصل الأعلى للمجتمع المسيحى ، والمصدر الذى تنبع منه العدالة ، والمحكمة العليا التى يرفع اليها الناس شكواهم وأصبحت روما على عهده الملجأ لكل صاحب شكوى مهما كان مصدرها .

أما الابريشة المقدسة لروما فهى من وجهة نظره «تجلس فى مكان متوسط بين الله والبشر ، هى أدنى من الله ، ولكنها أعلى من البشر» .

ومن اقواله عنها «البرشية ، انا املك ذلك اليوم الذى تجلس فيه فوق الامم والممالك : ترفع وتخفض ، تقهر وتخرب ، تزرع وتعيد» .

وادعى البابا اينوسنت الثالث ، ان الامبراطورية الرومانية قد اختصت الباباوية بشيئين هما : — Principaliter et finaliter

Principaliter لأن البابوية هى الأصل : finaliter لأن الامبراطور يتسلم سلطاته العلمانية من الحبر الاعظم ، البابا .

وبناء على سلطة البابا المطلقة فى كل شىء التى نادى بها اينوسنت الثالث ، كان أول بابا يدعى الحق فى انفاق ايرادات الكنيسة بالصورة التى يراها هو فقط ، وقد أصبح للبابوية على عهده موارد مالية ضخمة ، هى الضرائب التى اشترك فى دفعها العالم المسيحى الغربى بوجه عام ، وقد ارتبطت هذه الضرائب فى تطورها بالحروب الصليبية ، بعد أن فرضها الملوك مثل لويس السابع ملك فرنسا وريتشارد الأول ملك انجلترا على رعاياهم العلمانيين والاكليركيين من أجل الغرض الصليبي . وقد خطا البابا اينوسنت خطوة جديدة فى هذا الشأن عندما اصدر أمرا سنة ١١٩٩ إلى جميع الاساقفة بأن يرسلوا إلى البابوية جزءا من اربعين (¼) من دخل الاسقفية السنوى المتحصل من جميع ممتلكاتها

واقطاعاتها ، هذا غير مجموع الضرائب الأخرى التي ظلت البابوية تجمعها عن طريق مباشر عند تعيين الاساقفة وغيرهم من كبار رجال الدين في مناصبهم ، أو عن طريق غير مباشر مثل بيع صكوك الغفران . ونتيجة لذلك أصبحت البابوية في القرن الثالث عشر تمتلك من الموارد المالية ما يعادل دخل كل ملوك أوروبا مجتمعين .

وهكذا تمكن البابا اينوسنت الثالث من تحقيق كل ما كانت تطمح فيه البابوية من سمو في ضوء مبادئ جريجوري السابع واسكندر الثالث . وقد شبه البابوية بالشمس والامبراطورية بالقمر الذي يستمد ضوءه من الشمس وبذلك عاد إلى نغمة سيادة البابوية على الامبراطورية .

والمعروف ان البابا اينوسنت الثالث قد اصدر قرار الحرمان على يوحنا الثاني ملك انجلترا ، ولما اعترف الملك بخطيئته وأعلن خضوعه ، التفت اينوسنت إلى البارونات الانجليز الذين ثاروا ضد يوحنا واجبروه على كتابة العهد الأعظم ، فضرب بهذا العهد عرض الحائط ، ثم اصدر قرار الحرمان على هؤلاء البارونات . وهو الذي حافظ على حقوق فردريك الثاني في مملكة صقلية ، واشعل حرباً مروعة في المانيا ونادى بأنه من حق البابا تعيين الاباطرة بها أو عزلهم وفقاً لمشئته الكنيسة ولصالحها (١) . وحاول جاهدا القضاء على

(١) بخصوص البابا اينوسنت الثالث والبابوية في عهده أنظر المراجع التالية :-

Jacob (E) : Innocent III, in C.M.H. ed Hussey, London, 1975, Vol. VI, pp. 1 — 6.

Barrachough (g) : The Medieval Papacy, London, 1975, pp. 112 — 114.

سميد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٢ ، ج ٢ ، ص ٩ - ١٠ .

فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٢٣١ - ٢٣٣ .

المرطقة الاليجنسية التي انتشرت في جنوب فرنسا حتى قضى عليها وعلى أهلها (١) .

قد وضع البابا اينوسنت الثالث نصب عينيه نحو اثار الانتصارات التي حققها صلاح الدين على الصليبيين في الشرق ، تلك الانتصارات التي توجت بمعركة حطين في ١١٨٧ م ، والحمل على استرجاع بيت المقدس من ييد المسلمين . وبعد أن تولى اينوسنت منصب البابوية بوقت قصير ، دعا في منتصف سنة ١١٩٨ إلى الإعداد لحملة صليبية جديدة هي الحملة التي عرفت باسم الحملة الصليبية الرابعة .

(١) الاليجنسية حركة دينية ظهرت في جنوب فرنسا في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي ، وأصحابها ينسبون إلى مدينة البسي Albi في كونتيه تولوز فعرفوا بأسم الاليجنسينs Altigensians وأطلق عليهم كذلك اسم الكاتاريين Cathari أي استهريين ، كانت تعاليمهم دت أصل شرقي وعلى صلة بتعاليم المانويين وفادوا بتحريم ذبح الحيوانات وأكل لحومها ، وتحريم الزواج وانكار الثالوث المقدس ، إلى غير ذلك من الآراء التي خالفت تعاليم الكنيسة ، مما جعل الموقف بينها وبينهم مسألة حياة أو موت ، قد حاول البابا اينوسنت الثالث إقناع هؤلاء الهرطقة في أول الأمر بالعودة إلى تعاليم المسيحية وطاعة الكنيسة فأرسل بعض الوعاظ على رأسهم مقدم ديرسيستر و مندوب من قبل البابا نفسه إلى جنوب فرنسا لتحقيق ذلك ولكن هؤلاء المبعوثين لم يوفقوا في مهمتهم ، لذلك أخذ البابا يدعو لحملة صليبية ضد هؤلاء الهرطقة وقامت هذه الحملة بالفعل في سنة ١٢٠٩ ونجحت في مهمتها ، مما دفع البابا إلى عقد مجمع دني في ١٢١٧ قرر منح قائد هذه الحملة وهو سيمون دي مونتفورت أحد أمراء فرنسا ، دوقية تولوز وغيرها من الدوقيات المجاورة مكافأة له على نجاحه في القضاء على هذه الحركة . عن ذلك المراجع التالية :

Lavise : Histoire de France, Paris, 1911, Tome 3, Premiere Partie, p. 262 — 277.

Painter (s) : A History of the Middle Ages, New York. 1954, p. 306.

سعيد عاشور : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، بيروت ، ١٩٧٢ . ج ١ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

وقد أرسل البابا إلى إيمار Aymar بطريك مملكة بيت المقدس يأمره بإرسال تقرير مفصل إلى روما عن الموقف في بلاد الشام وبصفة خاصة مدى قوة حكام المسلمين (١) .

وقام البابا على الفور باتصالات واسعة مع البابا طرة والملوك المسيحيين من أجل دعوتهم للاشتراك في هذه الحرب الجديدة ضد المسلمين فأرسل إلى الإمبراطور البيزنطي اليكسيوس الثالث أنجيلوس يدعوه للمساهمة في هذه الحملة وأكد البابا للإمبراطور على ضرورة ترك الأمور الأخرى جانبا والاسراع للاشتراك في هذه الحملة خاصة وأن قرب الدولة البيزنطية من ميدان المعركة مع المسلمين مما ييسر لها هذه المهمة ومما جاء في خطاب البابا اينوسنت إلى الإمبراطور اليكسيوس الثالث قوله : «من يستطيع أن يفعل أكثر منك ؟ أنظر قربك من الميدان حيث يجب أن تشتعل المعركة ، ثروتك وقوتك ، ضع كل الاعتبارات الأخرى جانبا ، وحيء لمساعدة يسوع المسيح ، ووطنه الذي فاز بدمه . أن المسلمين سيفرون أمامك وأمام جيشك ، وأنت يجب أن تشارك مع الآخرين في مساعدة البابوية» .

وقد أرسل البابا رسلا من طرفه إلى القسطنطينية من أجل التفاوض على موضوعين ، أحدهما موضوع اشتراك البيزنطيين في هذه الحملة الجديدة ، أما الموضوع الآخر فهو اتحاد الكنيستين . وقد استقبل البيزنطيون رسل البابا باحترام بالغ . لكن اللهجة المتعالية لخطاب البابا لم تجدد صداقيا لدى الإمبراطور

(1) Luchaire : Innocent III : La queslion d'Orient, p. 15.

كما أن تجربة البيزنطيين مع الحملة الصليبية السابقة وهي الحملة الثالثة جعلتهم لا يرحبون بالتعاون الفعال مع الصليبيين .

وقد رد الامبراطور على البابا بخطاب أوضح فيه أن الامبراطور فردريك بربروسا أثناء مروره بالأراضي البيزنطية منذ سنوات قليلة ، أقسم على عبور تلك الأراضي بسلام وعلى ألا يرتكب أى فعل ضد رعايا الامبراطور ، ولكنه نقض قسمه ، وقاتل المسيحيين مثلما قاتل المسلمين ، وأن الصليبيين منذ بداية الحروب الصليبية وهم يعتدون على الأراضي البيزنطية ، ويرفعون السلاح على المسيحيين بها ، ويدنسون أيديهم بدمائهم ويحلبون على أنفسهم بذلك غضب الله ، وأن من صمم اختصاص البابا أن يثنيهم عن اتيان مثل هذه الأفعال (١) .

وقد وعد الامبراطور البابا بأنه سيبذل كل جهده من أجل العمل على استرجاع الأراضي المقدسة ، إذا سمحت ظروف الامبراطورية بذلك .

أما فيما يتعلق باتحاد الكنيستين ، فلم تسفر المفاوضات عن شيء ، وقد أوضح الامبراطور للبابا رأيه في هذا الموضوع ، وهو أن الاتحاد الأفضل لا بد وأن تكون لإحدى الكنيستين فيه السيادة على الأخرى ، وأن كنيسة روما تطمح في أن تكون لها هذه السيادة بما تدعيه من أنها الكنيسة العالمية ، الكنيسة الأم لكل الكنائس المسيحية . لكن الامبراطور أوضح أن هذا الأمر لا ينحصر

(١) أشار البابا اينوسنت الثالث في خطابه إلى الإمبراطور اليكسيوس الثالث في ١٦ نوفمبر ١٢٠٢ إلى ماجاء في خطاب الامبراطور للبابا ، أُنظر عن ذلك . :

Innocentii III : Epistolae, in Patrologia Latina, ed Paris, 1855, Vol. CCXIV, Cols. 1123 — 1124.

كنيسة روما . ولكنه خاص بكنيسة أورشليم ، وبالتالي : حق لروما ادعاء
السيادة على كنيسة القسطنطينية (١) .

وهكذا لم تحقق دعوة البابا اينوسنت الثالث للامبراطور البيزنطي للاشتراك
في الحملة الصليبية نجاح يذكر . أما في الغرب الأوروبي فقد صادفت الدعوة
نجاحا أكثر ، وأخذ رجال الدين يدعون للحملة ، كما وضع صندوق في كل
كنيسة لتلقى الهبات المالية من أجل الاعداد لها .

والجدير بالذكر أن أحدا من ملوك أوروبا لم يشترك في هذه الحملة ،
فقد شغل كل من فيليب أوجسطس ملك فرنسا ويوحنا الثاني ملك إنجلترا
بالصراع الذي اشتعل بينهما من جهة وبمشاكلها الداخلية من جهة أخرى (٢) .
أما فيليب السوابي ملك المانيا فقد كان يخوض نضالا مريرا مع منافسه على
العرش الالمانى أوتو اوف برنسويك ابن هنرى الأسد (٣) .

على أن ذلك لم يمنع الأمراء والفرسان الغربيين من تقبل الدعوة فأشترك
في هذه الحملة نخبة من أفضل البارونات والفرسان في فرنسا مما جعل الطابع
الفرنسى يطفئ على الحملة كذلك اشترك فيها فرسان من إنجلترا والمانيا ،

(1) Pears : The Fall of Constantinople, Being The Story of the
Fourth Crusade, pp. 226 — 227.

(2) Lavise ; Histoire de France, Paris 1911, Tome 3, Premiere
partie , pp. 112 — 290.

Painter (s) ; A History of the Middle Ages, New York , 1954, p.
253.

(3) Austin Lane'Poole ; Philip of Swabia and Otto IV , in C.M.H.
ed Hussey, London, 1975, Vol, VI, Part 1, pp , 44 — 71.

والفلاندرز وصقلية (١) . وتولى قيادة الحملة ثيبوت كونت شامبني وبسرى
Thibout Count of Champagne and Brie. الذي كان في الثانية
والعشرين من عمره آنذاك ، كما يذكر مؤرخ الحملة الماريشال جيوفسرى
فيلهاردوين (٢) .

وكانت الخطوة الأولى أمام الصليبيين هي تحديد وجهة الحملة ، وقد
انقسموا إلى فريقين ، فريق يطالب بأن تتوجه إلى بيت المقدس مباشرة للاستيلاء
عليها ، وفريق آخر رأى أن تكون وجهتهم هي مصر ، على أساس أنها الخطر
الحقيقى الذى يهدد الصليبيين فى الشام ، بما لها من امكانيات مادية وبشرية
ضخمة استعان بها الايوبيون على محاربة الصليبيين . هذا بالإضافة إلى أن إعادة
توحيد الدولة الأيوبية تحت حكم الملك العادل جعل الخطر يتزايد على الصليبيين
فما لو اتجهوا لحصار بيت المقدس أولاً لأنهم عندئذ سيقعون بين فكي الكماشة
حين تخرج الجيوش من مصر ومن دمشق فى نفس الوقت للقضاء عليهم .

هذا فضلا عن وجود عدد كبير من التجار الايطاليين فى موانئ دلتا
النيل وبصفة خاصة فى مدينتى دمياط والاسكندرية ولاشك أن هؤلاء
التجار سيتعرضون للانتقام من جانب السلطات المصرية ، فى حالة حصار
الصليبيين لبيت المقدس ، فالأفضل أن يبدأ الصليبيون الهجوم على شواطئ
مصر الشمالية لحماية هؤلاء التجار وتأمين الجبهة الجنوبية لفلسطين ، ثم بعد
ذلك يصبح من السهل عليهم الاستيلاء على بيت المقدس ، أما عن طريق
القوة ، أو عن طريق المساومة .

(١) ذكر فيلهاردوين بالتفصيل أسماء كبار الشخصيات التى اشتركت فى هذه الحملة ،
أنظر عن ذلك :

Villehardouin : op. cit., pp. 2 — 3.

(2) Ibid : p. 2.

ولهذه الاسباب كلها ، تم الاتفاق على أن تكون مصر هي مقصد الحملة الصليبية الجديدة (١) .

على أن الصليبيين لم يلبثوا أن واجهوا مشكلة خاصة بكيفية حصولهم على السفن اللازمة لنقلهم إلى مصر . وقد وقع اختيارهم على البندقية لإمدادهم بما يلزمهم من أسطول ، وذلك نظرا للمركز الكبير والهام الذي كان للبندقية في هذه الفترة . فقد كانت آنذاك في أوج قوتها ومجدها و ثرائها . وكان هذا الثراء ناتج عن نشاط أسطولها الضخم في عمليات النقل التجارى بين الشرق والغرب ، وبعد قيام الحروب الصليبية أخذ هذا الاسطول يقوم بدور هام في نقل الصليبيين إلى الشرق وكذلك نقل المعدات الحربية لهم وللمسلمين على حد سواء لأن ما يهتم البندقية كان هو الكسب المادى الذى تحصل عليه نتيجة لعمليات النقل ، أما الصالح الصليبي والبابوية والأراضي المقدسة فهذه كلها الشاغل جوفاء في نظر البنادقة لن ينجوا من ورائها الا فساد تجارتهم وكساد نشاطهم ؛ لذلك لم يكونوا ليتأخروا عن التعامل مع المسلمين والمسيحيين . وتقديم خدماتهم للجميع ، على الرغم من المنشورات الصريحة التى كان يصدرها بابوات روما بتحريم الاتجار فى المعدات الحربية مع المسلمين والتهديد بتوقيع عقوبة الحرمان على كل من يشتغل بهذه التجارة المحرمة ومصادرة ممتلكاته .

(1)Grousset (R). : Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, Paris 1946, Vol. III p. 171.

Nicol : The Fourth Crusade and the greek and Latin Empires, 1204 — 1261, in C.M.H. ed Hussey, Cambridge, 1975, Vol. IV, Part 1, p. 276.

Runciman (S) : A History of the Crusades, Cambridge University Press, 1966, Vol. 3, p. 113.

وكان للبندقية دار لصناعة السفن ، وقد روعي في بناء سفنها التجارية امكان تحويلها إلى سفن حربية وقت الحرب . وكانت أساطيلها التجارية تجتمع في شكل قوافل وتغادر البندقية مرتين في العام في مواعيد محددة ثابتة تحت اشراف أحد كبار موظفي الحكومة .

وكان هناك خمس قوافل رئيسية ، قافلة القسطنطينية وقافلة الاسكندرية وقافلة الشام ، وقافلة طانا Tana على سواحل البحر الاسود ، وقافلة الفلاندرز في شمال أوروبا .

وفيما يتعلق بقافلة الاسكندرية فانها كانت تتخذ طريقها من البندقية إلى الاسكندرية مرتين في السنة ، واحدة في الحريف والثانية في شهر يناير ، وتتكون كل قافلة من ثمانى إلى ثلاث عشرة سفينة . وكانت جالية البنادقة بالاسكندرية من أكبر الجاليات عددا وأكثرها ثراء ، وكان لهم حي خاص ينزلون به واشتمل هذا الحي على عدد من الخانات وهى عبارة عن مباني فخمة مربعة على شكل حصون ، ولها فناء داخلى تجتمع حوله الحوانيت في الدور الأرضي وأعلاها مساكن التجار .

أما عن التنظيم السياسى للبندقية ، فقد كانت تأخذ بالنظام الجمهورى ، وكان الاسم الرسمى لها هو «جمهورية سانت مارك» نسبة إلى القديس مرقص ، والمعروف أن رفات هذا القديس كانت موجودة بكنيسة الاسكندرية ، لكن اثنين من التجار البنادقة قاموا بسرقتها في سنة ٨٢٨ م . ونقلوها إلى البندقية ، وشيد دوقها آنذاك ويدعى جستنيان مارتشياكو Justinian Particiaco كنيسة فخمة أودع فيها رفات هذا القديس ، وعرفت باسم كنيسة سانت مارك ، وأصبحت مركزا للحياة الدينية في البندقية .

وكان على رأس الجها: الحكومى للبندقية الدوق Doge الذى يلى

منصبه مدى الحياة ، وهو رمزا للسلطة أكثر منه مصدا لها . وكان إلى جانبه هيئات سياسية أخرى ، مثل مجلس العشرة ، والمجلس الكبير . ومجلس الشيوخ والمجمع ، ومجلس الدولة ، وكان لهذه المجالس سلطات كبيرة واختص كل منها باختصاصات معينة . حتى يتسنى تنفيذ الأمور في سرعة وحسم بعيدا عن التعقيدات الروتينية والروح البيروقراطية .

وقد تمتع شعب البندقية بحياة ثرية مترفة ، ودأب على الاحتفال بمختلف الأعياد الدينية والقومية ، وأقامت الحكومة للشعب مسرحا عظيما شغف به الأهالي شغفا كبيرا ، وشهدت البندقية الحفلات الفاخرة والولائم والمواكب والاستقبالات الرائعة التي كانت تبهر بها أوروبا بأسرها .

وكانت البندقية على درجة كبيرة من الحضارة وتميزت مبانيها بالفخامة وقد تأثرت في ذلك إلى حد كبير بالحضارة البيزنطية ، حتى أن البندقية كانت أقرب البلدان الأوربية للطابع البيزنطي ، وقد تجلى ذلك بوضوح في كنيستها الشهيرة سانت مارك St Mark التي كانت من نفس طراز كنيسة آيا صوفيا في القسطنطينية . وكذلك في غيرها من المنشآت والمباني . وقد تمتعت البندقية بمركز خاص في القسطنطينية نتيجة للامتيازات التجارية التي حصلت عليها هناك ، ولهذا فكثيرا ما كانت تدين بالولاء للقسطنطينية أكثر مما تدين لروما .

على أنها بدأت تعاني من المشاكل مع القسطنطينية في السنوات الأخيرة . وذلك بسبب تغلب نفوذ منافستها جنوا وبيزا في العاصمة البيزنطية ، وعلى الأخص في عصر الامبراطور مانويل كومنينوس ، الذي شهد صراعا عنيفا بين الطرفين (١) .

(١) أنظر تفاصيل هذا الصراع في المصدر الثاني :-

Kinnamos (Y) : Deeds of John and Manuel Comnenus, Trans- =

على أن الامبراطور اسحاق انجيلوس عقد تحالف جديد مع البندقية في ١١٨٧ ومرة أخرى في ١١٨٩ أعاد لها امتيازاتها السابقة مع دفع تعويض مناسب مقابل أن تضع البندقية أسطولها تحت تصرف البيزنطيين في حالة نشوب الحرب بينهم وبين أعدائهم .

لكن البنادقة بدأوا يشعرون بأن البيازنة لقوا الحظوة على حسابهم وذلك في عهد الامبراطور اليكسيوس الثالث ، وقد أرسل دوق البندقية خلال صيف ١٢٠٠ سفارة إلى الامبراطور البيزنطي يطلب دفع الأموال المتأخرة وتجديد الامتيازات التجارية ، وبعد ستة أشهر أرسل سفارة ثانية لنفس الغرض وطالت المفاوضات بين الطرفين دون الوصول إلى اتفاق .

وقد بلغت كراهية البنادقة للقسطنطينية ذروتها عندما علموا أن الامبراطور اليكسيوس استقبل في مايو ١٢٠١ سفارة من جنوا وأنه يتفاوض مع زعيمها الذي يدعى Ottobone della Croce من أجل الامتيازات التجارية التي كانت البندقية تعتبرها مقتصرة عليها (١) .

في ذلك الوقت كان دوق البندقية هو انريكو داندولو Enerico Dandolo الذي كان من أشهر الرجال في عصره وكان رجلا مسنا تخطى الستين من

sated to English by Chales M, Brand, Colombbia University Press, New York, 1976, Book VI, pp. 209 — 213.

(1) Diehi : Une Republique patriciene, venise ,different places.
Chcniates : Historia, P. 712.

Cessi (3) : Venice to the Eve of The Fourth Crusade ,in C.M.H. ed.
Hussey, Cambridge. 1975, Vol. VI, Pair 1, pp. 251 — 273.

Pears : The Fall of Constantinople, Being of the Fourth Crusade,
pp. 231 — 233.

عمره لكنه كان ملئ بالنشاط والحيوية ، طموح إلى المجد ، كرس نفسه من أجل العمل لمصلحة جمهوريته ، ويقال أنه رغم فقدانه لبصره إلا أنه كان بإمكانه أن يقود جيشا كبيرا بنفس الكفاءة التي يقود بها أسطولا ضخما (١) .

وهكذا فقد أرسل الصليبيون رسلهم إلى البندقية للاتفاق على الاستعانة بأسطولها لنقلهم إلى مصر ، وكان هؤلاء الرسل ستة أشخاص أحدهم هو فيلهاردوين أما الخمسة الآخرون فكانوا :

Miles The Barbatn, Conon of Bethune,
Alard Maquereau, John of Friaise and
Walter of Gawdonville.

ووصل هؤلاء الرسل إلى البندقية في الأسبوع الأول من فبراير ١٢٠١ ، وبعد أن قضى الرسل بالبندقية أربعة أيام حان موعد لقائهم بالدوق ، الذي استقبلهم بقصره هو ومستشاريه وعرض عليهم الرسل طلبهم قائلين : «لقد جئنا من طرف بارونات فرنسا الذين اتخذوا الصليب والذين يرغبون في خدمة المسيح واستعادة اورشليم — إذا أراد الله — ولأنهم يعلمون أنه لا يوجد من يمتلك قوة أكبر من قوتك وقوة رجالك لكي يساعدوهم في هذه المهمة ، لذلك نستحلفك بالله أن تأخذك الشفقة على الأرض المقدسة ، وعار المسيح ، وتجب حاجة لورداتنا إلى سفن النقل والقتال» (٢) .

وبعد مرور ثمانية أيام تشاور خلالها الدوق مع رجاله ، عرض على الرسل شروطه وكانت تشتمل على أن تقدم البندقية سفنا لنقل أربعة آلاف وخمسمائة فرس . وتسعة آلاف مقاتل ، وسفنا أخرى لنقل أربعة آلاف وخمسمائة فارس وعشرون ألف من المشاة ، وتعهدت البندقية كذلك بتقديم المؤن لرجال

(1) Gibbon (E) The Decline and Fall of the Roman Empire, New York, 1976, Vol 6, pp. 149 — 150.

(2) Villehardouin : op. cit., pp. 4 — 5.

الحملة وخبولهم لمدة تسعة أشهر ، كل ذلك مقابل أن يدفع لها الصليبيون ماركان عن كل رجل ، وأربعة ماركات عن كل فرس وبذلك يصبح مجموع ما يؤديه الصليبيون للبندقية ٨٥ ألف مارك .

واستطرد الدوق قائلا لرسل الصليبيين : «وحبا في الله سنضيف إلى الأسطول خمسين غاليا Galleys حربية ، بشرط أن نكون شركاء في كل المكاسب التي تحققها الحملة من فتوحات أو أموال في البر أو في البحر بحيث تأخذون النصف ونأخذ نحن النصف الآخر» .

وبعد أن تشاور الرسل ، أجابوا بأنهم قبلوا شروطه ، وتم عقد الاتفاق بين الطرفين ، وقد دفع الرسل مبلغ خمسة آلاف مارك فضة إلى الدوق للبدء في تنفيذ الاتفاق ، وأرسلوا رسالا إلى البابا اينوسنت الثالث في روما ليخبروه بهذا الاتفاق ثم عادوا لبلادهم (١) .

في ذلك الوقت توفي تيبوت كونت شامبني وقائد الحملة ، وكان على الصليبيين أن يختاروا قائدا آخر يحل محله وقد وقع اختيارهم على الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات الذي كان قريبا لفيليب السوابي ملك المانيا ، فقد كان ولیم أوف مونتفرات والد بونيفيس متزوجا من صوفيا Sophia ابنة فردريك بربروسا وهي أخت (غير شقيقة) لفيليب السوابي وقد ساهمت عائلة مونتفرات بنصيب كبير في الحروب الصليبية وكان لولیم أربعة أبناء تركوا بصماتهم على تاريخ الحروب الصليبية ، فأكبرهم وهو ولیم واسم الشهرة له هو Longsword تزوج في ١١٧٥ ابنة بلدوين الرابع ملك بيت المقدس ، وتسلم بائنة مدينتي يافا وعسقلان ولكنه توفي بعد شهرين من الزواج . أما

الابن الثاني كونراد الذي أصبح ماركيز أوف مونتفرات عند موت ولسم ،
فقد ذهب إلى الشرق وساعد الامبراطور البيزنطي اسحاق انجيلوس على مقاومة
حصار القائد البيزنطي الثائر براناس للقسطنطينية عام ١١٨٦ وهزم باراناس
وأرسل رأسه للامبراطور ، وتزوج من ثيودورا شقيقة الامبراطور اسحاق ،
ثم ذهب إلى فلسطين في ١١٨٧ حيث لعب دورا هاما خلال الأربع سنوات
التالية ، وقاوم حصار صلاح الدين والمسلمين لمدينة عكا ، وبعد زواجه من
إيزابيلا Isabella وريثة مملكة بيت المقدس وبعد مصادمات مع ريتشارد
ملك إنجلترا ، اتخذ لقب ملك بيت المقدس ، ولكنه قتل في ١١٩٢ قتله أحد
أفراد فرقه الاسماعيلية .

أما ربنيه وهو الابن الثالث ، فقد تزوج من ماريا ابنة الامبراطور
البيزنطي مانويل كومنينوس ، وتسلم كباتنه مدينة سالونيك وقد مات دون أن
ينجب .

وهكذا لم يتبقى من هؤلاء الابناء سوى الابن الاصغر وهو بونيفيس الذي
صار ماركيز اوف مونتفرات .

وقد ساهم بونيفيس كذلك في الحروب الصليبية ووقع أسيرا في يد صلاح
الدين ، وأطلق سراحه أثناء تبادل الأسرى ، وعرف عن بونيفيس دمسائة
الأخلاق والشجاعة في القتال ، وكان بلاطه في مونتفرات مزدحما بالفنانين
وشعراء التروبادور .

وهكذا فقد أرسل اليه الصليبيون يطلبون منه الحضور إلى سواسون Soisson
للتشاور معه ، فلبى طلبهم واستقبل في سواسون باحترام بالغ ، وتوسل اليه
البارونات أن يشترك في الحملة الصليبية وأن يقبل تولي قيادة الجيش الصليبي .

وقد استجاب بونيفيس لرجائهم ، وفي سبتمبر ١٢٠١ أخذ شارة الصليب في كنيسة نوتردام في سواسون . وتسلم قيادة الجيش ، ثم عاد إلى بلده لتدبير بعض الأمور الخاصة به ، وتم الاتفاق على أن يلحق بهم بعد ذلك في البندقية (١).

وفي ٢٢ يوليو ١٢٠٢ وصل إلى البندقية الكاردينال بطرس كابوانو Peter Capuano نائبا عن البابا في الحملة .

اجتمع الصليبيون في جزيرة سانت نيقولا St Niolas (الليدو) التابعة للبندقية ، وهناك طالبهم الدوق داندولو بدفع المبلغ الذي اتفق عليه ، لقاء نقلهم بالأسطول إلى الشرق فأخذ الصليبيون يحاولون جمع المبلغ ، وفي النهاية لم يتمكنوا من جمع أكثر من ٣٤ ألف مارك .

هنا غضب الدوق أشد الغضب ، واتهمهم بالخداع وهددهم بأنه في حالة عدم دفعهم المبلغ كاملا فإنه ستركهم في هذه الجزيرة دون طعام أو شراب حتى يهلكوا (٢) .

عندئذ اجتمع البارونات وبذلوا جهدا كبيرا حتى استطاعوا جمع مبلغا آخر دفعوه للدوق وتبقى لدى الصليبيين مبلغ ٣٦ ألف مارك يجب أن تدفع للبنادقة .

وقد استغل الدوق هذا الموقف ليوجه الحملة الصليبية الوجهة التي تتفق ومصالح جمهوريته . فعرض على الصليبيين أن يؤجل لهم دفع الدين ، مقابل

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 10 — 11.

Nicol : op. cit., pp. 277.

Pears : op. cit., pp. 27 — 273.

(2) Clari (R) : Laconquete de consta ntinople, Editeepar lauer, paris 1974. n. 10.

أن يساعده في الاستيلاء على مدينة زارا على البحر الادرياتيكي في اقليم
سكلافونيا والتي كانت تابعة للبنادقة ثم إنتزعتها منهم ملك هنغاريا .

وقد علل لهم الدوق هذا العمل بقوله - كما يذكر روبرت كلاري -
أنهم في فصل الشتاء ، ولن يستطيعوا أن يذهبوا إلى الأراضي المقدسة ، التي
كان المفروض أن يتخذوا طريقهم إليها قبل حلول هذا الفصل . وأن الصليبيين
هم المسئولون عن هذا التعطيل ، وأنه من الأفضل لهم أن يتعاونوا مع البنادقة
في الاستيلاء على زارا التي ستمدهم بالكثير من المؤن ليتزودوا بها خلال
رحلتهم بعد ذلك للأراضي المقدسة .

وقد وافق الباورونات وكبار رجال الحملة على اقتراح الدوق (١).

والجدير . نذكر أن الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات قائد الحملة لم يكن
موجودا مع الصليبيين آنذاك ولم يشترك معهم في الهجوم على زارا (٢)، وذلك
لوجوده في المانيا للتباحث مع فيليب السوابي والامير البيزنطي اليكسيوس
انجيلوس (٣) .

وقبل الذهاب إلى زارا أعلن الدوق عن رغبته في اتخاذ شارة الصليب
والانضمام إلى الحملة "لميية الذاهبة لتحرير قبر المسيح ، وخطب فيهم خطبة
مؤثرة أوضح فيها أنه رغم عجزه وكبر سنه إلا أنه قرر أن يصحبهم إلى
الأراضي المقدسة في فلسطين واما أن يعيش معهم أو يموت بينهم ، وفي كنيسة
سانت مارك في البندقية احتفل باتخاذ شارة الصليب التي وضعت على قبعته

(1) Clari : op. cit., pp. 11 — 12.

(2) Villeharedouin : op. cit., p. 19.

(3) Nicol : op. cit., p. 179.

البيضاء الكبيرة وحذا حذوه جمع غفير من البنادقة (١) .

ومن المستغرب أن يكون أول عمل يقوم به الدوق بعد اتخاذه الصليب هو قتال مدينة زارا واهاليها المسيحيين . وفي أكتوبر ١٢٠٢ اتخذت سفن البندقية الحملة بالصليبيين طريقها إلى زارا ، التي وصلوا أمامها في ١٠ نوفمبر ١٢٠٢ وفي اليوم التالي مباشرة أي في ١١ نوفمبر ١٢٠٢ بدأ حصارهم لها . وقد كانت المدينة على جانب كبير من القوة والمناعة حتى لقد دهش الصليبيين من شدة حصانتها وقالوا بأنهم «لن يستطيعوا اقتحامها بالقوة إلا بمساعدة من الله ذاته» .

أثناء حصار الصليبيين لزارا قام أحد الاخوة السيستر شيان (٢) cistercians بتحذيرهم من قتال المدينة حيث أنها مسيحية وهم مسيحيون ومتخذون شارة الصليب أيضا مما يعرضهم لغضب بابا روما . لكن دوق البندقية غضب غضبا شديدا لدى سماعه لهذا التحذير ، ولجأ إلى التهديد ليجبر الصليبيين على مساعدته بعد أن شعر بترددهم ، فأوضح لهم بأنهم إذا تخلوا عنه فإنه سيقوم بالارتياح

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 16 — 17.

(٢) الاخوة السيستر شيان هم جماعة من الرهبان التابعين لدير سيتو - في برجنديا - الذي تم تأسيسه في سنة ١٠٩٨ بواسطة بعض الرهبان البندكتيين الذين رغبوا في حياة أكثر خشونة وصلابة من الحياة الديرية السائدة آنذاك . وكان هذا النظام الجديد محاولة لاتخاذ طريق وسط بين الاستقلال المحل الذي تمثل في الديرية البندكتية ، والمركزية المطلقة التي اتبعتها الديرية الكلوينية ، وقد أخذ هذا النظام ينمو في سرعة فائقة وانتشر في جميع أنحاء غرب أوروبا بفضل ميزاتِهِ الواضحة من ناحية ، وجهود القديس برنارد (١٠٩١ - ١١٥٣) من ناحية أخرى .

للمزيد عن هذا النظام راجع :

Workman : The Evolution of the Monastic ideal, London, 1928, pp. 239 — 244.

على المدينة عن طريق الاتفاق مع أهلها وان الصليبيين سيكونون بطبيعة الحال خارج هذا الاتفاق ربنا الى فأنهم لن يحصوا على أية مكاسب مادية . عندئذ وافق البارونات على مساعدته والاستمرار في المهمة حتى نهايتها . وفي اليوم التالي أخذوا في مهاجمة أسوار وأبراج المدينة ، حتى أعلن أهلها الاستسلام للدوق مقابل الإبقاء على حياتهم . عندئذ ذهب الدوق إلى البارونات وقال لهم : «سادتي .. لقد تم استيلائنا على هذه المدينة بفضل الله ، وبفضل مساعدتكم ، ولن نستطيع الذهاب للشرق الآن ، لأننا في فصل الشتاء ، ولأننا لن نجد أية أسواق في أي مكان آخر تمدنا بما نحتاجه ، وهذه المدينة على جانب كبير من الثراء ، ومزودة بكل المؤن ، دعونا نقسمها بالنصف ، وسأخذ النصف ، وأنتم النصف الآخر» (١) .

وهكذا تم تقسيم مدينة زارا بين الطرفين ، فأخذ البنادقة النصف الذي به الميناء ، وأخذ الصليبيون نصف المدينة الآخر ، ونصبوا معسكرهم هناك ، على أن العداء لم يلبث أن تفجر بين البنادقة والصليبيين وهرع كل منهم إلى حمل السلاح واقتتلوا في شوارع المدينة بمختلف أنواع الأسلحة التي معهم واستمر القتال أسبوعا ، وألحق الصليبيين نظراً لتفوقهم في العدد خسائر كبيرة بالبنادقة . وقد بذل دوق البندقية والبارونات الكثير من الجهد حتى نجحوا في اقرار السلام بين الطرفين . وبعد أن قضى الصليبيون بزارا ما يقرب من الأسبوعين ، وصل الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات (٢) .

في ذلك الوقت كانت الاخبار قد وصلت إلى البابا اينوسنت الثالث في روما بانحراف هذه الحملة عن هدفها الاساسي واتجاهها ضد مدينة زارا ،

(1) Villehardouin : ip. cit., pp. 20 — 21

(2) Villehardouin : op. cit., pp. 21 — 22.

ورقتما زهابها المسيحيين . فاستشاط البابا غضبا ، وذلك لسببين ، أولهما قتال مدينة مسيحية والحق الاذى بأهلها المسيحيين ، والثاني لأن معنى ذلك إن السيطرة على الحملة لم تعد للبابا وإنما الت لأشخاص آخرين . لذلك أوقع البابا قرار الحرمان على الحملة الصليبية كلها (١) . وهنا اسقط في يد الصليبيين ، وأدركوا إلى أى مدى تورطوا في هذا العمل .

وقد اجتمع البارونات للتشاور ، وتم الاتفاق على ضرورة ارسال وفدا يمثلهم إلى البابا في روما ليتمسوا منه العفو عنهم ورفع قرار الحرمان. واختاروا اثنين من الاكليركيين هما نيفلون Nevelon أسقف سواسون ، ويوحنا أوف نويون John of Noyon الذى يتبع بلدوين كونت فلاندرز وهينولت ، وصحبهما فارسان هما :

Robert of Bones and John of Friaize على أن روبرت تركهم واتخذ طريقه إلى سوريا ، وهكذا أصبح الوفد مكونا من ثلاثة أشخاص فقط . وحين قابلوا البابا قالوا له :

«ان البارونات يطلبون عفوك من أجل استيلائهم على زارا فقد كان هذا التصرف طائش وآثم ، ولذلك فإنهم يقدمون أنفسهم لك بصفتك والدهم الطيب ، وهم على أتم استعداد لتنفيذ جميع أوامرك» .

فرد عليهم البابا موضحا بأنه يدرك تماما أن هذا الخطأ الذى ارتكبه الصليبيون هو خطأ الآخرين — بقصد البنادقة — وأنه يأسف أشد الأسف لما

(1) Nicol : The Fourth Crusade, p. 180.

Runciman : The History of the Crusades, Vol. 3. p. 115. Gibbon: The Decline and Fall of the Roman Empire Vol. 6, p. 153.

فعلوه . على أنه في النهاية غفر لهم فعانهم هذه ، ورفع عنهم قرار الحرمان وقصره على البنادقة فقط ، ثم زودهم بنصحه وتعليماته التي نصبت على تماسكهم وتعاونهم من أجل خدمة الرب . وقد منح البابا كل السلطات لرجلي الديسن نيقلون ويوحنا من أجل العمل على اتحاد جيش الصليبيين ، حتى يلحق بهم كاردينالا من طرفه (١) .

وهكذا تم للبنادقة التفرير بالحملة الصليبية الرابعة واستغلالها لتحقيق مصالحهم الخاصة ، بدلا من توجيهها للشرق ومحاربة المسلمين ، وكان هذا أول انحراف يحدث لهذه الحملة الصليبية .

أما الانحراف الثاني في خط سير هذه الحملة الغربية فكانت ضحيته العاصمة البيزنطية القسطنطينية وذلك على النحو الذي سيتضح خلال عرض الأحداث في الفصل التالي .

(1) Villehardouin : op. cit., p. 26.

Runciman : A History of the Crusades, Vol. 3, p. 115.

Nicol : The Fourth Crusade, p. 280.

الفصل الرابع

الحملة الصليبية والعاصمة البيزنطية

«أيتها المدينة .. المدينة ...

لقد تجرعت حتى الثمالة من كأس

غضب الله»

خونياتيس

- الاتصالات بين نيايب والصليبيين .
- وصول الأمير اليكسندر إلى زارا .
- خطط سير الحملة من زارا إلى القسطنطينية .
- نجاح الصليبيين في استرداد العرش البيزنطي لحايفهم .
- تطور العلاقات بين الصليبيين واليكسيوس الرابع .
- استيلاء الصليبيين على العاصمة البيزنطية .

استعرضنا في الفصل السابق التناحيل الخاصة بالحملة الصليبية الرابعة من حيث الدعوة لها والدور الذي لعبته البندقية في العمل على الانحراف بالحملة عن هدفها الأساسي ومهاجمة مدينة زارا والاستيلاء عليها ، واقتسامها مع الصليبيين وصدى ذلك عند البابا اينوسنت الثالث .

وفي أثناء ذلك كان الامير البيزنطي اليكسيوس انجيلوس ، قد أكمل رحلته ووصل إلى المانيا حيث قوبل بالترحاب من جانب شقيقته إيريسن وزوجها فيليب السوابي ، ولاشك أن اليكسيوس قد أخبر فيليب بالاتصالات التي تمت بينه وبين زعماء الحملة الصليبية أثناء مروره بشمال إيطاليا . وبما أن فيليب كان لا يستطيع أن يقدم المساعدة العسكرية لاليكسيوس نظرا لاشتعال الحرب الاهلية في المانيا وقتذاك . وبما أن قائد الحملة الصليبية وهو الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات كان ابن أخت فيليب السوابي . وبالتالي يسهل التأثير عليه من جانب خاله فيليب . بالاضافة لما ذكره المؤرخ الفرنسي الكونت ربان عن الدوافع الخاصة لدى فيليب السوابي (١) . لهذا كله فالمرجح أن فيليب قد وافق على الاستعانة بالحملة الصليبية من أجل استرداد العرش البيزنطي والذو وجته اسحاق انجيلوس .

وقد تباحث كل من فيليب واليكسيوس ، واشترك معهما في المباحثات الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات وذلك أثناء زيارته لألمانيا في أوائل عام ١٢٠٢ ، حول الامتيازات التي سيقدمها اليكسيوس للجانب الصليبي مقابل المساعدة العسكرية التي سيحصل عليها من الحملة الصليبية (٢) .

(١) أنظر الفصل الأول من هذا البحث .

(2) Pears : The Fall of Constantiople, Being The Story of the Fourth Crusade, pp. 273 — 275.

Nicol : The Fourth Crusade, p. 278.

وفي ديسمبر ١٢٠٢ وبعد ما يقرب من الشهر بعد فتح الصليبيين لمدينة زار وصل اليها رسل الملك فيليب. وسلموا لزعماء الحملة رسالة الملك فيليب اليهم وبها الشروط المعروضة عليهم ، وجاء المؤرخ فيلهاردوين بنص الرسالة وكانت كالآتي (١) :

«سادتي ، سأرسل لكم شقيق زوجتي ، وأضعه بين يدي الله - الذي ربما حفظه من الموت - وبين أيديكم .

ولأنكم اتخذتم موقفا نزيها تجاه الله وتجاه الحق ، وتجاه العدالة لذلك أرجو أن تتعاونوا - قدر استطاعتكم - من أجل استرداد ميراثه الذي سلب منه ظلما . وشقيق زوجتي سيقدم لكم أفضل الشروط ، وسيمنحكم المساعدة الأكثر فعالية من أجل استرداد الأراضي المقدسة .

أولا - إذا الله هيا لكم استرداد ميراثه ، فإنه سيخضع امبراطورية رومانيا (الامبراطورية البيزنطية) لسلطان البابوية التي انفصلت عنها طويلا .

وهو يعلم أنكم انفقتم ثرواتكم ، وأنكم فقراء ، لذلك فإنه سيمنحكم ٢٠٠,٠٠٠ مارك من الفضة ، وسيقدم المئذ لكل من في الجيش ، صغيرا أكان أم كبيرا .

وهو بشخصه سوف يذهب معكم لأرض بابليون (مصر) أو اذا رأيتم أفضل من ذلك ، فإنه سيرسل إلى هناك ١٠,٠٠٠ مقاتل على نفقته الخاصة . وطوال حياته ، فإنه سيضع على نفقته الخاصة أيضا خمسمائة فارس في الأراضي المقدسة لحراستها .

وقد أوضح الرسل أنهم مزودون بكافة السلطات التي تتيح لهم إبرام الاتفاق مع الصليبيين ، ثم أنجلوا يوضحون أهمية هذه الامتيازات التي يقدمها لهم الأمير البيزنطي وأنهم إذا رفضوها برهنوا على أنهم ليسوا جديرين بالحد والفتح .

وقد طلب البارونات والدوق داندولو منحهم مهلة حتى اليوم التالي للتفكير والتشاور في هذا الأمر .

وأثناء المشاورات التي جرت بين الصليبيين والبنادقة أوضح جماعة السيسترشيان رأيهم من أنهم لا يوافقون على هذا العرض ، وأنهم لم يتركوا أوطانهم من أجل محاربة المسيحيين . وأكدوا على ضرورة التوجه مباشرة لقتال المسلمين في سوريا . فرد عليهم أحد الصليبيين موضحاً بأنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً في سوريا وأنه عن طريق مصر أو الدولة البيزنطية فقط سيتمكنوا من استعادة الأراضي المقدسة ، وأنهم إذا لم يوافقوا على هذه الشروط ، فأنهم سوف يندمون كثيراً فيما بعد (١) .

وقد وافق قائد الحملة المركزي بونيفيس أوف مونتفرات على هذا العرض والمرجح أن الأمر كان متفقاً عليه من قبل بينه وبين الملك فيليب . والأمير إليكسيوس انجيلوس ، وذلك أثناء الاتصالات التي تمت بين هذه الأطراف في أوائل عام ١٢٠٢ ، كما سبقت الإشارة .

كذلك وافق على العرض باقي البارونات ، وابلغوا موافقتهم لدوق البندقية ، فوافق هو الآخر ، وتم إبرام الاتفاق بين الطرفين ، وقد مثل الصليبيين اثني عشرة شخصاً كان من بينهم الماركيز يونيفس أوف مونتفرات

(1) Villehardouin : op. cit., p. 24.

والكونت بلادوين أوف فلاندرز وهينولت والكونت لويس أوف باواو شارتر (١) وهكذا تم انحراف هذه الحملة الصليبية للمرة الثانية ضد مدينة مسيحية، ولكن ما هو موقف البابا اينوسنت الثالث من هذا الانحراف الثانى للحملة؟ حين وصلت هذه الاخبار إلى روما، علم البابا بأن فيليب السوابي واليكسيوس نجحا في التأثير على الصليبيين وتحويل اتجاه الحملة وبذلك خرج أمرها من يده، وقد أوضح البابا لرسل الحملة الذين كانوا في روما أن الصليبيين لا يملكون الحق في التدخل في الاحداث الداخلية الخاصة بالبيزنطيين.

« Vos nullam in greacos Jurisdictionem habientes » (2)

وحذرهم أكثر من مرة من مهاجمة الدولة البيزنطية Romania بحجة أن الضرورة تقتضى ذلك. وقد أرسل البابا اينوسنت خطابات إلى الصليبيين عاد بها رسلهم. أوضح في أحد هذه الخطابات أن الصليبيين أمروا بأن يقسموا على الطاعة، وقد اشتمل هذا القسم على وعد بعدم مهاجمة البيزنطيين وحذرهم البابا بأنهم اذا لم يقسموا على ذلك ويمثلوا لأوامره فان العفو الممنوح لهم نتيجة هجومهم على زارا سوف يصبح de facto أى باطلا (٣).

وقد أعنى الكاردينال بطرس كابوانو من منصبه كنائب عن البابا في الحملة وحل محله اثنين آخرين هما :

John de Friaise and Mohon Faicete

وقد أمر أحدهما بأن يذيع قرار الحرمان الخاص بالبنادقة.

أما فيما يتعلق بالقسم، فان بونيفيس أوف مونتفرات استغل نفوذه كقائد

(1) Villehardouin : op. cit., p. 2.

(2) Innocent III : Epistolae, VIII

(3) Pears : op. cit., p. 288.

للحملة ، وتلاعب في هذا الموضوع بأن أخفى عن الصليبيين أوامر البابا الخاصة بالقسم ، وأخبر قلة قليلة من الزعماء فقط ، وأرسل قسمهم بالوعد بعدم مهاجمة البيزنطيين إلى روما (١) .

وفي بداية إبريل ١٢٠٣ ، أرسل البابا رسلا من طرفه ومعهم خطاب منه إلى الصليبيين في زارا ، وقد احتوى خطاب البابا على أمرين ، الأول : تأكيد بالعفو الممنوح لهم ، والثاني : أمر رسمي من البابا ألا يهاجم الصليبيين البيزنطيين إلا في حالة واحدة فقط هي رفضهم امداد الحملة بالموث والزااد (٢) .

وقد أذيع الجزء الأول من الخطاب على الصليبيين ، أما الجزء الثاني فقد تدخل بونيفيس أوف مونتفات ومنع ادعاءه على الجيش الصليبي (٣) .

وهكذا أصبح غالبية الصليبيين لا يعلمون شيئا عن موقف البابا اينوسنت الثالث وتحذيره من هجومهم المنتظر على العاصمة البيزنطية . وفي ٧ إبريل ١٢٠٣ رحل الجيش الصليبي عن زارا بعد أن قاموا بتخريب أسوارها وإبراجها ، بينما تخلف في زارا الماركيز بونيفيس والدوق داندولو في انتظار وصول الأمير البيزنطي اليكسيوس أنجيلوس الذي سيصاحبهم في حملتهم ضد القسطنطينية .

وفي ٢٥ أبريل ١٢٠٣ وصل اليكسيوس إلى زارا فأستقبله الماركيز والدوق بترحيب كبير وفي ٤ مايو لحقوا بالجيش عند كورفو .

ويصف فيلهاردوين فرحة الصليبيين جميعا حينما علموا بوجود الأمير

-- (1) Pears : op. cit., p. 288.

(2) Innocent III : Epistolae, VI, p. 102.

(٣) Pears : op. cit., pp. 289 — 290.

البزنطى بينهم فى المعسكر وقدموا اليه بحبونه ويرحبون به ونصبوا خيمته فى وسط المعسكر بجوار خيمة قائد الحملة الماركيز بونيفيس الذى أوكل اليه الملك فيليب السوابى مهمة حياة اليكسيوس والاهتمام بأمره (١) .

عسكر الجيش الصليبي فى كورفو لمدة ثلاثة أسابيع ، ثم غادروها ٤ مايو ١٢٠٣ . واتجهوا إلى جزيرة اندروس فاستقبلهم أهاليها بالترحيب وأعلنوا خضوعهم للأمير اليكسيوس فتركها الصليبيون واتخذوا طريقهم إلى اييدوس فسلمها اليهم الاهالى ووضعوا بها حامية ، وفى ٢٣ يونيو ١٢٠٣ وصلوا إلى سانت ستيفان St. Stephin على بعد ثلاثة فراسخ من القسطنطينية .

اجتمع اللوردات البارونات من أجل التشاور فيما ينبغى عمله ، فأقترح عليهم دوق البندقية أن يذهبوا إلى جزيرة خليقدونية Chalcedon المواجهة للقسطنطينية على الضفة الاسيوية للبسفور ، ليتردوا بالمؤن ثم بعد ذلك يذهبوا لحصار العاصمة ، وبناء على نصيحته توجهوا إلى خليقدونية وبعد أن صاوا على كل ما يحتاجونه من مؤن أبحروا فى اليوم الثالث إلى سكيوتارى Scutari على مضيق البوسفور ، وبدأوا فرض الحصار البحرى على مدينة القسطنطينية (٢) .

والواقع أن معظم الصليبيين المصاحبين للحملة كانوا يرون هذه المدينة لأول مرة ، ومن ثمة فقد أصيبوا بالدهشة المزوجة بالاعجاب لهذه المدينة ذات الاسوار العالية والابراج التى تحيط بها من كل جانب ، وقصورها البالغة الثراء وكنائسها الشائعة واتساع المدينة الذى فاق - كما يقول فيلهاردوين -

(1) Villehardouin : op. cit., p. 27.

(2) Villehardouin : op. cit., pp. 29 — 33.

أنظر خط سير الحملة الصليبية الرابعة فى الخريطة رقم (١) .

اتساع أية مدينة أخرى (١) . فان قاعدة المثلث الذى تقوم عليه المدينة كانت تقارب الخمسة أميال ، وكانت القسطنطينية تستطيع أن تفاخر كروما بتلالها السبع ، وكانت تلك التلال تنهض كالجدار على البوسفور والقرن الذهبى . وعند بداية القرن الثالث عشر الميلادى ، كانت القسطنطينية (٢) هى

المدينة الرئيسية فى العالم الغربى ، وقد منحها هذا المركز كثير من المميزات ، منها موقعها الجغرافى ، فهى تقع عند نقطة التقاء قارنى أوروبا وآسيا ، وتحيط المياه بالمدينة من جانبيها ، وكان مضيق البوسفور والدردنيل يمثلان ممران طبيعيان للتجارة ، مما جعل القسطنطينية مركزا تجاريا فريدا نتيجة لسيطرتها على طرق التجارة بين غرب أوروبا والبلاد الواقعة على البحر الأسود وشواطئ بحر مرمره .

وكان القرن الذهبى وهو الميناء الطبيعى للعاصمة محميا من أية تيارات عنيفة ، كما كان نصفه عميقا للدرجة تسمح لأية سفينة كبيرة من الوصول إلى الشاطئ بسلام ونصفه الآخر كان ضحلا وفسيجا للدرجة تكفل دخول المراكب الصغيرة . ولما كانت المياه تتدفق فى مضيق البوسفور نحو الشمال ونحو الجنوب ، فقد منح ذلك المدينة الجو الصحى الممتاز نتيجة لاستمرار تجديد الهواء .

وقد امتازت القسطنطينية بمجموعة ضخمة من المباني الرائعة ، ومن أهمها الكنائس الفخمة بقبابها المرتفعة ، وقيل بأنه بلغ من كثرة الكنائس بها أنه وجدت كنيسة على ناصية كل شارع ، ومنها على سبيل المثال كنيسة أيا

(1) Villehardouin : op. cit., p. 31.

(٢) أنظر خريطة رقم (٢) لمدينة القسطنطينية وأهم معالمها .

صوفيا وكنيسة الرسل ، وكنيسة القديسة ايرين ، وكنيسة القديسة ماري ،
والقديس سرجيوس . والقديس توماس وغيرها . وكانت قباب هذه الكنائس
مغطاة بالذهب ، كما كان بعضها يضم أعمدة من الذهب والفضة وثريات لا
تعد من نفس هذه المعادن الثمينة .

أما مجموعة الآثار المقدسة التي حوتها هذه الكنائس فكانت على درجة
كبيرة من الاهمية بالنسبة للمسيحيين في كل مكان ، ويقول فيلهاردوين أن
مجموعة الآثار الدينية الموجودة بالقسطنطينية تعادل في كثرتها الآثار المقدسة
الموجودة في باقي أنحاء العالم المسيحي و كله مجتمع .

لواقع أن الدافع وراء غنى القسطنطينية بهذه الآثار هو محاولة تخليصها
من (العقدة) التي عانت منها بسبب افتقارها إلى مثل هذه الآثار ، لأن أحدا
من الرسل لم يشرفها بالذهاب إلى موضعها أو الاستشهاد بالقرب منها ، أو
تأسيس كنيسة بها ، فأين هي من بيت المقدس ، ذلك المركز الديني الهام الذي
لا يمكن أن تتناول إليه أية مدينة مسيحية أخرى . وأين هي من انطاكية ،
مدينة البطارقة العظام والحجامع الدينية العديدة ، وهي المدينة التي أطلق على
الحواريين فيها لأول مرة اسم المسيحيين . وأين هي من روما التي شرفها
القديس بطرس أمير الحواريين ببناء كنيسة بها وهي الكنيسة التي أصبحت
فيما بعد تضم رفاتة ؟ ان القسطنطينية ذاتها لم تؤسس إلا في فترة متأخرة نسبيا
في القرن الرابع الميلادي .

ورغبة من الاباطرة البيزنطيين في تخليص عاصمتهم من هذه العقدة ، فأنهم
كانوا حريصين على جمع الآثار الدينية من مختلف البلاد ، وحفظها بالقسطنطينية

حتى يكسبها ذلك التشريف الدينى الذى تفتقر اليه . ويروى التاريخ مواقف عديدة توضح مدى اهتمام الاباطرة بهذا الأمر .

فى عصر الامبراطور قسطنطين السابع (٩١٣ - ٩٥٩) نازلت الجيوش البيزنطية مدينة الرها فى عام ٩٤٤ ، ويذكر المؤرخ يحيى الأنطاكى «ان البيزنطيين التمسوا من أهلها ايقونة المنديل الذى كان سيدنا يسوع المسيح مسح به وجهه وصارت صورته فيه ، وبذل لهم الروم أنهم إذا سلموهم هذا المنديل اطلقوا من الاسارى المسلمين الذين بيدهم عددا ذكروه لهم» . ثم أوضح هذا المؤرخ أن أهل الرها وافقوا على طالب البيزنطيين بعد الرجوع إلى أولى الأمور فى بغداد ، وكيف أن البيزنطيين حملوا هذا المنديل فى مركب كبير إلى العاصمة البيزنطية حيث استقبله الامبراطور والبطريرك والشعب استقبالا حافلا ، وحمل هذا المنديل إلى كنيسة آياصوفيا ، ثم إلى كنيسة العذراء الملحقة بالقصر الامبراطورى الكبير *Vierge du-phare* ليحفظ بها (١) .

ويروى نفس المؤرخ حادثة أخرى ، وهى حرص الامبراطور نقفور فوقاس على أخذ القرميدة التى تحمل آثار وجه السيد المسيح من مدينة منبج فى عام ٩٦٦ م ، وحين أخرجها اليه أهلها لم يعرض لهم بمكروه (٢) .

أما الامبراطور يوحنا تريمسكس (٩٦٩ - ٩٧٦) فقد أعلن بكل فخر

(١) يحيى الأنطاكى : التاريخ ، ص ٩٨ - ٩٩ .

Walter (g) : La Ruine de Byzance, ed. Albin Michel Paris, 1958, P. 143.

(١) يحيى الأنطاكى : التاريخ ، ص ١٢٧ .

واعتراز حصوله على عدد من الآثار المقدسة الهامة أثناء غزوته الشام في عام ٩٧٥ م ، فقال في خطابه إلى آشوط الثالث ملك أرمينيا المسيحية :

«.. أننا عثرنا في جبله على النعلين المقدسين اللذين سار بهما المسيح حينما ظهر على الأرض ، كما وجدنا ايقونة المخلص - المسيح - تلك التي كان قد طعنها اليهود فسال منها في التو دم و ماء . ولكننا لم نلاحظ في هذه الايقونة طعنة الحرب . ووجدنا كذلك في المدينة شعر القديس يوحنا المعمدان الرسول هو شيء نفيس . وبعد أن جمعنا هذه المخلفات ، حملناها معنا لنحتفظ بها ، مدينتنا - القسطنطينية - التي يكلاًها الرب برعايته (١) .

هذا وقد أوضح الراهب انطوان Antoine الذي أصبح فيما بعد رئيس ساقفة نوفجورود Novgorod والذي زار القسطنطينية في أوائل القرن الثالث عشر وقبل فتح الصليبيين لها بثلاث سنوات ، قيمة واماكن الآثار الدينية الموجودة بالعاصمة البيزنطية بمنتهى الدقة . وعلى سبيل المثال ، فان نار المسيح منذ مولده موجودة بصفة خاصة في كنيسة أيا صوفيا ففيها يوجدائف (أقمطة) المسيح وهو طفل ، وأواني الذهب المملوءة بالهدايا التي حضرها الأهالي للطفل يسوع . وقميصه ووشاحه وحزامه وعصاه ونعليه ، قطعة من الخشب كان المسيح يعلقها في عنقه ، وحوض غسل بداخله اقدم لاميذه (الحواريون) . والمنضدة التي تعشى عليها في خيس الاسرار ، وخشب صليب والمنشار والمسامير ، وتاج الشوك والحربة والدم المقدس ، وبلاطة من القبر المقدس (٢) .

(١) أنظر نص الرسالة في المرجع التالي .

عمر كمال توفيق : يوحنا تزييمسكس وسياسته الشرقية ، الملحق رقم (١) .

ص ١٧٠ - ١٧١ .

(2) Walter : La Ruine de Byzance, p. 144.

وهناك مجموعات أخرى من الآثار المقدسة ضمتها بعض الكنائس (١) :
ولم يكن ينتقض قرن حتى تضاف مجموعات جديدة ، كما حرص البيزنطيون
على نقل رفات القديسين إلى عاصمتهم ، فاحضرت هيلين والدة الامبراطور
قسطنطين الاكبر ، رفات القديس دانيال ، ووصلت للعاصمة رفات القديسين
تيموثي واندراوس ولوقا في عهد الامبراطور فنسطنز (٣٣٧ - ٣٥٠)
واحضرت رفات القديس صموئيل في عهد الامبراطور اركاديوس (٣٩٥ -
٤٠٨) ، واشعيا في أيام ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠) ، والقديسة آن
في أثناء حكم جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥) ، ومريم المجدلية في عهد ليو السادس
(٨٨٦ - ٩١٢) (٢) .

وإلى جانب الكنائس كانت هناك القصور ، الفخمة منها القصر
الامبراطوري الكبير الذي يسمى البوكوليون Bucoleon نسبة إلى مرفأ
القصر المسمى بذلك الأسم ، وكان هذا القصر عبارة عن مجموعة كبيرة من
المباني وقاعات الاجتماعات والمحاضرات والحمامات وأجنحة السكن التي شادها
اباطرة مختلفون ، فقد بنى به الامبراطور ثيوفيل قاعة الاستقبال الشهيرة
Triconch و اضاف اليه باسيل الأول اضافات عديدة ، على حين انشأ
به تقصور فوقاس جناحا عند شاطئ البحر .

اما القصر الجديد المسمى Blachernae الذي بناه الامبراطور مانويل
كومنينوس فكانت حيطانه وأعمدته مغطاه بالذهب الخالص ، وكان العرش

(١) بخصوص المزيد من التفاصيل عن هذه الآثار ماكن تواجدها أنظر المرجع التالى .

Walter : op. cit., pp. 144 — 145.

(2) Runciman : The Byzantine Civilisation, pp. 215 — 216.

فى هذا القصر من الذهب ومجلى بالاحجار الكريمة ، اما التاج الامبراطورى المعلق عليه فكان من الذهب ومرصع بالجواهر التى لا تقدر بثمن .

وكان الميدان الامبراطورى أو .. Augusteum يضم كنيسة آيا صوفيا والقصر الامبراطورى الكبير ومحاط بصفين من الأعمدة ، وفى مواجهة الكنيسة يقوم فوق قاعدة من البرنز تمثال للامبراطور هرقل بحجم ضخم ، ويده اليمنى ممدودة بحركة تهديد نحو الشرق ، بينما يده اليسرى تقبض على كره رمزا للسيادة العالمية (١) .

وبالقرب من الكنيسة والقصر الكبير كان يقع الهيودروم أو ميدان السباق ، وهو مبنى ضخم فسيح يتسع لجلوس ما يقارب الأربعين ألف شخص وكان فى الامكان الوصول من القصر مباشرة إلى المقصورة الامبراطورية بهذا الملعب ، وكان الهيدروم هو مركز الحياة الاجتماعية والسياسية فى العاصمة وكانت أعظم تسلية للأهالى هى مشاهدة الالعاب بهذا الملعب والصراع مع الحيوانات وسباق العربات ، وكانت مشاهدة العاب السيرك مجانية تتكلفتها الحكومة .

وكان فى الهيودروم عمود قسطنطين وهو عمود من الحجارة اقامه الامبراطور قسطنطين ، وكذلك مسلة فرعونية قائمة على قاعدة من الجرانيت تمثل فن النحت البيزنطى . وما زالت بعض آثار الهيودروم باقية حتى اليوم (٢) .

وكان أجمل احياء الخوانيت يقع داخل المدينة ، فعلى امتداد الراية الرئيسية وابتداء من مدخل القصر الكبير وميدان السباق إلى امتداد ميلين كان

(١) أنظر الصورة رقم (٢) .

(٢) رأيت هذه الآثار بمدينة اسطنبول أثناء زيارتي لها فى أغسطس ١٩٧٧ ، والتقطت بعض الصور ، أنظر مجموعة الصور رقم (٣) .

يمتد نحو الغرب الشارع المسمى بالشارع الاوسط Mese وهو شارع واسع تحف به من جانبيه العقود (البواكى) ، ويمر من خلال سوقين Forums احدهما سوق قسطنطين الملاصق للقصر ، والآخر سوق ثيودوسيوس الأكثر منه اتساعا . وفي النهاية يتفرع إلى شارعين رئيسيين احدهما يسير متخرفا سوق الثور واركاديوس إلى الاستودوم والبوابة الذهبية ، بينما يمر الآخر امام كنيسة الرسل المقدسين إلى قصر بلا كرناى والبوابة الحاريسانية .

وكانت تقوم على جانبي بواكى شارع الوسط أهم حوانيت المدينة مرتبة فى مجاميع تبعا لما تباع من سلع ، فصاغة الذهب أولا يليهم صاغة الفضة ثم بائعو الثياب والأقمشة وصناع الأثاث وهكذا . وكانت اغنى هذه الحوانيت تقع بالقرب من القصر الكبير عند حمامات زيوكسيوس .. Zuexipus حيث كان المركز التجارى لسوق الحرير الضخم المعروف باسم دار الانوار لأن نوافذه كانت بضاء ليلا .

ويقول المؤرخ الاسبانى بنيامين اوف تودىلا الذى زار القسطنطينية فى ١١٦١ أنه وجدها تبيع بالتجار الذين أتوا اليها من البر والبحر من مصر والعراق وفلسطين وروسيا وهنغاريا ولومبارديا واسبانيا ومن كل الأقطار فى العالم .

وقد تمتع معظم أهل القسطنطينية بالثراء ، وكانوا يرتدون الملابس الموشاه بالذهب والاحجار الكريمة ، ويمتطون خيولهم ويبدون فى مظهرهم هذا كالأمرء . وكان اثرياء العاصمة يمتلكون الفيلات على شواطئ البوسفور وبحر مرمرة ، حيث يقضون بها فصل الصيف .

وكما كانت القسطنطينية مدينة الأعمال ، فأنها كانت كذلك مدينة اللهو والمسرات ، كانت أشبه ما تكون فى عصرنا الحاضر بباريس ولندن ، حيث

كان يذهب اليها الاثرياء من باقى البلاد لينعموا فيها بقسط من الراحة والرفاهية
ومختلف أنواع المتع الحسية والفنية . ووجدت بها جميع أنواع البضائع إلى
حطب تمتعها بالجو اللطيف والمناظر الطبيعية الخلابة (١) .

وهكذا فرض الصليبيون الحصار على هذه المدينة العظيمة من أجل
استعادة عرشها لحليفهم ووالده الامبراطور السابق اسحاق انجيلوس . وحين
رأى الامبراطور اليكسيوس حصار الصليبيين للمدينة أرسل إليهم رسولا من
طرفه ، وهو أحد الومباردين ويدعى نيقولاروكس ، Nicholas Ronx ،
منى مخاطب الصليبيين قائلا : «سادتى ، ان الامبراطور اليكسيوس يريد ان
يوضح لكم انه يعلم جيدا انكم أحسن العناصر ، وجئتم من أحسن الاقطار على
وجه الأرض . وهو يعجب كثيرا ويتساءل ، لماذا ، ولأى غرض اقتحمتم
أرضه ومملكته ؟ فهو مسيحي وانتم مسيحيون . وهو يعلم جيدا انكم فى طريقكم
تحرير الاراضى المقدسة والصليب المقدس وأورشليم . إذا كنتم فقراء
بمحتاجون . فإنه يرغب حقا فى أن يمنحكم المال والازاد بشرط أن تغادروا
أرضه فوراً . وهو لا يريد أن تقوموا بأى عمل تخريبى ، لأنه صاحب القوة
مطلقة هنا . ترون ذلك لو أن عددكم اضعاف ما أنتم عليه عشرون مرة . وإذا

(١) فيما يتعلق بالتسطينية وميزاتها أنظر المراجع التالية :

Miller (D) : Imperial Constantiople, U S A, 1969, pp. 1 — 147.
Runciman : The Byzantine Civilisation, pp. 179 — 222
Brehier(L) : La civilisation Byzantine Edition Albin Michel. Paris.
1970. pp. 73 — 99.
Toynbee (A); Constontine Porphyrogenetus and his world, London.
1773, pp. 201 — 223.
Diehl : Byzance, Grandeur et Decadence, Paris, 1928, pp. 104 —
120.

أراد الحاق الأذى بكم ، فلن تستطيعوا الفرار بدون الهزيمة الكاملة» (١) .

وقد اختار البارونات ودوق البندقية أحد الفرسان ويدعى Conon of Bethune لما توسموه فيه من عقل راجح وحكمة لكي يتولى الرد على هذا الرسول ، فقال موضحا وجهة نظر الصليبيين : «سيدى ، لقد قلت لنا ان مولاك يعجب كثيرا لماذا سادتنا والبارونات دخلوا إلى أرضه ومملكته ، انهم لم يدخلوا أرضه هو . لأنه اغتصب هذه الأرض ظلما وعدوانا ، ونهد الله وضد الحق ، انها تخص ابن شقيقه - الامبراطور اسحاق - الذى يجلس بيننا على العرش . اذا رغب سيدك فى أن يرد لابن شقيقه تاجه وامبراطوريته ، ويلقى بنفسه تحت رحمته ، عندئذ ستتوسل لابن شقيقه لكي يصفح عنه وأن ينعم عليه بالقدر الذى يمكنه من العيش ميسور الحال ، واذا أنت لم تجبنا على هذه الرسالة ، فلانجرؤ على العودة إلى هنا ثانية» (٢) .

استقر رأى البارونات على أن يظهروا الأمير اليكسيوس إلى أهالى القسطنطينية طسعا فى أن ينضموا إلى جانبه ضد عمه الامبراطور ، وبالفعل اعتلى الأمير ظهر إحدى السفن الحربية ومعه الماركيز بونيفيس ودوق البندقية واقتربوا كثيرا من أسوار العاصمة . غير أن ظنهم قد خاب ، فبدافع من الخوف من الامبراطور لم يجرؤ أحد من الأهالى على رؤيته ، فعاد الأمير ومن معه إلى الجيش مرة أخرى . ولم يجد الصليبيون بدا من اقتحام العاصمة ، فقسموا الجيش إلى سبع فرق ، وكانت أكبر الفرق تحت قيادة الماركيز بونيفيس ، وبعد جهود مضية تمكنوا من قطع السلاسل الحديدية الضخمة

(1) Villehardouin : op. cit., p. 35.

(2) Villehardouin : op. cit., p. 25.

التي تغلق ميناء القسطنطينية وأصبحوا داخل الميناء حيث هاجموا المدينة برا وبحرا ، وتعرض للهجوم قصر بلاكرناى Blachernae وهو أحد القصور الامبراطورية .

وفي صباح ١٧ يوليو ١٢٠٣ بدأت معركة رهيبه بين الطرفين استولى خلالها الصليبيون على ٢٥ برج من ابراج العاصمة والتحموا مع المدافعين عنها في قتال عنيف ، وكان الامبراطور اليكسيوس ذاته يقود المعركة ، وتلى ذلك معارك أخرى (١) ، وقد أدرك الامبراطور تفوق الجانب الصليبي وعدم جدوى الدفاع ، فجمع كل ما استطاع من مجوهرات وأموال وفر ليلا مع عدد من أتباعه ، وحين علم الأهالي بفراره ذهبوا إلى الامبراطور السابق اسحاق في سجنه ، واخرجوه منه وحملوه إلى قصر بلاكرناى ، حيث أجلسوه على العرش ، وبمجرد عودته إلى عرشه أرسل إلى جيش الصليبيين يخبرهم بذلك .

اجتمع الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات مع البارونات واخبرهم بذلك ثم ابلغوا الأمير اليكسيوس ففرح فرحا عظيما ، وقد استقر رأى الصليبيين على عدم السماح للأمير بالعودة إلى والده إلا بعد أخذ موافقة الامبراطور اسحاق على كل ما تعهد به ابنه للصليبيين مقابل استرداد العرش البيزنطى ، فأرسلوا بأربعة رسل اثنين من البنادقة واثنين من الصليبيين كان احدهما هو جيوفرى فيلهاردوين ، وفتحت لهم بوابة القسطنطينية ووصلوا إلى قصر بلاكرناى حيث قابلوا الامبراطور اسحاق ، واخبروه بتفاصيل الاتفاق السابق مع ولده اليكسيوس وطلبوا منه المصادقة عليه . وبعد أن أوضح الامبراطور رأيه في

(١) يوجد وصف تفصيل لهذه المعارك في المصدر التالى : -

Villehardouin : op. cit., pp. 35 — 45.

هذا الاتفاق وشروطه القاسية ، شكر الصليبيين على هذه الخدمة التي قدموها له ولأبنة وصادق على الاتفاق .

وهكذا اطمأن الصليبيون بالتزام الامبراطور اسماعق بتنفيذ شروط الاتفاق وسمحوا للأمير بدخول عاصمته ، فقاده البارونات حتى اوصلوه إلى بوابة العاصمة حيث استقبله والده بفرحة عارمة بعد أن طال فراقها . وفي اليوم التالي خرج الامبراطور اسماعق وأبنة اليكسيوس إلى الجيش الصليبي خارج البوابة وقابلوهما ، وسمحوا للصليبيين بدخول العاصمة لمشاهدتها ، ولكن في مجموعات صغيرة .

وفي أول أغسطس ١٢٠٣ توج الأمير اليكسيوس امبراطورا مشاركاً في العرش مع والده اسماعق . وبعد تتويجه ذهب الامبراطور اليكسيوس الرابع إلى الجيش الصليبي حيث أوضح للبارونات عجزه في الوقت الحالي عن دفع ما اتفقوا عليه وطلب منهم أن يمهلوه حتى شهر مارس من عام ١٢٠٤ ، وتعهد بأنه سيتحمل نفقاتهم طوال هذه المدة . وبذلك نجح في اقناع البارونات ودوق البندقية برأيه فوافقوا على الانتظار (١) .

قرر الامبراطور اليكسيوس الرابع القيام بجولة في بعض ولايات الامبراطورية لتفقدتها واقرار سلطته عليها . وقد رافقه في هذه الجولة الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات وعدد من البارونات في حين بقي عدد آخر منهم مع الجيش الصليبي لحراسة المعسكر . وأثناء غياب الامبراطور اشتعل العراك داخل العاصمة بين اللاتين المقيمين بها والبيزنطيين الذين ساءم تدخل هذا العنصر البغيض في أمورهم ، واشعل بعض الأشخاص المجهولين النار في المدينة

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 54 — 50.

وسرعان ما انتشرت بشكل مخيف حتى أصبح من العسير اطفائها ، وقد استمرت على هذا النحو يومين وليلتين التهمت خلال هذه المدة الكثير من الكنائس والقصور والمتاجر وامتدت حتى شاطئ البحر ، وقد احترق فيها عدد كبير من النساء والرجال والأطفال والشيوخ ، وبعد أن خمدت النيران لم يجرؤ اللاتين المقيمين بالقسطنطينية على البقاء بها خوفا من تعرضهم للانتقام البيزنطيين . فحملوا زوجاتهم وأطفالهم وما تبقى من ممتلكاتهم وغادروا العاصمة وانضموا إلى جيش الصليبيين .

عاد الامبراطور اليكسيوس الرابع إلى العاصمة . وعلم بالحريق السذي اشتعل بها أثناء غيابه والدمار التي اسفرت عن هذا الحريق ، كما أنه كان يعلم بمدى كراهية رعاياه لهؤلاء اللاتين ، لذلك وفي محاولة لكسب شعور البيزنطيين بدأت معاملته للاتين تتغير وأصبح (يتعالى) عليهم . على حد تعبير فيلهاردوين ، فلم يعد يزور معسكرهم كما كان يفعل سابقا ، وظلت المبالغ التي يدفعها لهم تتضاءل وتنقص حتى انقطعت في النهاية . وقد دهش اللاتين لهذه المعاملة بعد كل الخدمات التي قدموها له ، وذهب إليه قائد الجيش الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات وأوضح له وجهة نظر الصليبيين ودهشتهم من تصرفاته هذه ، وأخيرا تأكد الصليبيون أنه يضمن لهم الشر وأنه لن ينفذ ما اتفقوا عليه . عند ذلك ارسلوا اليه رسلهم ، وكانوا ستة أشخاص من بينهم فيلهاردوين ليوضحوا له أنه إذا لم يلتزم بتنفيذ الاتفاق فأنهم لن يعاموه كصديق بعد ذلك وإنما سيحصلوا على حقهم بالقوة . وقد دهش الامبراطور اليكسيوس وحاشيته لهذه الجرأة إذ لم يحدث من قبل أن تم تهديد الامبراطور البيزنطي داخل بلاطه (١) .

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 50 — 53.

Clari : op. cit., pp. 56 — 58

وكمحاولة أخيرة أرسل دوق البندقية انريكو وانسولو في استدعاء
الامبراطور اليكسيوس ودارت بينهما محادثة أوردها روبرت كلاري وكانت
كالتالي :

"Alexe, que Cuides tu faire ?" "Fist Lidux "frenq warde gue nous t'avens
gete de grant caitivete, si t'avons fait seigneur et corone a empereur;
ne nous tenras tu mie" fist li dux, "nos convenenches, ne si n'en
feras plus?- Naie fist liempereres "jen'en ferai plus que fait enai I - Non?
"dist li dux, "garchons malvais nous t'avons" List li dux, "gete de le
merde et le merde te remeterons, et je te desfi et bien saches saches tu
que je te pouivacacherai mal a men pooir de ches pas enavant." (1)

والترجمة العربية لهذه المحادثة هي :

قال الدوق «يا إليكسيوس ما الذي تعني، بما قلت ؟ هل فكرت كيف
انتملناك من الشقاء العظيم . وكيف جعلناك سيدي ، وتوجناك امبراطورا ،
فهل رعيت عهدك معنا ، وهل اعترمت بتنفيذ شيء أكثر مما فعلت ؟ » فقال
الامبراطور لا . أني لن أفعل شيئا أكثر مما فعلت . فقال له الدوق «اتقول
لا أيها الغلام البني ، لقد كنا نحن الذين رفعناك من هاوية القذارة وسنعيدك
اليها مرة أخرى ، وأنني لم نحديك ومنذرك لتعلم علم اليقين أني منذ هذه
اللحظة فصاعدا سألحق بك من الأذى كل ما أستطيع » .

ظهر العداء سافرا بين الصليبيين والبيزنطيين ، وبدأت المناوشات بينهما ،
وقد اشعل البيزنطيون النار في بعض السفن الرأسية بالميناء وانتشرت النيران

حتى بدا (وكان العالم كله يحترق) وأصيب الصليبيون بالذعر خوفا على
مراكبهم ، ولكن بعد أن نجحوا في إخماد النيران أتضح ان السفن المحترقة هي
سفن تجارية بيزية كانت راسية بالميناء ، ولم يصب أسطول الصليبيين بضرر
(١) .

في تلك الأثناء أصبح البيزنطيون مقتنعين بضرورة التخلص من هذا
الامبراطور الذي كان السبب في استدعاء اللاتين وإتاحة الفرصة لهم للتدخل
في شئونهم الداخلية وكل ما ترتب على ذلك من متاعب ، فالتفوا حول أحدهم
ويدعى مورزوفلوس Mourzu Phlus وكان محبوبا من الأهالي ، وفي
أحد الليالي قبض مورزوفلوس على الامبراطور اليكسيوس وسجنه ، وأعلن
مورزوفلوس امبراطورا في كنيسة آيا صوفيا ، وحين علم الامبراطور اسحاق
بأن ابنه قد أبعد عن العرش وأودع السجن ، مرض ولم يلبث إلا قليلا حتى
توفي ، أما اليكسيوس فقد لقي حتفه بعد أن دس له مورزوفلوس السم في الطعام
باعثلاء مورزوفلوس للعرش البيزنطي لم يعد هناك أى أمل للصليبيين في
الحصول على حقهم أو تنفيذ أى شروط التزم بها قبلهم الامبراطور السابق
اليكسيوس الرابع ، لذلك لم يعد هناك مفر من الإلتجاء للقوة ، فعقدوا في آخر
مارس ١٢٠٤ م . اتفاقا بينهم وبين البنادقة ونص هذا الاتفاق على أنه في حالة
سقوط المدينة يقتسموا بالنصف كل ما يحصلون عليه منها من الغنائم والاسلاب
وأن يختاروا ستة أشخاص من الصليبيين ، وستة أشخاص من البنادقة ، ويقسم
هؤلاء جميعا على الآثار المقدسة أن ينتخبوا من بينهم الرجل الأصلح ليتوج
امبراطورا ويقولى حكم الامبراطورية البيزنطية ، ويحصل هذا الامبراطور

(1) villeharduoin : op. cit., p. 54.

clari : op. cit., pp. 59 — 60.

على ربيع ما يتم فتحه داخل العاصمة وخارجها ، ويمتلك كذلك القصرين الامبراطورين . Bucoleon و ... Blachernae . أما الثلاثة أرباع الأخرى فتقسم بالتساوى بين الصليبيين والبنادقة . وأن يتم اختيار اثني عشر شخصا من الصليبيين ومثلهم من البنادقة وهؤلاء الأربعة وعشرون شخصا يقومون بتوزيع الاقطاعات ومناصب الشرف ، ويرتبون من يقوم على خدمة الامبراطور (١) .

وبناء على ذلك ، بدأ حصار الصليبيين للقسطنطينية في ٨ أبريل ١٢٠٤ وتقاتلوا مع المدافعين عن أبراج المدينة وتمكنوا من الاستيلاء على بعض هذه الابراج وعن طريقها تدفقوا إلى داخل العاصمة ، وحين رآهم الامبراطور مورزوفلوس فر هاربا عن طريق البوابة الذهبية فأستولى على خيمته الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات وسقطت القسطنطينية في يد الصليبيين والبنادقة في يوم الاثنين ١٢ أبريل ١٢٠٤ (٢) .

دخل الصليبيون إلى العاصمة البيزنطية كالجراد المنتشر ، حيث اشعل بعضهم النيران فيها ، وكان هذا ثالث حريق تتعرض له العاصمة البائسة ، منذ أن جاء إليها اللاتين مع الأمير اليكسيوس انجيلوس ، وقد أتت النيران على الكثير من المنازل ، وقدر المؤرخ فيلهاردوين عدد المنازل التي احترقت في هذا الحريق وحده ، بأنها تماثل عدد المنازل التي تحتويها ثلاث مدن كبيرة من مملكة فرنسا (٣) آنذاك . ثم انطلقوا يقتلون كل من صادفهم من البيزنطيين

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 58 — 59; clari; op. cit., p. 68.

(2) Ibid : pp. 61 — 62.

(3) Villehardouin : op. cit., p. 64.

حتى أصبح من العسير حصر عدد القتلى . ثم جاء دور النهب الذى لم يقف عند أى حد ، حتى الكنائس والأديرة لم تسلم من النهب والسلب ، ويكفى للتدليل على ذلك ما فعله الصليبيون بكنيسة آيا صوفيا ، فقد اقتحموها وهم سكارى فمزقوا الستائر والبسط والمفروشات وداسوا الكتب المقدسة بأقدامهم وحطموا الأيقونات الفنية النادرة ، وإذا كان هذا شأنهم مع الكنائس ، فلم يكن غريبا أن يحرقوا الجامع الذى كان للمسلمين بالقسطنطينية وهو الجامع القديم الذى بنى فى عصر الامبراطور ليو الثالث (٧١٧ - ٧٤١) .

ولعل ما جاء فى خطاب البابا اينوسنت الثالث إلى الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات يعطى صورة أكبر للفظائع التى ارتكبتها الصليبيون ضد العاصمة البيزنطية وأهاليها . (١)

ويوضح لنا شاهد عيان هو روبرت كلارى ما حدث بعد ذلك فيقول :
«صدر الأمر بعدئذ بجمع كل الغنائم فى كنيسة معينة من كنائس المدينة فحىء بها اليها واختاروا عشرة فرسان من كبار الحجاج وعشرة من البنادقة ممن توسموا فيهم الأمانة وأقاموهم حراسا على هذه الثروة ، وهكذا جاءوا بالغنائم وكانت عظيمة جدا فكان بها كثير من الأوعية الذهبية والفضية الغالية الثمن ، والملابس المطرزة بالذهب وكثير من المجوهرات الثمينة ، فكان ما جمع هناك منظرا رائعا عتيا ولم يحدث قط — منذ بداية العالم — أن رأت العين أو غنم قوم مثل هذه الغنيمة الغالية العظيمة ، بل لم يحدث ذلك زمن الاسكندر أو شرلمان ولا قبلهما ولا بعدهما ، ولا أظن أنا شخصا ، أنه توفر فى أغنى مدن العالم الأربعين من الثروة ما توفر بالقسطنطينية وما عثروا عليه بها . إذ يقول اليونان أن ثلثى كنوز

(١) أنظر ترجمة الخطاب فى خاتمة هذا البحث ص ص ١١٢ - ١١٣ .

العالم موجودة في القسطنطينية . أما الثلث الباقي فموزع في بقية الدنيا ، حتى أن نفس الأشخاص الذين عهد إليهم بالحراسة أخذوا كل ما طمعوا فيه من الحلى الذهبية وامتدت يدهم بالسرقة إلى هذه الثروة وإلى كل ما وجدوه ، وأخذ كل رجل غنى ما طمع فيه من الحلى الذهبية أو الأقمشة الحريرية والمذهبة وسواها وانطلق به ، وبهذه الطريقة شرع الكبار في سرقة الغنائم حتى لم يبق شيء يتقاسمونه مع عامة الجيش من الحجاج أو الفرسان الفقراء أو العسكر الذين عاونوا في كسب هذه الغنائم .

أقول لم يبق شيء لمقاسمته مع هؤلاء سوى الفضة المحرقة كالأوعية الفضية التي اعتادت نساء المدينة حملها معهن إلى الحمامات .

أما الأسلاب الأخرى التي بقيت فقد اختفت بطرق شريرة كما أخبرتك لكن أخذ البنادقة - على أية حال - النصف المقرر لهم ، أما الأحجار الكريمة والثروة الكبيرة التي بقيت لتقسم فقد نهب بأساليب أخرى كما سأقص عليك فيما بعد» (١) .

أما شاهد العيان الآخر وهو جيوفري فيلهاردوين ، فقد قال أن الغنائم التي أخذها الصليبيون بعد فتحهم القسطنطينية كانت من الكثرة لدرجة يمكن معها القول أنه ليس لها نهاية ، من ذهب وفضة وأحجار كريمة وحرير وفراء ويشهد فيلهاردوين على أنه منذ الخليفة لم تؤخذ غنائم من مدينة قط مثلاً أخذ من القسطنطينية فشبغ من الصليبيين من كان جائعاً ، واغتنى منهم من كان فقيراً . (٢)

(1) Clari : La conquete de constantinople p p, 80 — 81.

(2) Villehardouin : op. cit., p. 65.

وهكذا لم يقع بصر الصليبيين على تحفة أو ثروة إلا نهبوا ولم يتركوا
أثرا فنيا أو أدبيا إلا افسدوه ودمروه . وقد بات الصليبيون وهم في فرح
وسرور وشكروا الله الذي منحهم النصر وهم حوالى ٢٠ ألف رجل ، على
٤٠٠ ألف رجل بيزنطى «والأكثر من ذلك على المدينة العظيمة الشديدة
التحصين» . (١)

أما الجانب الآخر المهزوم ، المغلوب على أمره ، وأعنى به البيزنطيين ،
فأنهم باتوا ينوحون ويرثون مدينتهم الحبيبة ، مثلما رثاها مؤرخهم المعاصر
نقيتاس خونيائيس بقوله (٢) :

*Ourbs, urbs, urbitum omnium ocule, Per orbem Terrarum celebris
mater, Princeps religionis, rectae sententiae dux, eruditionis alumna,
Omnis Pulchritudinis diversorium, itahe ex mahu domini calicem
Puroris bibisti. Itahe pars extitisti ignis multo Vehementioris eo quo
olim pentapolis divinitus conflagravit.*

«أيها المدينة ، المدينة ، يا خير المدائن ، يا حديث العالم ، يا منار
الأرض ، يا حامية الكنائس ، يا سيدة الايمان ، يا قلعة العلم ، يا ملاذ كل
الخير ، لقد تجرعت حتى الثمالة من كأس غضب الله ، ولقد حل بك اتون
ابشع من ذاك الذى انصب لظاه قديما على المدائن الخمس» .

وقد تمنى خونيائيس ، لو أن مدينتهم كانت قد وقعت في يد المسلمين
«الذين كانوا لطفاء ورحماء» حين فتحوا بيت المقدس ، ولم يفعلوا بها مثلما
فعله هؤلاء المخلوقات «الذين يحملون صليب المسيح على اكتافهم» (٣) .

(1) Villehardouin : op. cit., p. 65.

(2) Choniates : Historia, ed. Bonn, p. 763.

(3) Choniates : Historia, ed. Bonn, pp. 761 — 762.

بعد ان انتهت موجة النهب والسلب التي اجتاحت القسطنطينية كان على الجميع مهمة اختيار امبراطور لاتيى يحكم الامبراطورية البيزنطية ، وهنا عاد الفاتحون إلى الاتفاق السابق بينهم . فكونوا لجنة من اثني عشرة شخصا ، ستة من الصليبيين وستة من البنادقة لاختيار أحدهم ، وكانت المنافسة شديدة بين الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات ، وبين الكونت بلدوين اوف فلاندرز وهينولت .

وبلدوين هذا يعد واحدا من أكبر السادة الاقطاعيين الفرنسيين ، ولد في عام ١١٧٢ ، ووالده هو بلدوين الخامس كونت هينولت ، الذي تزوج في عام ١١٦٩ من مارجريت شقيقة فيليب الالزاسي كونت فلاندرز . وقد توفي فيليب في مدينة عكا عام ١١٩١ دون أن ينجب وريثا ، قال أقليم الفلاندرز إلى شقيقته مارجريت ، التي توفيت هي الأخرى في ١١٩٤ ، وبذلك ورث ابنها بلدوين أقليم فلا ندرز . وحين توفي والده بلدوين الخامس في ديسمبر ١١٩٥ آل إليه أقليم هينولت أيضا ، وبذلك جمع بلدوين الابن بين حكم أقليمي الفلاندرز وهينولت . وكان الكونت التاسع على الأقليم الأول ، والكونت السادس على الأقليم الثاني .

وقد ساهم بلدوين بنصيب كبير في الصراع الذي اشتعل في الغرب الأوروبي بين ملوك فرنسا وإنجلترا وألمانيا حتى اشتراكه في الحملة الصليبية الرابعة (١) .

وهكذا اشتعلت المنافسة على منصب (الامبراطور) بين كل من بونيفيس اوف مونتفرات ، وبلدوين اوف فلاندرز وهينولت ، وكان الأول يتفوق

(1) Wolf : Studies in The Latin Empire of Constantinople,
Lanbon 7691 Book IV, pp. 281 — 288.

على الثاني بما له من قوة الشخصية وقيادة الجيش الصليبي وصلات عائلته ببيزنطة .

ومن ثم فقد أخذ بونيفيس يهيء نفسه لهذا المنصب ، فاستولى على القصر الامبراطوري الكبير Boukoleon وتزوج من مارجريت (ماريا) الهنغارية أرملة الامبراطور السابق اسحاق انجيلوس ، وقد اعتبره البيزنطيون حاكمهم الجديد وحين كانوا يقابلون اللاتين في الطريق كانوا يصيحون الماركيز هو الامبراطور المقدس Aios Phasileos Marchio لكن بونيفيس أدرك أنه لن يستطيع السيطرة على لجنة الانتخاب لأن ثلاثة فقط من الصليبيين الستة كانوا يؤيدونه ، في حين أن الثلاثة الآخرين مضافا اليهم الستة من البنادقة كانوا يؤيدون منافسه بلدوين . فقد كان الدوق داندولو نخشى من قوة شخصية بونيفيس وكان يفضل ان يكون الامبراطور الجديد أضعف شخصية وأقل أهمية حتى يسهل السيطرة عليه ، أضف لذلك أن بونيفيس كان حائفا قديما لجنوا ، وهذا وحده سببا كافيا لكي يعمل الدوق بكل قواه ونفوذه على ابعاد بونيفيس عن هذا المنصب .

وفي منتصف ليلة ٩ مايو ١٢٠٤ أعلن نيفلون اسقف سواسون الذي كان عضوا في لجنة الانتخاب ، اختيار بلدوين كونت فلاندرز وهينولت امبراطورا وفي ١٦ مايو تم تتويجه في احتفال مهيب في كنيسة آيا صوفيا واتخذ لقب :

(١) porphyrogenitus, Semper Augustus

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 67 — 68; Clari : op. cit., pp. 93 — 94

Wolf (R) : Studies in The Latin Empire of Constantinople, pp. 188 — 190.

أما بالنسبة لمنصب بطريرك كنيسة القسطنطينية ، فقد كان أحد الشروط الهامة للطرفين في اتفاقهم قبل اسقاط العاصمة البيزنطية ينص على التالي :-
«الجانب الذي لم يختار منه الامبراطور . يكون لديه السلطة لكي ينصب رجل دين على كنيسة آيا صوفيا ، ويختار كبطريرك من أجل خدمة الرب ، والكنيسة الرومانية المقدسة للامبراطورية» (١) .

وبعد اختيار لجنة الانتخاب لبلدوين اوف فلاندرز من الجانب الصليبي كامبراطور ، أصبح اختيار بطريرك كنيسة القسطنطينية من نصيب البنادقة . فأجتمع رجال الدين منهم في كنيسة آيا صوفيا ، واختاروا توماس موريوسني لهذا المنصب . Thomas Mauroceni

وكان توماس ينتمي إلى عائلة نبيلة هي عائلة موريوسني التي يرجع أصلها إلى مانتوا Mantua ولم يكن موجودا بالقسطنطينية وقت انتخابه . والوصف الوحيد الذي جاء عن توماس كان لقب تاس خونيائيس المؤرخ البيزنطي الذي رآه بالقسطنطينية في نهاية صيف عام ١٢٠٥ م . والذي يعكس لنا وجهة نظر البيزنطيين في أول رجل كاثوليكي يتولى رئاسة كنيستهم الارثوذكسية .

Nicol : The Fourth Crusade and The Greek and Latin Empires, 1204—1261, n C.M.H. ed. Hussey, Cambridge, 1975, Vol. IV, part. 1, p. 286.

Gibbon : The Decline and Fall of The Roman Empire, Vol. 6, p. 179.
Walter : La Ruin de Byzance, pp. 150 — 151.

(I) Wolf : Studies in the Latin Empire of Constantiople, Book IX, p. 227.

قال نقيتاس : ان توماس كان في منتصف العمر ، سميئا (. متديرا مثل الكرة ، ضخما مثل خنزير معلوف) ، أجرد ، يضع خاتما في أصبعه ، وفي بعض الأحيان يرتدى قفازا من الجلد في كفيه . أما لباسه فهو ضيقا للغاية ، حتى يبدو وكأنه محاكا على جسده مباشرة ، ومن الصدر يميل هذا اللباس إلى السعة (١) .

وقد ظل البابا اينوسنت الثالث لعدة شهور ، وهو لا يعلم بأمر اختيار توماس موريوسني بطريركا للقسطنطينية . وفي ٢١ يناير ١٢٠٥ ، علم البابا بذلك ، وأعلن اعتراضه على هذا الاختيار ، ولم يكن اعتراض البابا على شخص موريوسني نفسه ، فهو على حد قوله : «نعلم نحن وأخواننا ان الشخص الذي اختير ، نبيل المولد ، شريف ، فطن ، ومثقفا بالقدر الكاف» . ولكن اعتراض البابا كان على الطريقة التي تم بها انتخابه ، لأن اختيار بطريرك القسطنطينية من صميم اختصاص البابا أو نائبه ، لذلك فقد شعر البابا اينوسنت الثالث (بالألم) لأن انتخاب موريوسني تم في مجمع عام (٢) .

على أن البابا لم يلبث أن وافق على هذا الاختيار ، وفي ٥ مارس ١٢٠٥ تم ترقية البابا لتوماس من شماس مساعد إلى شماس ، وفي ٢٦ مارس عينه قسا وفي ٢٧ مارس جعله اسقفا ، وفي ٣٠ مارس أنعم عليه البابا بالعباءة Pallium الخاصة بمنصب رئيس الاساقفة ، مع التوصية بارتدائها في احتفال مقدس ،

(1) Choniates : Historia, ed. Bonn, pp. 854 — 855.

(2) Wolf : Studies in the Letin Empire of Constantiople, Blook IX, P. 228.

Walter : La Ruine de Byzance, p. 154.

Runciman : The Byzantine Theocuacy, Cambridge University Press, 1977 pp. 138 — 139.

كما أنعم عليه بعدة امتيازات منها ، منحة الحق في أن يحمل الصليب أمامه حيثما ذهب ، فيما عدا روما أو أية مدينة أخرى يكون بها نائب بابوى (١) .

وحسب الاتفاق السابق بين الطرفين ، كان نصيب الامبراطور بلدوين ، ربع الاراضى التى تم الاستيلاء عليها ، فمنح حكم القسطنطينية ذاتها ما عدا حى البنادقة ، ومعظم تراقيا بما فيه ادرنة ، والجزر الواقعة فى الجنوب الشرقى من بحر ايجة ، وهى جزر ساموتريس و كوس و لسبوس و ساموس ، و خيوس . وكان نصيب بونيفيس اوف موننترات حكم بعض الاراضى فى آسيا الصغرى ، لكنه رفض وطلب منحة مملكة سالونيك التى كان يحكمها شقيقه من قبل ، وحتى تكون مملكته متاخمة لأملاك ملك هنغاريا شقيق زوجته الجديدة مارجريت .

ولما رفض الامبراطور بلدوين طلبه دخل الاثنان فى صراع ، وانتهى الأمر بتأييد دوق البندقية لبونيفيس وموافقته على منحه سالونيك ، مقابل قبول الماركيز بيع جزيرة كريت للبنادقة بدلا من الجنوية الذين كانوا قد طلبوا شرائها منه (٢) .

وبذلك نجح بونيفيس اوف موننترات فى تأسيس مملكة خاصة به تضم مقاطعة سالونيك وبعض الاراضى المجاورة لها مثل مقدونيا و تساليا (٣) .

(1) Wolf : op. cit., Book IX, pp. 230 — 231.

Walter : op. cit., p. 155.

والجدير بالذكر أن مورسنى لم يستمر طويلا فى منصبه إذ توفى فى عام ١٢١١ ،
أنظر :

Nicol : op. cit., p. 303.

(2) Wolf : op. cit., Book 1, p. 195.

(3) Villehardouin : op. cit., p. 69.

Wolf : op. cit., p. 190.

أما البندقية فقد فازت بنصيب الأسد من تلك الغنيمة ، إذ أخذ البنادقة حيا كبيرا في القسطنطينية يباشرون فيه نشاطهم التجاري ، واستولوا كذلك على معظم الجزر القريبة من الشاطئ بما فيها جزيرة ايوبيا ، هذا زيادة على بعض المراكز الساحلية في شبه جزيرة المورة ، ورقعة واسعة من الأرض شمال خليج كورنثة ، كذلك ضم البنادقة إلى هذه الممتلكات جزيرة كريت التي اشتروها من بونيفيس اوف مونتفرات . وقد كانت مجموعة الغنائم التي حصل عليها البنادقة من الضخامة لدرجة اتاحت لدوق البندقية ان يطلق على نفسه لقب «حاكم ربع ونصف أراضي الامبراطورية البيزنطية» .

وهكذا توسعت البندقية ، وأصبحت ممتلكاتها في غرب وشرق أوروبا معا ، كما أصبح لها السيطرة كذلك على الطريق البحري الممتد من البندقية حتى القسطنطينية ، وكان لها حق الاشراف على المضائق والممرات البحرية المؤدية للعاصمة ، فضلا عن الحى الخاص بها في القسطنطينية وحق الاشراف على كنيسة آيا صوفيا (١) . . .

على أن الحال لم يكن كذلك بالنسبة للصليبيين إذ أن نصيبهم من الغنيمة البيزنطية ، قد وزع بين عدد كبير من أمراءهم الذين أقاموا امارات خاصة صغيرة . وهكذا استأثر كبار رجال الحملة الصليبية بالغنيمة وحدهم مما ترك صغار الصليبيين في حالة شديدة من الحق وخيبة الأمل .

(١) Wolf : op. cit., pp. 190 — 192.

Nicol : op. cit., 287 — 189.

Ostrogorsky : op. ciy., pp. 423 — 424.

هذا ، ولم ينعم دوق البندقية داندولو بهذا كله لمدة طويلة فلم يلبث أن مرض وتوفي في مايو عام ١٢٠٥ ودفن في احتفال مهيب في كنيسة آيا صوفيا ، أنظر :

Villehardouin : op. cit., p. 102.

Wolf : op. cit., Book 1p. 203.

هذا بالإضافة إلى روح العداء التي استحكمت بين مختلف العناصر ،
والجنسيات التي تألفت منها الحملة ، كما ظهر ذلك في المنازعات بين الألمان
والبرجنديين ، وبين اللمبارديين والفلمنكيين ، وبين جميع هؤلاء والبنادقة .
أما فيما يتعلق بالعلاقات بين اللاتين والبيزنطيين ، فقد ظل التباعد سائدا
بين الطرفين ، فقد كان الغزاه الغربيين على درجة من الجمود والكبرياء بحيث
أنهم لم يحاولوا تفهم الحضارة البيزنطية على حقيقتها ، في حين احتقر البيزنطيون
هؤلاء (البرابرة) الغربيين الاجلاف (١) .

وهكذا تطور الصراع الداخلي بين البيزنطيين من أجل الاستحواذ على
العرش ، وانتهى بهذه المأساة التي حلت بعاصمتهم على يد اللاتين .

(1) Ostrogorsky : History of the Byzantine State, p. 379.

الخاتمة

بعد هذا العرض لأحداث الحملة الصليبية الرابعة يمكن القول أنها تعتبر نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية ولعل المؤرخ الفرنسي رينيه جروسيه لم يخالف الصواب حين قال «ان الحملة الصليبية الرابعة جاءت نذيرا بفشل الحركة الصليبية بأكملها» (١) .

فقد كان المفروض أن تدعم هذه الحملة مركز الصليبيين بالشام وتعينهم على مقاومة الضغط الاسلامي الواقع عليهم ، لكن الذي حدث هو أنها أدت إلى اضعاف مركزهم بطريق مباشر أو غير مباشر . ذلك لأن قيام مملكة لاتينية صليبية بالقسطنطينية وبلاد البلقان ، عمل على جذب أعداد كبيرة من الفرسان الصليبيين بالشام الذين فكروا في التسلل سرا وعلانية اليها لينعموا بقسط من الحياة الهادئة بعيدا عن تهديد المسلمين ومتاعبهم . وكذلك الحال بالنسبة للفرسان الغربيين الذين لجأوا هم الآخرون إلى القسطنطينية ، بدلا من التوجه إلى الصليبيين بالشام ومساعدتهم ضد المسلمين (٢) .

كما أدى فرار العائلات الأرستقراطية البيزنطية وتأسيسها لممالك في ابروس ونيقيه و طرابزون والعداء الذي اشتعل بينها وبين المملكة اللاتينية في القسطنطينية ، أدى كل ذلك إلى أن أصبح الطريق البري إلى الشام أصعب منالا وأشد خطورة على الصليبيين عن ذي قبل .

وقد اثبتت هذه الحملة أن العامل الاقتصادي والمصالح المادية أصبحت

(1) Grousset (R) : Histoire des Cro sades et du Royaume Franc de Jerusalem Paris 1946, Tome III, p. 175.

(2) K ng (E.J.) : The knights Hosptallers in The Holy Land, don, 1931, p. 176.

يحتلان المكان الأول في تفكير المعاصرين ، فاذا سلمنا بأن الصليبيين كانت لديهم دوافع متعددة ضد الدولة البيزنطية ، فما هي دوافعهم ضد مدينة زارا المسيحية التي هاجموها واستباحوها قبل هجومهم على القسطنطينية ، اللهم الا دافع الجشع والمصالح المادية البحتة .

والآن علينا أن نحدد مسئولية كل طرف من الاطراف التي اشتركت في هذه الحملة ، بعد أن اتضح دور كل منهم خلال عرضنا السابق للاحداث .

فيما يتعلق بالبابا اينوسنت الثالث ، فقد اتضح موقفه خلال العرض ، وكيف أنه لم يلبي التماس الأمير البيزنطي اليكسيوس انجيلوس الخاص بتأييد البابا له ضد عمه الذي اغتصب العرش ، كما أنه لم يكن له أى دور كذلك في توجيه الحملة ضد القسطنطينية ، وحين علم بنية الصليبيين على التوجه ضدها ، حذرهم صراحة وبجزم من الاقدام على هذا العمل ، وهددهم بتوقيع قرار الحرمان عليهم من جديد . إذا هم لم يمثلوا لأوامره الخاصة بعدم مهاجمة اليونان ، وأصر على ضرورة توجه الحملة لمصر مباشرة. وإذا كان الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات قد استغل نفوذه ومنصبه كقائد للحملة في عدم ابلاغ الصليبيين بأوامر البابا كاملة ، فهذه ليست مسئولية البابا .

وأكثر من ذلك ، فحين وصلته انباء الفظائع التي ارتكبتها الصليبيون ضد البيزنطيين ، حزن أشد الحزن ، وأرسل رسالة إلى الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات يؤنبهم على فعلتهم هذه . فقال :

« بما أنكم في طاعة المسيح ، وأنتم على أنفسكم العهد لتحرير الأرض المقدسة من سلطة المسلمين ، وبما أنكم منعم تحت ضغط عقوبة الحرمان ، من مهاجمة أى أرض مسيحية أو الحاق الدمار بها ، إلا إذا أهاليها عرقلوا مروركم

أو رفضوا امدادكم بما هو ضرورى (وفى هذه الحالة لا تفعلوا شيئا بخلاف ما يشير عليكم به المندوب البابوى) . وبما أنكم لا تملكون الحق ، ولا ادعاء الحق تجاه اليونان ، فأنكم حدثم عن طهر عهدكم ، عندما زحفتم على المسيحيين بدلا من المسلمين ، واستوليتم على القسطنطينية بدلا من أورشليم ، وفضلتم كنوز الدنيا ، على كنوز الآخرة ، وما هو أكثر من ذلك كله ، أنكم لم تبجلوا الدين ، ولم تراعوا العسر أو الجنس .

لقد أصبحتم أمام العالم كله ، أهلا للبغاء والزنا والفسوق لقد اشبعتم غرائزكم الآثمة ، ليس فقط بالزواج من النساء أو الأراامل ، ولكن بأغتصاب الزوجات والعذارى اللاتي وهبن أنفسهن للمسيح . لم تفرحوا بالخزائن الامبراطورية ، وبضائع الاغنياء والفقراء ولكنكم استوليتم على ثروة الكنيسة وكل ما يخصها ، لقد نهبتم المناضد القضية للمذابح ، وحطمتم غرف المقدسات وسرقتم الصلبان والايقونات والآثار المقدسة .

ولأن الكنيسة اليونانية أخضعت بالقوة ، فأثما رفضت سيادة الكرسي البابوى ، لأنها لا ترى فى اللاتين ، الا الخيانة والشر فقط ، لذلك فهى تعافهم كما تعاف الكلاب (١)

ولا يمكن أن يكون البابا هو الذى حرض الصليبيين على مهاجمة القسطنطينية ، أو كان له أى دور فى توجيههم هذه الوجهة ، ثم يوبخهم كل هذا التوبيخ ويحملهم مسئولية الانحراف بالحملة على هذا النحو .

وفىما يتعلق بدور الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات ، فالواضح أنه كان

(1) Innocentii III :Epistolae, VIII, P. 133.

ينفذ أوامر (خاله) الملك الألماني فيليب السواري ، الخاصه بمساعدة الأمير اليكسيوس انجيلوس على استرداد العرش البيزنطي ، وبذل الحماية والنصح والارشاد لهذا الأمير مؤملا أن ينجح في تأسيس اماره له بالشرق مثلما فعل أشقائه من قبل . وقد وعده اليكسيوس بتحقيق هذه الرغبة ومنحه جزيرة كريت مكافأة له على جهوده (١) .

أما عن البنادقة وتعهدهم تغيير اتجاه الحملة ضد العاصمة البيزنطية . فالملاحظ أنه لا يوجد نص صريح يدين البنادقة ويؤكد عزمهم على توجيه الحملة ضد القسطنطينية ، بل أن فيلهاردوين. يوضح أن انريكو داندولو لم يكن له أي دور في حث الصليبيين على الموافقة على دعوة الأمير اليكسيوس انجيلوس لتوجيه الحملة ضد القسطنطينية وأن الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات وباقي البارونات قد اتخذوا قرارهم بالموافقة أولا ثم أخبروا به الدوق (٢) .

وحتى المعاهدة التي قيل بأنها تمت بين البنادقة والملك العادل الأيوبي فقد نص بها على تغيير اتجاه الحملة وابعادها عن مصر فقط ، ولا يستلزم ذلك بالضرورة أن تحول ضد القسطنطينية بالذات .

يضاف لذلك أن المؤرخ الفرنسي هانوتوكس Hanotaux في بحثه الذي نشر في المحلة التاريخية تحت عنوان «هل خان البنادقة العالم المسيحي في عام ١٢٠٢ م» ، قد طعن في هذه المعاهدة ، واعتمد هانوتوكس في ذلك على نصوص أوردها المؤرخ المسلم أبو الفدا في حوادث سنوات ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠ هـ ، ومنها يتضح أن السلطان الملك العادل الأيوبي لم يكن موجود

(1) Wolf : Studies in the Letin Empire of Constantiople, p. 196

(2) Villehardouin : op. cit., p. 24.

بالقاهرة في الوقت الذي حدده ، المؤرخ الالماني هوبف لعقد الاتفاقية مع البنادقة وهو ١٣ مايو ١٢٠٢ م ، وأثبت أن العادل كان موجودا آنذاك في دمشق بالشام حتى سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ - ١٠٤ م) .

وخرج هانوتوكس من بحثه هذا بأن تاريخ هذه المعاهدة ليس ١٣ مايو ١٢٠٢ م كما ذكر هوبف ، ولكنها أبرمت في ٩ من مارس ١٢٠٨ م ، أى بعد التاريخ الذي حدده هوبف بست سنوات (١) .

وبذلك أصبحت المعاهدة التي ذكرها هوبف وبني عليها هو وعدد من المؤرخين آراءهم الخاصة بخيانة البنادقة للصليبيين وتعمدهم تغيير اتجاه الحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطينية موضع شك .

أما فيما يتعلق بالآراء التي حملت فيليب السوابي ملك المانيا المسئولية في اتجاه الحملة ضد القسطنطينية ، فالؤكد أن فيليب السوابي كان بعيدا عن التدخل في شئون الحملة ، حتى ظهور موضوع الأمير البيزنطي اليكسيوس انجيلوس على مسرح الاحداث ، وذلك لأنشغال الملك الالماني بالصراع الداخلي الذي اشتعل في المانيا بينه وبين منافسه على العرش أتو الرابع اوف برنسويك . وحتى فكرة الاستعانة بالحملة الصليبية الرابعة في استرداد العرش البيزنطي لم تأت من جانب فيليب السوابي ، وإنما جاءت من جانب الأمير البيزنطي اليكسيوس انجيلوس ، الذي راسل الصليبيين وعرض عليهم مشروع مساعدته قبل أن يصل إلى المانيا ويقابل الملك فيليب (٢) .

(1) Hanotaux (g) : Les Venitiens ont-ils Trahi la chrestiente en 1202 ? Dans La Revue Historique, Vol. IV, 1877, PP. 87 — 101.

(2) Villehardouin : op. cit., p. 18.

ورغم هذا كله أقول ، وحتى لو سلمنا بنظرية (التعمد) ، وأن انحراف الحملة الصليبية الرابعة تم بناء على اتفاقات ومؤامرات تمت بين البنادقة والصليبيين ، فانه كان من المحتمل أن يفشل حصار البنادقة والصليبيين للقسطنطينية مثلما فشلت حصارات أخرى سابقة على امتداد التاريخ الطويل لهذه المدينة .

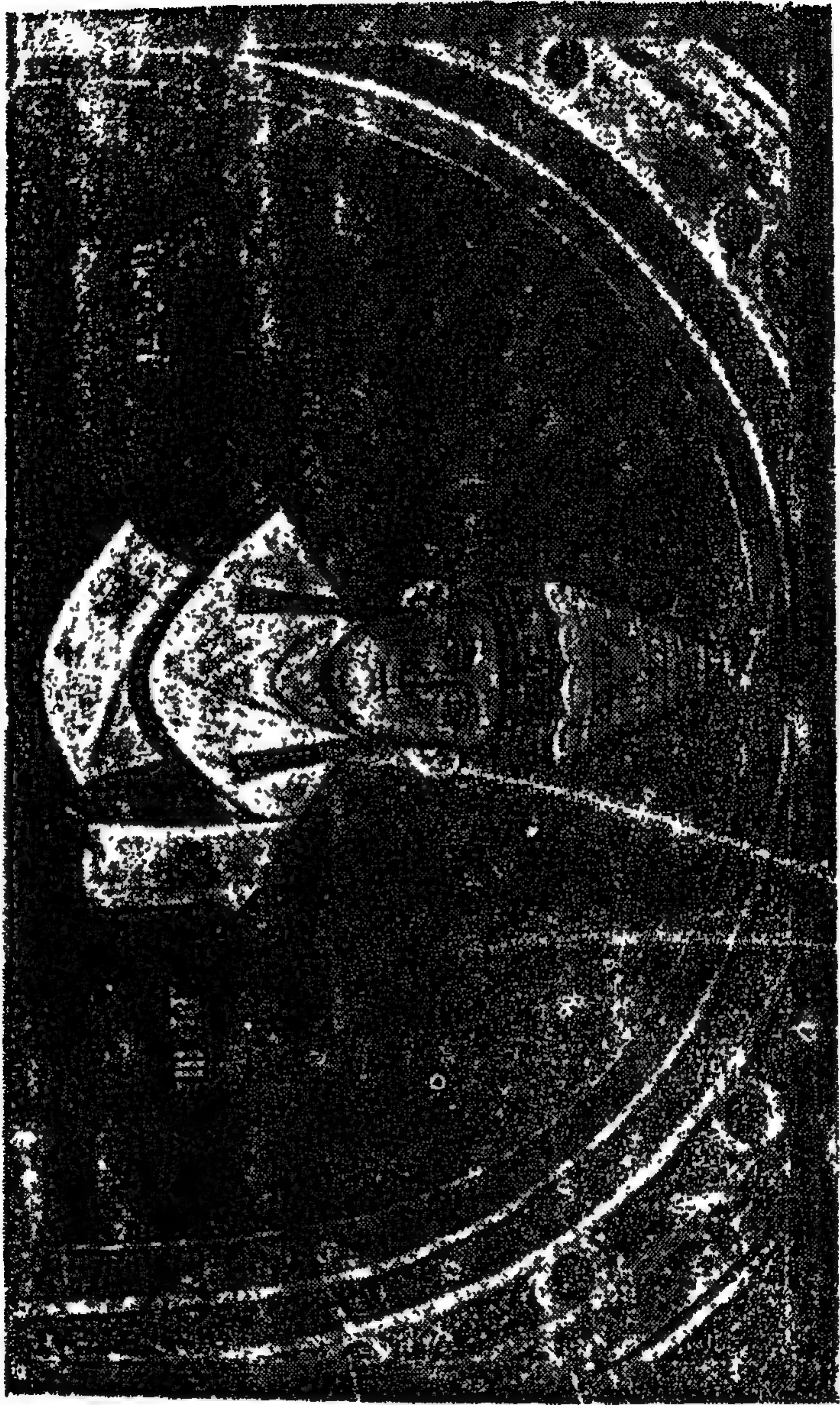
فالمعروف أن العاصمة البيزنطية قد تعرضت لحصار المسلمين وخاصة أيام الأمويين ، وكذلك لحصارات أخرى من جانب البلغار أو من جانب الروس ، ولكنها تمكنت من مقاومة هذه الحصارات كلها بفضل تماسكها داخليا من جهة وبفضل موقعها الاستراتيجي الممتاز من جهة أخرى، وكان لا بد لكي ينجح حصار هذه المدينة أن يكون العدو المحاصر لها متفوقا في الناحيتين البرية والبحرية ، حتى يحكم حصارها من ناحية البر وناحية البحر على حد سواء . وهذا ما لم يتوفر لأعدائها في هذه الفترة التاريخية ، ولم يتوفر كذلك لصليبي الحملة الرابعة . إذ الثابت أن حصارهم للقسطنطينية كان بحريا فقط ، وهكذا كان من المحتمل أن يفشل هذا الحصار إذا تهيأ للدولة الاستقرار الداخلي ووسائل الدفاع العسكري اليقظ .

وفي ضوء هذه الحقائق التاريخية ، لا نكون بعيدين عن الصواب اذا نحن ارجعنا مسؤولية الانحراف بالحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطينية إلى البيزنطيين أنفسهم ، واضطراب أحوالهم الداخلية فمن تدهور في قواتهم العسكرية، إلى انحلال الجهاز الإداري في الدولة ، إلى الصراع الداخلي من أجل الاستحواذ على العرش وقد كانت خطورة هذا الصراع تكمن في استعانة البيزنطيين أثناءه

بالقوى الخارجية ، حيث فر الأمير اليكسيوس انجيلوس إلى الغرب الأوروبي
وبذل الوعود المغرية للصليبيين من أجل مساعدتهم له في إسترداد العرش
البيزنطى ، .

وهكذا فمع تسليمى التام بكل ما ذكره المؤرخون خاصة بدوافع البابا
والبنادقة ، وفيليب السوابى ، والصليبيين عامة ، وأطاع كل هؤلاء فى الدولة
البيزنطية ، الا أن الاحداث الداخلية التى مر بها البيزنطيون ، ثم إلتجأهم للغرب
الأوروبى والإستعانة به على حل مشاكلهم هى التى فجرت هذه الدوافع كلها
وجعلتها تعبر عن نفسها تعبيرا عمليا واسع النطاق .

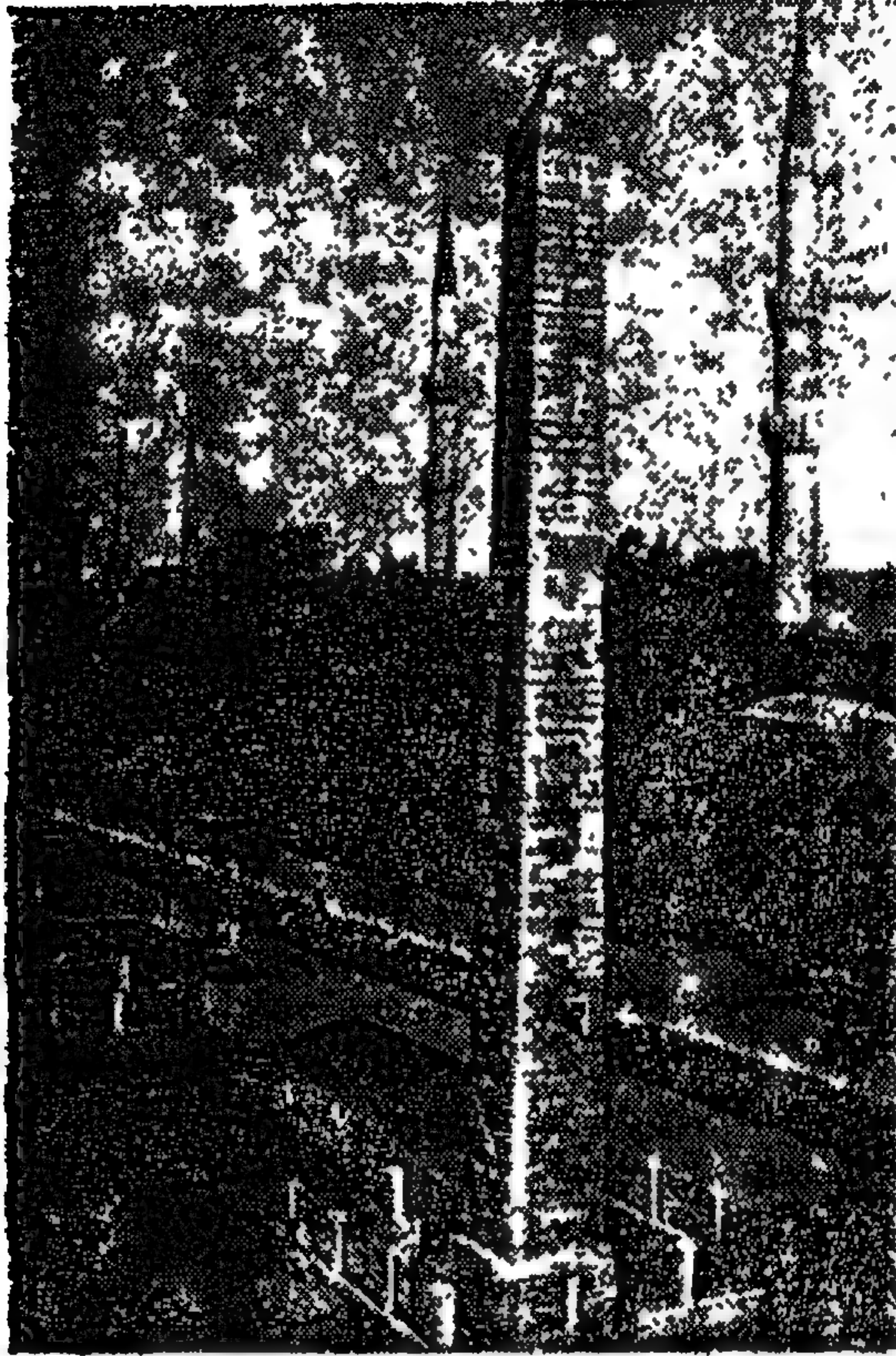
المسور



الصورة رقم (١)
البابا اينوسنت الثالث



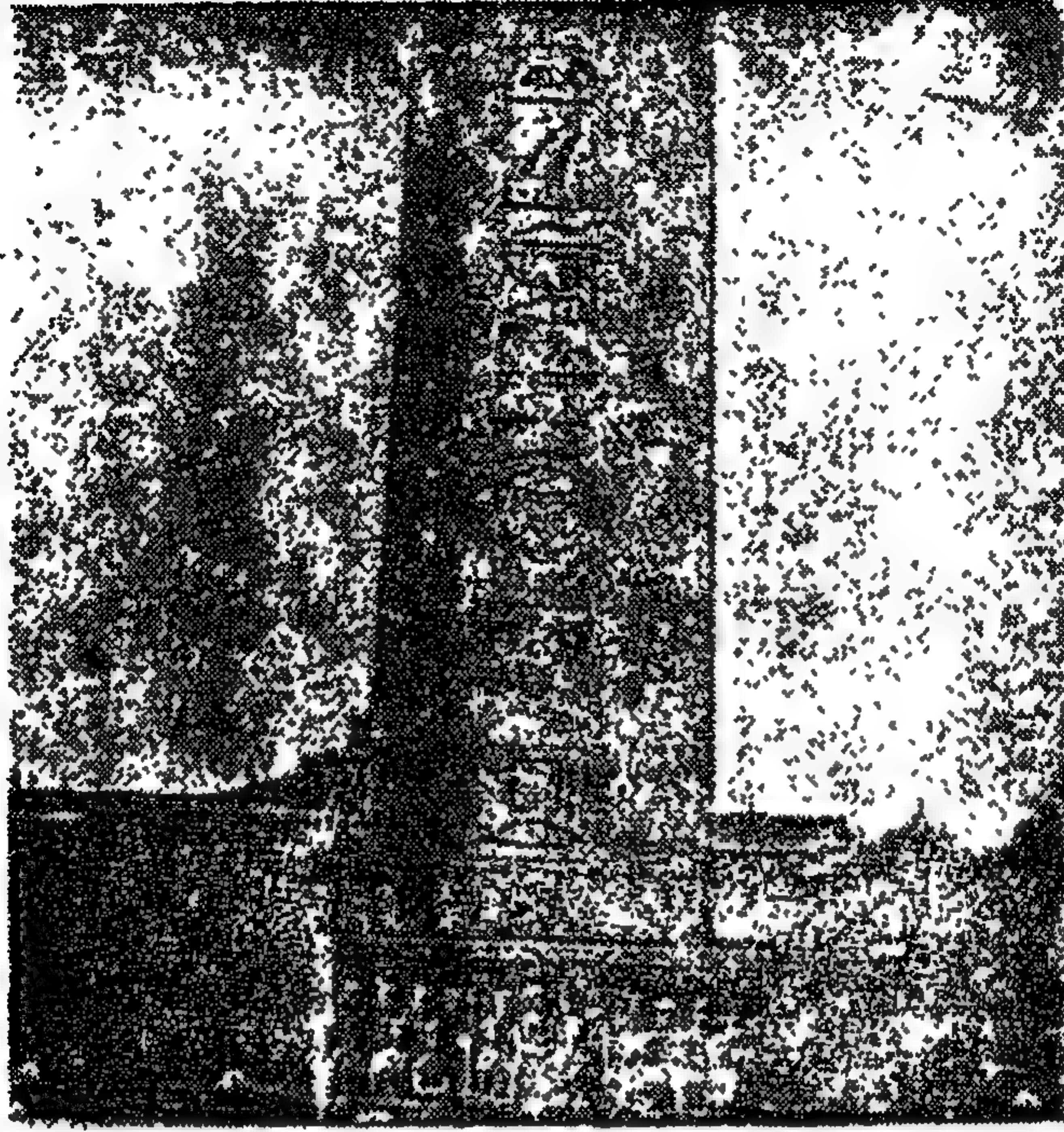
الصورة رقم (٢)
تمثال للامبراطور هرقل



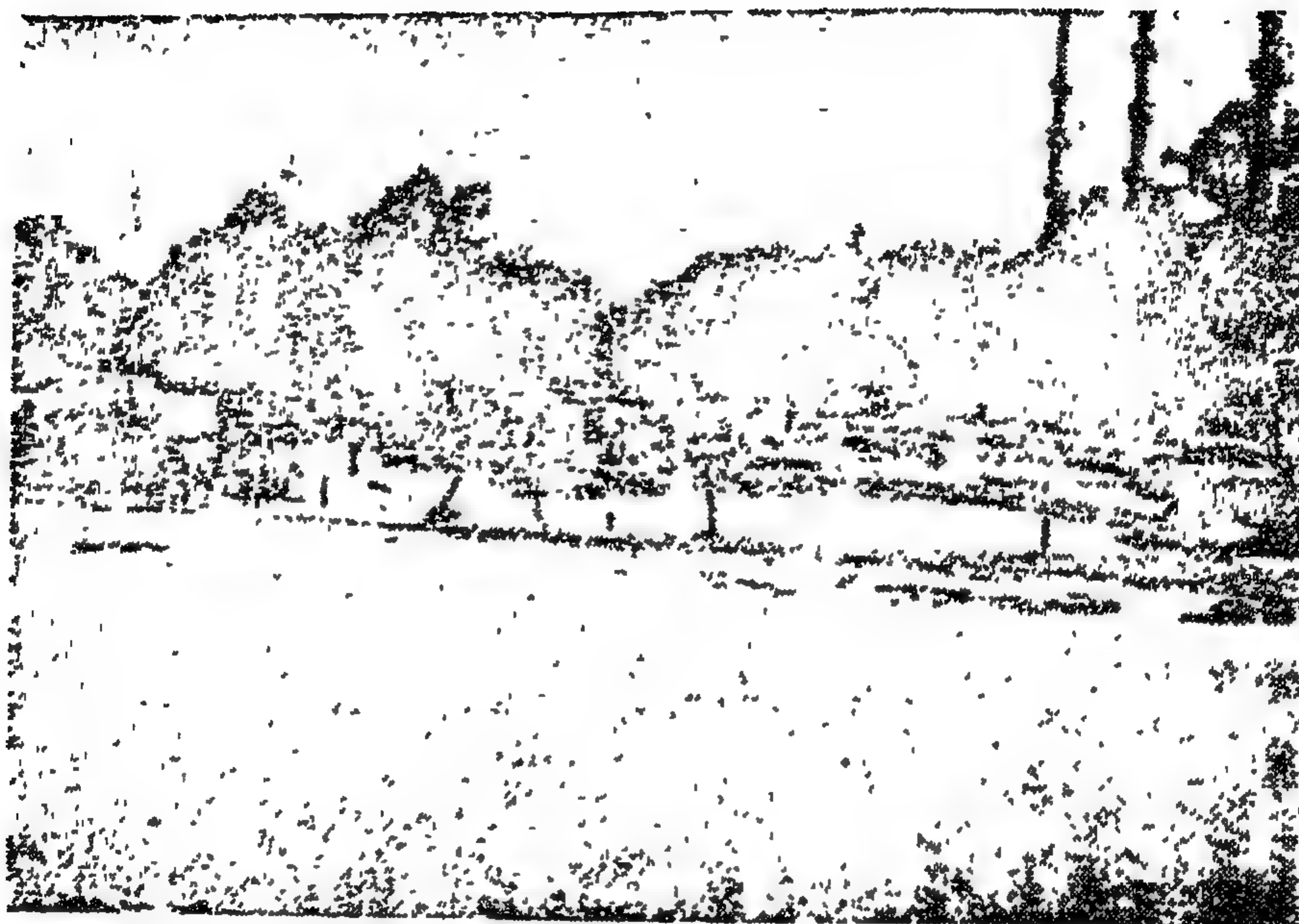
عمود الامبراطور قسطنطين
مجموعة الصور رقم (٣)
بقايا آثار الهيدروم



المسلة الفرعونية
مجموعة الصور رقم (٣)
بقايا آثار الهيدروم

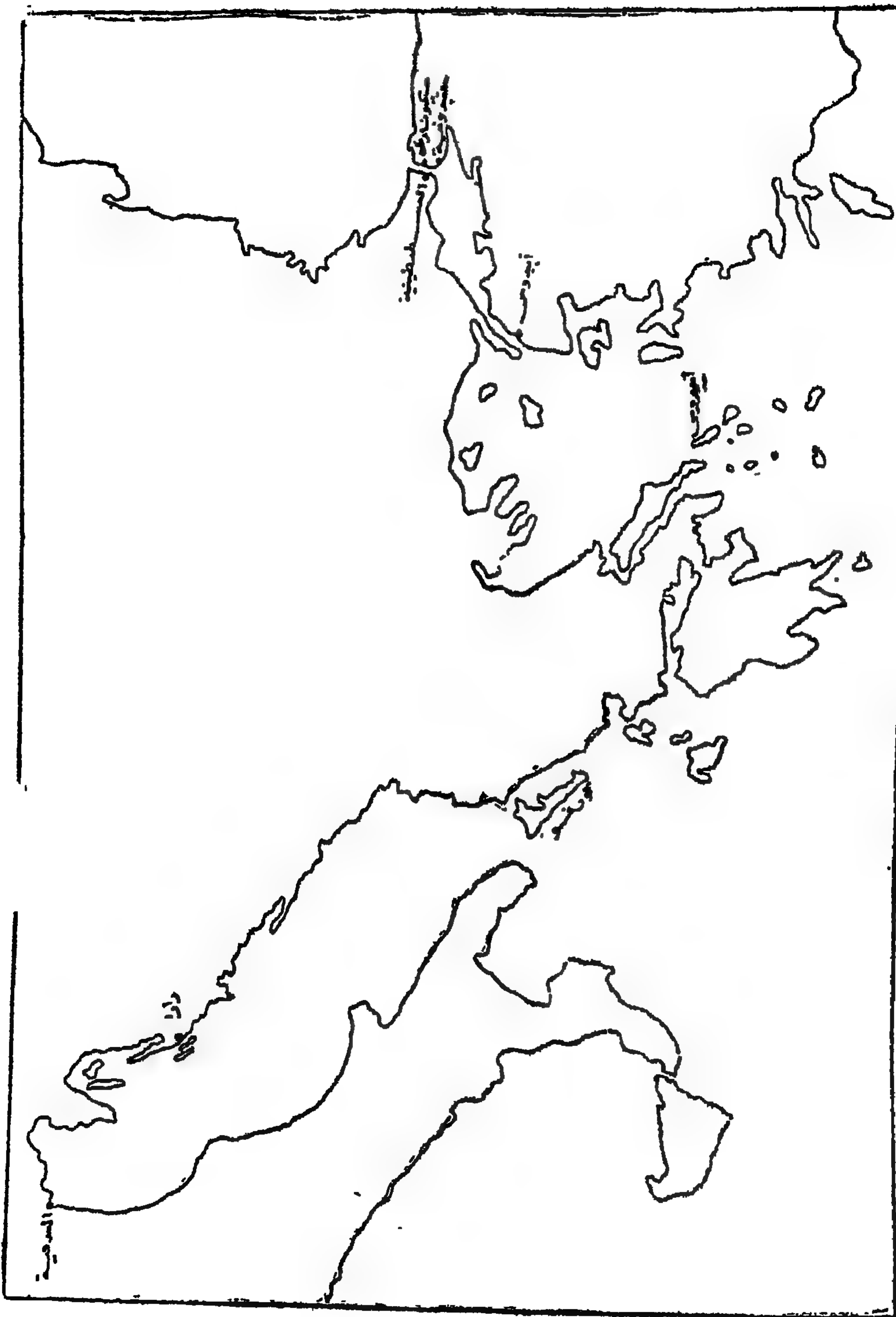


صورة عن قرب للمسلة الفرعونية
مجموعة الصور رقم (٣)
بقايا آثار للهيكل

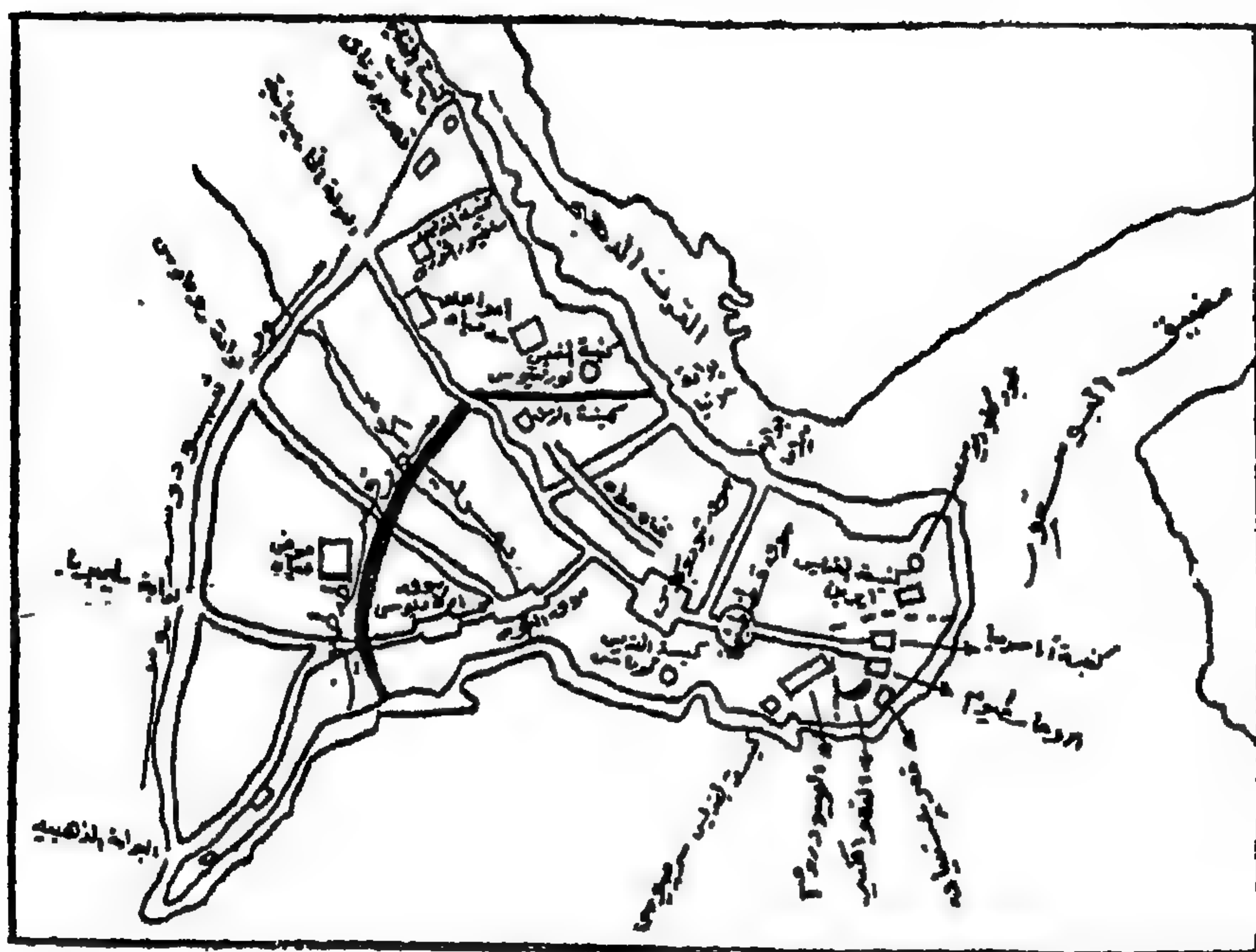


مجموعة الصور رقم (٣)
بقايا آثار الهيدروم

الخسائر



خريطة رقم (١) خط سير الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤



خريطة رقم (٢)
مدينة القسطنطينية وأهم معالمها
عند فتح الصليبيين لها في ١٤٠٢

المراجع العربية

- أسد رستم : الروم في سياستهم وحضارتهم وديانتهم وثقافتهم الجزء الثاني ، الطبعة الأولى ، دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٥٦ .
- السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية (٣٢٣ - ١٠٨١) : القاهرة ، ١٩٦٠ .
- سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، جزءان الأول ، بيروت ، ١٩٧٢ ، الثاني ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
- عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبي (الأمبراطور يوحنا تزييسكس ، وسياسته الشرقية - ٩٦٩ - ٩٧٦) الاسكندرية . ١٩٦٦ .

المراجع المعربة

- بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة حسين مؤنس ومحمود زايد ، القاهرة ، ١٩٥٠ .
- فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، والسيد الباز العرينى ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف بمصر .
- لويس : القوى البحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

المراجع غير العربية

- Barrachough (g) : The Medieval papacy, London, 1975.
- Brehier (L) : Vie et mort de Byzance, ed. Albin Michel, Paris, 1969.
- : La Civilisation Byzantine, ed. Albin Michel, Paris, 1970.
- : L'Institutions de l'Empire Byzantine, ed. Albin Michel, Paris, 1970.
- Choniates (N) : Historia, ed Bekker, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, Bonn, 1835.
- Clari (R) : La conquête de Constantinople, Editée par lauer, Paris, 1924.
- Diel(Ch) : Une République Patricienne, Venise, (Bibliothèque de Philosophie Scientifique), 1928.
- Fooed : The Byzantine Empire, London, 1911.
- Gibbon(E) : The decline and Fall of The Roman Empire, Vol. 6, New York, 1976.
- Grousset(R) : Histoire des croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, Paris, 1956.
- Guillon(A) : La civilisation byzantine, Arthand, Paris, 1974.
- Hanotaux(g) : Les vénitiens ont-ils trahi la chrétienté en 1202 ? Dans la Revue Historique, Vol. IV, 1877.

- Hopf : Geschichte griechenlandz von Beginn des Mittelalters bis unsere zeit, in Ersch-gruber Encyclopedia, vols. 85—86, , 1867 — 1868
- Hussey(J) : The later Macedonians, The Comneni and the Angeli, 1025 — 1204, inc M.H., Vol. IV, part 1, ed. Hussey, Cambridge, 1975.
- Innocentii III : Epistolae, in Patrologia Latian, ed Paris, 1855.
- Jacob (E) : Innocent III, in C. M. H. Vol. VI, ed. Hussey, London, 1975.
- King(E) : The Knights Hospitallers in The Holy Land, London, 1931.
- Kinnamos (J) : Deeds of John and Manuel Comnenus. Translated to English by Charles M. Brand, Columbia University Press, New York, 1976.
- Labise : Histoire de France, Paris, 1911.
- Luchaire (A) : Innocent III, La question d'orient, Paris, Hachette, 1907.
- Mas-Latrie (L) : Histoire de l'île de Chypre sous les princes de la maison de Lusignan, 3 vols, Paris, Imprimerie Imperiale, 1852 — 1861.

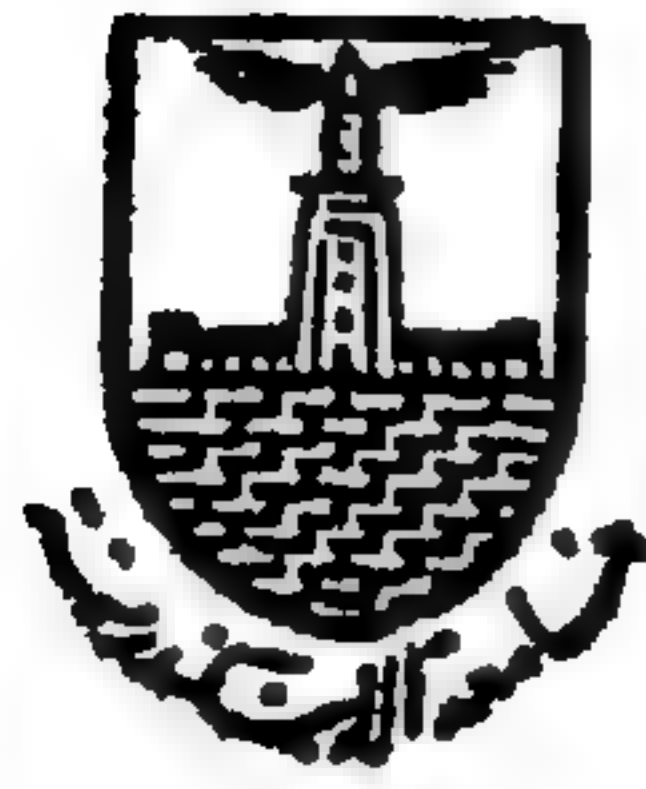
- Miller : Imperial Constantiople, U. S. A. 1969.
- Nicol : The Fourth Crusade and The greek and Latin Empires, 1204 — 1261, in C. M. H, Vol. IV, part 1, ed. Hussey, Cambridge 1975.
- Norden (W) : Der vierte kreuzzug in Rahmen der Beziehungen des Abendlander Zu Byzanz, Berlin, 1898.
- Ostrogrosky : History of the Byzantine State, English Trans. by Hussey, Oxford, 1968.
- Painter(S) : A History of The Middle Ages, New York, 1954.
- Pears(E) : The Fall of Constantinople being the Sroy of the Fourth Crusade, New York, 1975.
- Psellus (M) : Chronographie, Traduit de grec par Renauld, Tome 1, Paris, 1926.
- Riant : Innocent III, Philippe de Souabe et Boniface de Montferrat, dans Revue des questions historiques XVII, 1875. XVIII, 1875.
- Runciman (S) : The History of the Crusades, Vol. 3, : Cambridhe University Press, 1966. The Byzantine Theocracy, Cambridge : University Press 1977. : Byzantine Civilisation, Seventh Impression, Great Britain, 1975.

- Tessier(J) : La quatrieme croisade, La division sur
Zara et Constantinople, Laroux, Paris,
1884.
- Toynbee (A) : Constantine Porphyrogenitus and his
world, london, 1973.
- Vasilien : History of the Byzantine Empire (324—
1453), U.S.A. 1971.
- Villehardouin (g) : La Conquete de Constantinople par
les Barons Francais associez aux Ven-
itiens l'an 1204. English translation
by Sir Marzials, London, 1965.
- Winkelman : Philip Von Schwaben und Otto Von
Brannschweig, Vol. 1. Leipzig, 1873.
- Workman : The Evolution of the Monastic Ideal,
London, 1927.

طبع بمطابع جريدة السفى
؛ شارع الصحافة بالمنشية
اسكندرية - ت : ٨٠٣٩٦٤

البحث الثاني

مجلة كلية الآداب



المجلد السادس والثلاثون
١٩٨٨

تطلب هذه المجلة من مكتبة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية
بالمطابق ، ونوجه المكتبات الخاصة بالناحية العلمية
إلى كلية الآداب

الشؤون الفنية — وحدة الأوفست
كلية الآداب

إمبراطورية في المنفى
ثيودور لاسكاريس
وإحياء الامبراطورية البيزنطية في نيقية

دكتورة
إسمت غنيم
جامعة الاسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

في عام ١٢٠٤م، تم للصليبيين اللاتين فتح القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية وحاملة لواء المسيحية في الشرق منذ تأسيسها على يد قسطنطين الأكبر في النصف الأول من القرن الرابع الميلادي وحتى ذلك الوقت من بداية القرن الثالث عشر. وقد كان ذلك الحدث بالنسبة للبيزنطيين، الزلزال العنيف، والطوفان المدمر، الذي أتى على الأخضر واليابس. لقد فقدوا العاصمة الأم، ملكة المدن، مركز العالم الأرثوذكسي بأجمعه، المشمولة برعاية وحماية السيد المسيح والسيدة العذراء، هذا الأمر الذي كان من العسير على البيزنطيين تصديقه. وقد اعتبر المعاصرون منهم ذلك علامة على غضب الله، وعقابا لهم على آثامهم وخطاياهم وشقاقهم.

وعلى أشلاء الإمبراطورية البيزنطية الممزقة قامت ممالك لاتينية، وفازت البندقية بنصيب الأسد، كما أسس البيزنطيون ثلاث ممالك لهم كانت أبرزها إمبراطورية نيقية البيزنطية، التي قامت بالدور الأعظم والأهم في المكافحة والنضال ضد العدو اللاتيني الذي جثم على أنفاس عاصمتهم، حتى تم لهذه الإمبراطورية استعادة العاصمة البيزنطية من يد مغتصبها في عام ١٢٦١، وبعد فترة صراع ونضال استمرت على امتداد عهود البابطة الذين تولوا الحكم في نيقية.

ويعود الفضل الأكبر في تأسيس إمبراطورية نيقية البيزنطية، إلى ثيودور الأول لاسكاريس الذي ناضل نضالا عنيفا حتى تمكن من تأسيس حكمه في نيقية، وارسى قواعد البناء اليوناني الأرثوذكسي في هذه المدينة، التي اتخذها ملاذا ومستقرا ومركزا وقاعدة يقود منها حركة المقاومة ضد العدو اللاتيني.

وقد وفق ثيودور في جهوده إلى حد كبير، وسار خلفاؤه على نهجه، وتوسموا خطاه، وقد عاشوا جميعا، وعملوا جميعا، من أجل تحقيق هذا الهدف الذي

١٦٦ -
وضعه تيزرر الأول... صوب أعينهم ألا وهو استعادة العاصمة الأم ،
وعبرة (أنه بطريرك المنفى) إلى مقرها الرسمي في عاصمة قسطنطين .

وهذا البحث يعرض للدور الكبير والهام الذي لعبه ثيودور الأول لاسكاريس في
سبيل لم شمل العناصر البيزنطية ، بعد الضربة العنيفة التي نزلت بهم ، وزلزلت
كيانهم ، وتأسيسه للبطريركية الأرثوذكسية في نيقية خلفا للبطريركية الأرثوذكسية في
القسطنطينية ، ومختلف جهوده العسكرية والسياسية من أجل استعادة العاصمة
الأم .

وقد استازمت هذه الدراسة الاستعانة بعدد كبير من المصادر سواء البيزنطية أو
اللاتينية الغربية . وفيما يتعلق بالمصادر البيزنطية فأولها زمنا كتاب المؤرخ البيزنطي
المعاصر نقيتاس خونياتيس Nicetas Choniates المسمى Historia ، نظرا لأنه كان
معاصرا للأحداث الخاصة باستيلاء اللاتين على القسطنطينية في عام ١٢٠٤م^٣
وتأسيس ثيودور الأول لاسكاريس للملكة في نيقية . وقد انتهى هذا التاريخ عند عام
١٢٠٦ م ونشر هذا الكتاب في عام ١٨٣٥ في مجموعة بون البيزنطية .

Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (C.S.H.B.) وفي تقييم هذا المؤرخ ،
يقول أوستروجورسكي Ostrogorsky ، أنه يمتاز بنظرة شاملة وقوة حقيقية تعينه
على أن يقدم وصفا حيا للأحداث ، وهي ميزة ينفرد بها وتجعله الأكثر لمعانا بين
مؤرخي التاريخ البيزنطي بعد بسيللوس^(١) .

أما مؤرخ امبراطورية نيقية البيزنطية بحق فهو جورج اكروبوليتيس George
Cropolites (١٢١٧-١٢٨٢) الذي ترك بصمات واضحة على كلا الصعيدين
كرجل دولة ، وعالم ومفكر ، فكان معلما خصوصا لولي العهد ثيودور الثاني

(١) Ostrogorsky: History of the Byzantine state, Translated by Hussey, Oxford, 1968,
pp. 352-353.

وللمزيد عن نقيتاس خونياتيس راجع :
أسمت غنيم : الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحراطها عند القسطنطينية ، دار المعارف ، الإسكندرية ،
١٩٨٢ ، ص.ص ٩ - ١ .

لاسكاريس الذى تولى عرش نيقية فى الفترة (١٢٥٤-١٢٥٨) ، وقد حضر
اكروبوليتيس مجمع ليون فى ١٢٤٥ نائبا عن الامبراطور البيزنطى فى نيقية يوحنا
فاتاتريس (١٢٢٢-١٢٥٤) ، ورئيسا للوفد البيزنطى فى المجمع . وفى عام ١٢٤٦^٣ .
أصبح المستشار الأعظم Grand Logothate ، ثم عينه تلميذه الامبراطور ثيودور
الثالى لاسكاريس بعد توليه العرش فى ١٢٥٤ واليا على الأراضى التابعة لامبراطورية
نيقية فى الجانب الأوربى واتخذ سالونيك مقرا له وظل فى منصبه حتى عام ١٢٥٧^٤ .
وكتابه الذى يعرف باسم Opera نشره Heisenberg فى مدينة Leipzig عام
١٩٠٣ .. وقد اعطى فيه اكروبوليتيس وصفا واضحا للاحداث السياسية التى
جرت منذ استيلاء اللاتين على القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ وحتى استرداد البيزنطيين
لها فى ١٢٦١ .

هناك أيضا المؤرخ البيزنطى نقفور جريجوراس Nicephorus Gregoras
(١٢٩٥-١٣٥٩) الذى كان قريبا العهد بهذه الأحداث ، ويعتبر كتابه المسمى
Historiae Byzantinae الذى نشر فى مجموعة يون البيزنطية C.S.H.B. فى عام
١٨٢٩ ، تكملة لتاريخ اكروبوليتيس اذ تناول فيه جريجوراس الأحداث منذ عام
١٢٠٤ وحتى تاريخ وفاته فى ١٣٥٩ .

أما بالنسبة للمؤرخين اللاتين الذين تناولوا أحداث هذه الفترة فأهم ما يذكر
منهم المؤرخان المعاصران جيوفرى فيلهاردوين Geoffery Villehardouin وكتابه عن
« فتح القسطنطينية بواسطة البارونات الفرنسيين ومشاركة البنادقة فى عام
١٢٠٤ » .

La Conquete de Constantinople for les Barons Francais. associez aux
venetians l'an 1204.

وكذلك روبرت كلارى Robert de Clari الذى كتب عن « فتح القسطنطينية

La Conquete de Constantinopli^(١) .

(١) فيما يتعلق بالمؤرخين جيوفرى فيلهاردوين وروبرت كلارى وتقييم تاريخهما لهذه الفترة ، راجع : إسحق

غنىم . الحملة الصليبية الرابعة . ص.ص ٦-٩

هذا بالإضافة للعديد من المراجع الحديثة لكبار المؤرخين الذين تناولوا عصر
ثيودور لاسكاريس ضمن عرضهم للتاريخ البيزنطي بصفة عامة ، لأنه لم يظهر
حتى الآن بحث قائم بذاته باللغة العربية أو باللغات الأجنبية ، عن عصر ثيودور
الأول لاسكاريس . فهذا البحث يعتبر أول بحث يلقي الضوء على عصر هذا
الأمبراطور والدور الذي لعبه من أجل استعادة العاصمة البيزنطية القسطنطينية من
يد اللاتين ، ويغطي مرحلة هامة من التاريخ البيزنطي لم يزاح عنها الستار حتى
الآن .

والله الموفق

اسمعت غنيم

لوران : ٧ يناير ١٩٨٧ م

لقد تميزت هذه المرحلة من تاريخ الدولة البيزنطية بالتعقيد الشديد نظرا لتشابه الأحداث السياسية في هذه المنطقة من شرق أوروبا وغرب اسيا الصغرى وتعدد العناصر التي ساهمت بتصويب وافر في هذه الأحداث

فقد نجح اللاتين الغربيين في اسقاط العاصمة العريقة القسطنطينية في عام ١٢٠٤ وأقاموا ممالك لهم على انقاضها كانت هي — الأباطورية اللاتينية في القسطنطينية — مملكة سالونيك، امارة آخايا Achaia في البلوبونيز ، ودوقية آثينا وتيس في وسط بلاد اليونان . أما البندقية فقد انتشر نفوذها في جزء من القسطنطينية يبلغ ^٣/_٨ المدينة والجزر البيزنطية في البحرين الإيجي والايوني ، وجزيرة كريت ، وعدد من الاماكن الساحلية والداخلية^(١) .

على أن الطبقة الارستقراطية البيزنطية ، التي فرت من العاصمة بعد سقوطها في يد اللاتين الغزاه نجحت في تأسيس ثلاث مراكز بيزنطية ، ففي الشمال الغربي لبلاد اليونان خلف جبال بندوس Pindos وحول أرتا Arta وضع ميخائيل انجيلوس (١٢٠٤—١٢١٥) اساس امارة ايروس Epirus .

وعلى الساحل الجنوبي للبحر الأسود أسست امارة طرايزون تحت حكم اليكسيوس ودافيد كومنينوس ، اكبر أبناء الامبراطور اندرونيكوس الأول كومنينوس (١١٨٣—١١٨٥) الذي كان قد ارتبط برابطة المصاهرة مع البيت الملكي في جورجيا ، وفي ابريل ١٢٠٤ نجح كل من اليكسيوس ودافيد بمساعدة خالته الملكة الشهيرة تمارا Thamar^(٢) (١١٨٤—١٢١٢) في الاستيلاء على طرايزون ، وظلا

(١) Villehardouin: La Conquete de Constantinople par les Barons Français associez aux venitiens l'an 1204, English by Sir Marzials, London, 1965, P. 69.

Gregoras: Historiae Byzantinae, ed. weberi, Bonn, 1829 PP. 14-16.

wolff (L.): Studies in the latin Empire of Constantinople, London, 1976, PP. 190-195.

Ostrogorsky: op. cit., PP. 423-424

Whitting (Ph.): Byzantium, Oxford, 1981, P. 113.

(٢) هي ملكة جورجيا ، وقد خلفت والدها الملك جورج الثاني (١١٥٦—١١٨٤) على العرش ، ويعود اليها الفضل في تأسيس الشخصية الجورجية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، وقد وصلت جورجيا تحت حكمها الى درجة كبيرة من القوة والامتاع حتى شملت معظم بلاد القوقاز ، كما تمتعت البلاد في عهدها بحضارة لامعة . حيث شجع الفنايين والكتاب والعلماء الذين هرعوا الى بلاطها من

يتقدمان على طول الساحل الغربى للبحر الأسود ، فاستوليا على سينوب Sinope
وبفلاجونيا Paphlagonia وهرقلية البنطية Pontive Heraclea^(١)

أما ثيودور لاسكاريس فقد استطاع بعد جهد وعناء من تأسيس مملكة عرفت
باسم امبراطورية نيقية البيزنطية ، كانت مدينة نيقية في آسيا الصغرى عاصمتها ،
وقد نافسه في هذه المنطقة الأتراك السلاجقة الذين اتخذوا من قونية عاصمة
لسلطتهم .

فضلا عن ذلك ، كان هناك الامبراطورية البلغارية ، التى ظهرت في عام
١١٦٨ م . والتى كان على رأسها في ذلك الوقت القيصر جوهانيتزا Joannitsa أو
كالوجان Kalojan (١١٩٧-١٢٠٧) ، ثم جاء من بعده بوريل (١٢٠٧-١٢١٨) ، ثم
يوحنا آسن الثانى John Asan II (١٢١٨-١٢٤١)^(٢) .

كل هذه العناصر المختلفة من فرنجة لاتين ، ويونان بيزنطيين ، وأتراك وبلغار ،
أسهموا مساهمة فعالة في الحياة السياسية المعقدة التى تلت عام ١٢٠٤ ، وامتداد
القرن الثالث عشر الميلادى ، بالصراع بين هذه العناصر المختلفة . فاليونان
البيزنطيون ناضلوا ضد اللاتين ، كما دخلوا في صراعات بين بعضهم والبعض
الآخر ، بعد أن تنافست هذه الإمارات البيزنطية الثلاثة حول زعامة الشعب
البيزنطى ، كما كافحوا أيضا ضد البلغار والأتراك . واللاتين حاربوا ضد البيزنطيين
كما حاربوا ضد البلغار .. وكان للبلغار هم أيضا طموحاتهم واطماعهم في

مختلف الأنحاء ، وقد أتت سياستها نتائجها الطيبة في عهد خليفتها الملك جورج الرابع (١٢١٢-١٢٢٣) =
الذى اعتبر عهده العصر الذهبى لجورجيا ، والذى حكم مملكة واسعة شملت بلاد القوقاز ، من البحر
الأسود حتى بحر الكاسبيان الذى يقع بين حدود قازق آسيا وأوروبا ، وشملت مملكته كذلك الجزء
الرئيسى من أرمينيا العظمى ، كما بلغت الحضارة الجورجية في عهده قممها ، ولد وقع الهجوم المغولى على
مملكته في السنة الأخيرة من حكمه راجع :

Allen: A History of the Georgian People, 1932.

(1) Miller: The Empire of Nicaea and recovery of constantivople, in C.Med.H. ed Bury,
Vol. 1V, 1923, PP. 479-480.

Angold: A Byzantine Government in Exile, 1204-1261, Oxford, 1975, P. 12.

Walter: La Ruine de Byzance (1204-1453), ed Albin, Michel, piehel, paris, 1958, P. 163.

Brehier: Vie et mort de Byzance, Paris, 1969, P. 309.

Ostrogorsky: op. cit., P. 425.

(2) Wolff: The Second Bulgarian Empire, its Origin and History to 1204, Research in
(Studies in the latin Empire of Constantinople), chapter III, PP. 167-206.

القسطنطينية منذ زمن بعيد ، وجاء استيلاء اللاتين عليها في عام ١٢٠٤ ، والنهضة التي بلغتها دولة البلغار في هذه الآونة ، مجددا لآمالهم في الاستيلاء على عاصمة قسطنطين .

وقد أدت كل هذه التعقيدات السياسية والعسكرية ، الى قيام تحالفات عالمية محدودة قصيرة الأجل ، كانت تبدأ ببساطة ، وتنتهى ببساطة مماثلة ، وكما قال المؤرخ الألماني نيومان Neumann « كل هذه الحكومات الأجنبية في الشرق ، لم يكن رد فعلها الابداع ، وإنما التحطيم ... يضاف لذلك انهم هم انفسهم قد حُطّموا ، وبقي الشرق سيدا على الشرق »^(١) .

ولم يبعد نيومان عن الحقيقة ، فرغم كل هذه الصراعات العسكرية والسياسية ، ورغم تعدد العناصر في هذه المنطقة من شرق أوروبا وغرب آسيا الصغرى ، إلا أن الشرق ممثلا في البيزنطيين تمكن من طرد هؤلاء الغزاة ، واستعاد سيادته على أراضيه من جديد .

ويعود الفضل في ذلك الى امبراطورية نيقية البيزنطية ، التي لعبت الدور الكبير والهام في النضال ضد مختلف العناصر ، وخاصة اللاتين ، حتى تمكنت بالفعل من استعادة العاصمة القسطنطينية في عام ١٢٦١ .

ففي الوقت الذي أوشك فيه الصليبيون أن يقتحموا القسطنطينية في ١٢ أبريل عام ١٢٠٤ ، كانت تجرى بعض المراسم في كنيسة آيا صوفيا لانتخاب امبراطور جديد ، بعد فرار الامبراطور اليكسيوس الخامس مرزفولوس Murtzuphlus عام (١٢٠٤) . وقد وقع اختيار رجال الدين وعلى رأسهم بطريرك القسطنطينية John Camaterus على ثيودور لاسكاريس ليتولى العرش ، ولكن قبل أن يتم تقليده بالشارات الامبراطورية ، ونظرا لخطورة الموقف قام ثيودور بمحاولة للتمسك المدافعين عن العاصمة ، وحينما رأى أنه لا فائدة من المقاومة وأن كل شيء قد انهار ، فر مع زوجته وبناته الثلاث وعبر بحر مرمرة الى آسيا الصغرى .

(١) Neumann (C.): "Die Byzantinische Marive", Historische Zeitschrift, LXXXX, 1898, PP. 1-2.

وهكذا فقد امتاز ثيودور لاسكاريس عن غيره من الحكام البيزنطيين الذين أسسوا لهم ممالك سواء في ايروس أو طرايزون ، امتاز عنهم جميعا ، بانه تم اختياره امبراطورا شرعيا للبيزنطيين بواسطة رجال الدين وعلى رأسهم البطريرك ، وفي كنيسة آيا صوفيا ، الكنيسة الرئيسية في الامبراطورية ، كما أنه يمت بصلة المصاهرة مع البيت الملكي البيزنطى الذى كان يحكم قبل فتح اللاتين للقسطنطينية ، وهو آل انجيلوس ، فقد كان متزوجا من آنا Anna ابنة الامبراطور اليكسيوس الثالث انجيلوس (١١٩٥-١٢٠٣) . وكان ثيودور لاسكاريس في ذلك الوقت في الثلاثين من عمره ، وكان يشغل منصب القائد في الجيش البيزنطى ، وقد ابلى بلاءا حسنا في الحرب ضد البلغار ، وكذلك في مقاومة حصار الصليبيين للعاصمة البيزنطية في عام ١٢٠٤^(١) .

بعد وصول ثيودور لاسكاريس الى آسيا الصغرى ، وقع اختياره على مدينة نيقية ليتخذها ملاذا يلوذ به ، ومركزا يقود منه حركة المقاومة ضد اللاتين . والواقع أن اختياره لمدينة نيقية بالذات يدل على بعد نظر ، وسعة أفق ، نظرا لقرها من العاصمة القسطنطينية ، فبينهما مسافة لا تتجاوز الأربعين ميلا فقط ، مما يجعله قريبا من اللاتين يستطيع أن يراقب تحركاتهم ، ويقلق راحتهم .

وتقع هذه المدينة في اقليم يثينيا في الشمال الغربى من آسيا الصغرى ، وتشرف على بحيرة اسكانيوس Ascanius ، وكان قد بناها الملك انتيجونوس Antigonus في عام ٣١٦ ق.م . ، وأطلق عليها اسم انتيجونيا Antigonia نسبة إليه . ثم جاء الملك لسيماخوس Lysimachus وغير اسمها الى نيقية Nicaea نسبة إلى اسم زوجته . وفي أيام الامبراطورية الرومانية ، اصبحت نيقية ونيقوميديا عاصمتى اقليم يثينيا . وقد وصف نيقية الجغرافى سترابو Strabo ، وقال انها بنيت على شكل المربع ولها بوابه في كل جانب من جوانبها الأربعة . وفي أيام الامبراطورية البيزنطية ذاع لاسم نيقية بعدما اتخذها الامبراطور قسطنطين الاكبر مقرا لانعقاد المجمع الدينى الأول في عام ٣٢٥ م . الذى ناقش مشكلة الخلاف بين آريوس

(١) Miller: The Empire of Nicaea, P. 478.

Nicod The Fourth crusade and the greek and latin Empire 1204-1261, in C. Med Hist
Huggey, Cambridge, 1975. Vol, IV, P. 291.

واثناسيوس ، وظلت مزدهرة ، كثيرة الخيرات ، فقد أمدتها سهول بيثينيا بالقمح ، والعنب ، على حين أمدتها ائبحيرة القرية منها بالأسماك ، كذلك توفرت بها المياه ، وكثر بها شجر السرو الذى جعل المدينة متعة للناظرين ، وقد امتازت بشوارعها الواسعة ، وكنائسها واديرتها العديدة التى مايزال بعضها قائما حتى الآن . كما كانت المدينة قوية التحصين عن طريق اسوارها القوية وابراجها المرتفعة وبواباتها المتينة ، التى ماتزال باقية حتى الوقت الحاضر^(١) .

وفى عام ١٠٧٥ فتحها الاتراك السلاجقة واتخذوها عاصمة لمملكتهم فى آسيا الصغرى وظلت بايديهم اكثر من عشرين عاما حتى استعادها الامبراطور اليكسيوس كومنينوس فى عام ١١٩٧ بمساعدة صليبي الحملة الأولى وظلت تابعة للدولة البيزنطية حتى وصل اليها ثيودور لاسكاريس فى عام ١٢٠٤ وطلب من اهاليها اعتباره حاكمهم الشرعى .

على أن اهالى نيقية رفضوا استقباله واغلقوا بوابات مدينتهم فى وجهه ، وربما كان الدافع للاهالى على تصرفهم هذا هو خوفهم من انتقام اللاتين ، لذلك فقد اتجه ثيودور الى مدينة بروسا Brusa القرية من نيقية واستقر هناك ، وعلى الفور التف حوله عدد كبير من اللاجئين البيزنطيين سواء من المدنيين أو رجال الدين الذين فروا من وجهه اللاتين^(٢) . ولم يلبث اللاتين أن وجهوا قواتهم الى آسيا الصغرى لاحتلالها ، وهنا بدأ الصراع سافرا بين ثيودور لاسكاريس والقوات اللاتينية .

ذلك أن مدينة نيقية منحت لقب (دوقية) وكانت من نصيب واحد من

(1) Nicetas Choniates: Historia, ed. Weheri, Bonvae, 1835, P. 318.

Villehardouin: La conquete de constantinople, P. 304.

Miller: The Empire of Nicaea, PP. 478-79.

Vosiliev: The Byzantine Empire, Vol 11, PP. 512-513

Magie: Roman Rule in Asia Minor, 2 Vols, 1975

Pears: The Fall of constantivople; Being the story of the fourth crusade, New York, 1975, P. 33, P. 80.

(2) Georgu Acropolitae opera, ed. Heisenberg. 1. P. 11, 11, P 5-9, m7 18

Miller: Op. cit., P. 479.

Nicol: The Fourth crusade, P 291

أكبر القادة في الحملة الصليبية الرابعة وهو الكونت لويس أوف بلواشارتر Count Louis of Blois and Charter الذي كان نبيلاً ثرياً ، وهو ابن اخت ملك إنجلترا ، وقد لعب دوراً هاماً في تنصيب بلدوين أوف فلاندرز كأول إمبراطور لاتيني يتولى عرش القسطنطينية . وفي أول نوفمبر عام ١٢٠٤ أرسل الدوق الفرنسي لنيقيه اثنين من رجاله هما بور دي براكوي Burre de Bracheuil ، وباين دي أورليان and Payen d'orleans مع قوة من ١٢٠ فارساً لامتلاك نصيبه في آسيا الصغرى . وقد وصل هؤلاء جميعاً إلى مدينة بيجا^١ Piga الواقعة على مضيق الدردنيل ، حيث أظهر الأهالي الترحيب بهم ، ثم احتلوا المدينة الهامة باندردما Panderma .

وقد كان لابد لثيودور لاسكاريس أن يدافع عن ملجأه الأخير الذي بقي له في أرض آسيا الصغرى بعد أن احتل اللاتين العاصمة البيزنطية ، ووزعوا أملاك الإمبراطورية على أنفسهم ، لذلك فقد جمع جيشاً والتقى مع جيش اللاتين في سهل أمام قلعة بومانيفون Poemanivon في ٦ ديسمبر عام ١٢٠٤ ، ولم يستطع لاسكاريس وجيشه الصمود أمام اللاتين ففر ، وتمكن اللاتين خلال أسبوع واحد من الاستيلاء على عدة مواقع هامة في هذه المنطقة ، مثل القلعة الحصينة بومانيفون Poemanivon ومدينة لوباديوم Lopadium التي كانت من أجمل مدن إقليم بيثينيا ، وقلعة بوليكننا Polychna وهي تقع على بحيرة جارية الماء ، وتعد واحدة من أحسن القلاع وأحصنها ، ثم حاصروا مدينة بروسا Brusa ملجأ ثيودور لاسكاريس ، ولكن المدينة كانت جيدة التحصين ، وقد هب لها ذلك موقعها الطبيعي القوي وأسوارها المرتفعة ، لذلك فقد قاومت الحصار ، وقد شجع حصار اللاتين لبروسا الأهالي على الثورة ضد لاسكاريس ، خوفاً من انتقام اللاتين إذا ساعدوا لاسكاريس ضدهم وخاصة أن فتوحات اللاتين ، وأولها فتحهم للقسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية نفسها ، وما تلاها من فتوحات في الجانب الأوربي والجزر اليونانية وآسيا الصغرى ، قد أعطت الأهالي فكرة عن أن هؤلاء اللاتين لا يمكن قهرهم ، وأنه من الأسلم لهم أن يستسلموا خوفاً من بطشهم . .

كذلك تمكن هنرى شقيق بلدوين إمبراطور القسطنطينية اللاتينية ، من احتلال مدينة ابيدوس Abydos ، وترك بها حامية من رجاله ، ثم سار الى مدينة ادراميتيوم Adramyttium الواقعة على شاطئ البحر ، وبينها وبين ابيدوس مسيرة يومين فقط ، وقد استسلمت له المدينة التى كانت غنية بخيراتها كما استسلم له جزء كبير من الأقليم^(١) .

وهكذا وقعت معظم مدن اقليم بيشنيا فى يد اللاتين ، وبدأ وكأن البيزنطيين قد خسروا قضيتهم كذلك فى آسيا الصغرى . لكن وفى هذه اللحظات المصيرية الحاسمة ، وقعت احداث معينة كان لها أثر كبير فى تغيير مجرى الأمور ، وكانت هذه الأحداث خاصة بالصراع الذى اشتعل بين اللاتين من جهة وبين الارستقراطية البيزنطية فى تراقيا وقصر البلغار جوها نيتزا من الجهة الأخرى ، وقد جاءت تلك الأحداث فى الوقت المناسب تماما لتخدم القضية البيزنطية وتنقذ لاسكاريس وآماله فى تنظيم المقاومة ضد الغزاة اللاتين واتخاذ آسيا الصغرى معقلا له يقود منها حركة المقاومة البيزنطية .

وتفصيل ذلك أن ملاك الأرض من الارستقراطيين البيزنطيين فى اقليم تراقيا Thrace أبدوا استعدادهم للاعتراف بسيادة اللاتين عليهم ، ومنحهم التأيد ، على أساس أن تظل ملكياتهم للأرض Promoiai ، كما هى فى ايديهم . لكن اللاتين رفضوا ، واكثر من ذلك ، أخذوا يعملون على استفزاز اليونان فى هذا الاقليم ، عن طريق تحقير العقائد والطقوس الدينية الأرثوذكسية ، مما اساء اساءة بالغة للشعب اليونانى فى تراقيا ، ودفعهم للالتجاء الى قيصر البلغار جوهاننيتزا طالبين منه مساعدتهم فى التخلص من سيطرة اللاتين ومقدمين له التاج الملكى .

وقد جرت اتصالات سرية بين الطرفين ، قام خلالها بدور هام بطريك القسطنطينية السابق يوحنا كاماتيروس ، الذى كان يقيم فى بلغاريا بعد فراره من القسطنطينية عقب فتح اللاتين لها ، وقد عمل كاماتيروس على تكوين حلف يونانى بلغارى فى عامى ١٢٠٤-١٢٠٥^(٢) .

(1) Villehardouin: La conquête de constantinople, PP. 83-84.

(2) Nicetas choniates: Historia, ed. Bonn, PP 791-808

وقد كان قيصر البلغار لديه الاستعداد لقيام مثل هذا الحلف ، بعد أن اساء اليه اللاتين هو الآخر . فبعد أن علم الملك البلغاري بفتوحات اللاتين على حساب الامبراطورية البيزنطية ، خشي على ممتلكاته من أن تمتد اليها يد اللاتين مثلما فعلوا مع البيزنطيين ، لذلك فقد أرسل الى البابا اينوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦) يقول : « اكتب الى اللاتين لكي يتعدوا عن امبراطوريتي ، واذا هم فعلوا ذلك ، فان امبراطوريتي لن تؤذيهم .. ولكن اذا هم قاموا بمحاولة ضدها ، وقتل البعض منهم ، فان هذا لن يكون خطي »^(١) .

وقد اراد جوهانيتزا أن يقيم علاقات ود وصداقة مع اللاتين في القسطنطينية ، ولكن اللاتين ، بفطرتهم المعهودة ، أبوا ذلك ، وأوضحوا له أنه من غير اللائق أن ينظر الى الامبراطور اللاتيني على أنه نظير له ، وإنما يجب أن ينظر إليه على أنه سيده ، ثم وجهوا اليه انذاراً مضمونه ، انه إذا تهاون في احترام الامبراطور يلدوين ، فانهم سوف يفتحون بلاده بحمد السيف وقوة السلاح وسيعيدونها من جديد دولة تابعة ، كسابق عهدها مع بيزنطة^(٢) .

وهكذا قربت هذه الظروف بين البيزنطيين في تراقيا وقيصر البلغار ، وجعلتهما حليفين يسعيان معا للدفاع عن ممتلكاتهما ضد خطر اللاتين .

ويعلق المؤرخ اسبنسكي Uspensky على هذا الحلف البيزنطي البلغاري بقوله : « لقد وضع هذا الحلف حدا لتردد كالوجان ، وثبت بخطته لتحركاته المقبلة ، وظهره كحامى للارثوذكسية ، وللشعبيين اليوناني والبلغاري ضد سيطرة اللاتين الكاثوليك »^(٣) .

وهكذا اشتعلت الحرب بين قيصر البلغار ويؤيده البيزنطيون في البلقان ، وبين اللاتين ، وانتشرت الثورة في تراقيا ضد اللاتين ، واستولى البلغار وحلفاؤهم

(١) Wolff: Studies in the latin Empire of constantinople, chapter 1, PP. 201-202.

(٢) Villehardouin: la conquete de constantinople, P. 87.

Vasiliev: History of the Byzantine Empire, Vol. II, P. 509.

(٣) Uspensky (P.): The Formation of the second Kingdom of Bulgaria, Odessa, 1879, PP. 245-246.

البيزنطيون على ديموتيكيا التابعة للامبراطور بلديون ، وهادريا نوبل (ادرنه) التابعة للبنادقة . عند ذلك عقد الامبراطور بلديون مجلسا للتشاور مع دوق البندقية هنري داندولو والكونت لويس اوف بلواوشارتر ، وتدارسوا الموقف واجمعوا على تكريس جهودهم كلها من أجل القضاء على هذه الثورة المسلحة ضد النفوذ اللاتيني في البلقان ، وإلا فانهم سوف يخسرون كل ممتلكاتهم هناك . لذلك فقد ارسل الامبراطور بلديون الى شقيقه هنري الذي كان عند ادراميتيوم Adramyttium ، كما سبق أن أوضحنا ، لكي يترك فتوحاته في آسيا الصغرى ويعود للمساعدة في الحرب ضد البلغار . كذلك ارسل الكونت لويس اوف بلواوشارتر الى نائبه في آسيا الصغرى اللذين كانا عند لوباديوم Lopadium ، وإلى جميع رجاله لكي يتركوا فتوحاتهم ليما عدا بيجا Piga نظرا لأهمية موقعها على مضيق الدردنيل ، ويتركوا بها حامية صغيرة ويعود الجميع للمشاركة في الحرب ضد البلغار^(١) .

وقد توجه الامبراطور وباروناته ، ودوق البندقية ، والجيش اللاتيني الى هادريانوبل حيث حاصروها ، ويصف شاهد عيان هو روبرت كلاري ، ما تلى ذلك من احداث فيقول :

“..... Si Comme il Seolent esluce, este me Vous Un Jour on Jehans li Blaks, et il et li Commain, a tout malt grant gent, Venoient le tere de Coustantinoble, Si Comme il avoient autre fois fait; Si trouverent L'empereeur a toute s'ost seant a Andernople. Quant chil de l'ost virrent ches Commains a ches plichons vestus, Si ne les douterent ne prisierent nient plus que un trope d'enfans; et chil Commain et chele gent venoient grandesme aleure, Si Keurent il sus as Franchois, Si enochisent mout, Si les desconfissent il lous enchele bataille. Si fu perdis li empereres, que on ne Saut onques que il devint, et li cuens Loeis et molt d'autres haus hommes et tant d'autre gent que nous n'en Savons le nombre, mais que bien iperdi on trois chens chevaliers; et qui escaper peut, Si S'en vint fuiant en Coustantinople, Si que li dux de Venice S'en Vint fuiant et asses gens avec lui, et

(1) Villehardouin: La conquete de constantinople, P. 87.

laisserent leur tentes et leur harnas, tout Si Comme il seioient a chele chité,
que onques n'oserent vertir chele part si i fu le desconfiture grans^(١)

وترجمة هذا النص باللغة العربية كالتالى : « وبينما كانوا معسكرين امامها (هادرانوبل) اذا بهم يبصرون فى أحد الأيام جون الوالاشى والكومان^(٢) فى جيش كبير ، قد جاؤا الى منطقة القسطنطينية ، كما فعلوا من قبل ، ووجدوا الامبراطور وجميع جيشه معسكرين امام هادرانوبل ، فلما ابصر رجال الجيش الكومان متدثرين بجلود ماشيتهم ، لم يخافوا منهم أو يعباؤا بهم ، اكثر من خوفهم من فرقة صغيرة من الأطفال ، فانطلق الكومان فى سرعة ، وكروا على الفرنسيين ، وقتلوا الكثيرين منهم وهزموهم جميعا فى هذه الموقعة ، وتفقدا القوم الامبراطور ، فلم يعرف أبدا بعدئذ ما جرى له ، كما ضاع أيضا الكونت لويس وكثيرون غيره من كبار الرجال ، وحشد كبير لا نعرف لهم عدا ، وإن كان الهالكون ثلاثمائة فارس . أما الذين نجوا من القتل فقد فروا الى القسطنطينية ، كما فر دوق البندقية ومعه الكثيرون ، وتركوا معسكراتهم واسلحتهم كما كانت أمام المدينة ، لأنهم لم يجرؤا على الذهاب الى هذا الطريق ، ومن ثمة كان الهلاك عظيما . »

وليس ابلغ من وصف كلارى لهذه الحادثة ، فقد استخف اللاتين بقوة الملك البلغارى ومن معه من الكيومان ، وترقب على ذلك هذه الكارثة التى حلت

(1) Robert de Clari: La Conquete de Constantinople ed. for philffe laver, Paris, 1924, P. 106.

(٢) ذكرهم كلارى باسم Commain ، لكن الاسم الصحيح لهم هو كيومانز Cumans أو بولوتسى Polovtsy ، وهم قبائل تركية بدوية ، يرجع اصلهم الى وسط آسيا . وابتداء من القرن الخامس الميلادى وحتى القرن الثامن زحزحوا من مواطنهم بواسطة قبائل أخرى . وقد اندمج بعض الكيومان مع عنصر المغول بينما نزع بعضهم الآخر الى السهول الجنوبية لروسيا خلال القرن العاشر .

وقد عرف الكيومان فى التاريخ بهجماتهم الخطيرة ومعاركهم السريعة ضد اعدائهم سواء من البيزنطيين أو الروس ، الباجناك ، المنغوليين وغيرهم . وفى عام ١٢٣٧ هزمهم باتوخان Batu-Khan ، أحد أحفاد جنكيزخان وقتل زعيمهم ، وانتهى بهم الحال الى الاندماج فى الامبراطورية المغولية التى اسماها باتوخان وعرفت باسم Golden Horde والتى حكمها فى الفترة (١٢٢٧—١٢٥٦) .

باللاتين وجيشهم في موقعة هادريانوبل في ابريل ١٢٠٥ . ولم يعرف احدا على وجه التحديد مصير الامبراطور بلدوين ، وقد اختلف المؤرخون المعاصرون في هذا الموضوع ، فروبرت كلارى كما رأينا ذكر أن الامبراطور بلدوين قُتِلَ ولم يعرف أحد ما حدث له . أما فيلهاردوين الذى اشترك هو الآخر بنفسه في المعركة ، فقد ذكر أن الامبراطور بلدوين اخذ أسيرا ، ولم يقتل ، على حين ذبح الكونت لويس اوف بلواشارتر^(١)

واختلف المؤرخون البيزنطيون هم أيضا في المصير الذى آل اليه الامبراطور بلدوين فذكر نقيتاس خونيائيس أن بلدوين اخذ اسيرا الى عاصمة جوهانيتزا وهى Trinovo في أعلى جبال البلقان ، وهناك كُبل بالسلاسل حتى رقبتة وهو على قيد الحياة^(٢) . أما المؤرخ اكروبوليتيس فقد أوضح أن جوهانيتزا قد قطع رأس بلدوين وزينها بالحلى واتخذها وعاء لشرابه^(٣) .

وهكذا يتفق كل من المؤرخ اللاتينى فيلهاردوين والمؤرخ البيزنطى خونيائيس وهما معاصران للاحداث ، في ايضاح المصير الذى آل اليه الامبراطور اللاتينى للقسطنطينية بلدوين ، وهو انه أسر ونقل الى عاصمة البلغار . وربما كان هذا هو الأقرب الى الصواب والحقيقة ، ويؤيد هذا الرأى تلك الرسالة التى أرسلها البابا اينوسنت الثالث في أغسطس أو سبتمبر من عام ١٢٠٥ الى جوهانيتزا يطلب منه أن يطلق سراح بلدوين كأساس لاقرار السلام مع اللاتين^(٤) .

وعلى هذا النحو بدأت في الأنهار قوة اللاتين بعد سنة واحدة من فتحهم القسطنطينية ، ويقول المؤرخ الألمانى جلزر Gelzer : « سيادة الفرنجة على الدولة البيزنطية انتهت في ذلك اليوم الحزين »^(٥) .

أما اسبنسكى Uspensky فيقول : « بقاء الامبراطورية اللاتينية في

(1) Villehardouin: La conquete de constantivople, P. 94.

(2) Choniates. Historia, ed. Bonn, P. 814

(3) Georgu Acropolitae ohera, ed Heisenberg, I, P. 22.

(4) Wolff: Studies in the lativ Empire of Constantinople, P 289.

(5) Gelzer (H): Abriss der Byzantinischen kaisergerges chichte, P 1042

القسطنطينية دون أدنى شك ، فترة أخرى من الزمن ، كان تماما ، في أيدي البلغار^(١) . وقد كانت معركة هادريانوبل ، وما ترتب عليها من هزيمة اللاتين على هذه الصورة ، مما جعل جوهانيترزا يعتد بقوته ، ومن ثمة نقض تحالفه مع يونان البلقان ، وقام بغارات مدمرة ضدهم في شتاء وربيع عامي ١٢٠٥-١٢٠٦ ، وافنى معظم سكان المدين.، واتخذ لقب (سفاح الرومان) Romaiohtonos^(٢) ، ردا على لقب (سفاح البلغار) Bulgaroktonos الذي كان قد اتخذه الامبراطور باسيل الثاني (٩٧٥-١٠٢٥) .

ومن ذلك يتضح أن قيصر البلغار وشعبه لم ينسوا عداوتهم السابق لبيزنطة والبيزنطيين ولم يكن تحالفه مع يونان البلقان إلا أمرا مؤقتا حتى يضمن مساعدتهم له ، أو على الأقل جيادهم اثناء صراعه مع اللاتين . كما أن اليونان انفسهم لم يتحالفوا معه الا من أجل كسب مساعدته لهم ضد اللاتين ، أما عن شعورهم الحقيقي تجاهه ، فقد وضع تماما من اللقب الذي اطلقوه عليه وهو Skyloiannes^(٣) ومعناها بالعربية (الكلب جون) .

وقد خدمت هذه الأحداث كلها ، الخاصة بصراع اللاتين والبلغار ، وما أدى إليه من اشتعال معركة هادريانوبل بين الطرفين ، ثيودور لاسكاريس ، وكانت لها نتائج هامة وبعيدة المدى . فقد انسحب اللاتين من آسيا الصغرى ، بعد أن أوشكوا أن يفتحوها ، ويقضوا على ثيودور لاسكاريس . وقد قتل الدوق الأول والأخير لنيقية ، وهو لويس أوف بلواوشارتر ، قبل أن تطلا قدمه أرض آسيا الصغرى ، وبذلك خلا الجو لثيودور لاسكاريس لكي يلتقط انفاسه ، وينظم أموره ، ويعمل جاهدا على تأسيس ملكه هناك ، ومنحه الفرصة في حياة جديدة وأمل جديد . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فقد افتقد يونان البلقان مركزا قوميا لهم في أوروبا ، بعد أن تعرضوا للاضطهاد والعداء من جانب البلغار واللاتين في آن واحد ، لذلك فقد ولوا وجوههم شطر ثيودور لاسكاريس في آسيا

(1) Uspensky: Second Bulgarian Kingdom, P. 250

(2) ' Georgu Acropolites opera, ed. Heisenberg, PP. 23-24.

(3) ' Ibid: P. 24.

الصغرى ، ونظروا اليه على أنه المحرر الأمل لهم من الغزاة اللاتين والبلغار ، والمتحدث الرسمي عن آمالهم وأحلامهم .

كذلك ترتب على هزيمة اللاتين في معركة هادريا نوبل ، أن اتفق أهالي نيقية على تسليمها لثيودور لاسكاريس ، بعد أن رأوا كيف انهارت قوة اللاتين ، وانهم ليسوا بالقوة التي ظنوها بها . وهكذا نقل ثيودور لاسكاريس عاصمته من بروسا الى نيقية^(١) ، وجمع حوله رجال الدين الارثوذكسي ، وكل من لجأ اليه من الشعب البيزنطي ، واصبحت نيقية هي المركز القومي للبيزنطيين والقاعدة السياسية والعسكرية التي انطلق منها ثيودور لياشر نشاطه ضد العدو اللاتيني الجاثم على الأرض البيزنطية .

ولم يكن منتظرا من اللاتين أن يتركوا ثيودور يهنا بوضعه الجديد في آسيا الصغرى ، فاستأنفوا الصراع ضده محاولين القضاء عليه . وقد انفرد المؤرخ اللاتيني جيوفري فيلهاردوين بسرد تفاصيل هذا الصراع الذي اشتعل بين اللاتين من جهة وثيودور لاسكاريس من الجهة الأخرى . والجدير بالذكر أن المؤرخين البيزنطيين لم يأتوا بشيء عن تفاصيل هذا الصراع ، وكذلك الغالبية العظمى من المؤرخين المحدثين مثل فازيليف واستروجورسكى وبريه وهسي ونيقول وولف والنجولد وغيرهم كثير . لذلك فأننا ندين بالفضل في معرفة تفاصيل هذا الصراع للمؤرخ اللاتيني فيلهاردوين .

وقد بدأ الصراع بين الطرفين بعد تتويج هنرى — شقيق الامبراطور السابق بلدوين — امبراطورا على عرش القسطنطينية في ٢ اغسطس ١٢٠٦ في كنيسة آيا صوفيا ، اذ سارع بالالتفات الى شئون آسيا الصغرى ، وثيودور لاسكاريس . وقد طمع هنرى في أن يضم نيقية الى ممتلكاته ، لذلك فقد أرسل الى آسيا الصغرى في نهاية ١٢٠٦ قوة مكونة من ١٤٠ فارسا ، وكان على رأسها بطرس أوف بارسيو Peter of Barcieux الذي منحه الامبراطور هنرى حق امتلاك Pigea .

(١) Miller: The Empire of Nicaea, PP. 481-482.

Nicol: The Fourth crusade and greek and latin Empires, P. 295

وذلك جزيرة قزيقوس Cyzicus الواقعة على بحر مرمرة والتي ذكرها فيلهاردوين باسم
Cyzicus. وقد ساروا حتى بلغوا قزيقوس ودخلها جيش الفرنج وقام بطرس
بتحصينها ، وبنى بها قلعتين ورصف طريقين للدخول اليها^(١) ، والجدير بالذكر أن
هذه المدينة قد استحوذت على جانب كبير من الصراع بين اللاتين وثيودور
لاسكاريس وذلك نظرا لاهتمام كلا الطرفين بها ، وكان اهتمام ثيودور بها طبيعيا نظرا
لأنها تعتبر المنفذ الطبيعي له على البحر ، على حين اهتم بها اللاتين لأنهم يريدون
أن يحرموا ثيودور من هذا المنفذ البحري الذي يستطيع عن طريقه أن يهدد
الممتلكات اللاتينية على الساحل الأوروبي المقابل وعرقلة مرورهم عبر بحر مرمرة ،
وليستفيدوا هم من موقعها الجغرافي . وقد قام اللاتين بمهاجمة اراضي ثيودور
لاسكاريس ، ونهبوا الكثير من الغنائم والماشية ، وعادوا بها الى قزيقوس . ولكن
ثيودور لم يسكت على هذا التخريب الذي ألحقه اللاتين باراضيه ، فطاردهم حتى
وصل الى قزيقوس ، وهناك التحم الطرفان في معارك اسفرت عن خسائر جمة
لكلاهما .

كذلك أرسل الامبراطور هنري نائبه ويدعى Thierry of Loos الى آسيا
الصغرى بعد أن منحه مدينة نيقوميديا ، وهي على بعد يوم واحد من نيقية
عاصمة لاسكاريس وقد وصل ثييري الى نيقوميديا مع قوة من رجال الامبراطور
هنري ، وقام ثييري بتحصين كنيسة سانت صوفيا St. Sophia التي تقع خارج
مدينة نيقوميديا وامتازت بالاتساع والجمال ، وقد اشتبك معهم ثيودور لاسكاريس
أيضا محاولا انتزاعها من ايديهم^(٢) .

وهكذا بدأ اللاتين في الضغط على ثيودور لاسكاريس من جديد محاولين
القضاء عليه واستخلاص هذه المنطقة من آسيا الصغرى . وقد أدرك ثيودور أنه
ليس بوسع التصدي لهم ، وأنه لن ينقذه إلا البلغار ، مثلما حدث من قبل ،
لذلك فقد راسل قيصر البلغار جرجيس^(٣) وأخبره أن الامبراطور هنري قد وجه كل

(1) Villehardouin: La conquete de Constantinople , P. 120

(2) Villehardouin: Op. cit , P. 121.

قواته الى آسيا الصغرى من أجل القضاء على لاسكاريس ، وأن الامبراطور في القسطنطينية وليس لديه سوى عدد ضئيل من القوات ، وأن هذا هو الوقت المناسب للانتقام من اللاتين ، وطلب منه أن يتعاونوا معا في الهجوم عليهم بحيث يهاجمهم جوهانيتزا من الغرب من البلقان ، وثيودور من الشرق من آسيا الصغرى ، وبذلك يقع اللاتين بين فكي الكماشة^(١) .

وقد استجاب له جوهانيتزا ، وقام بجمع جيش ضخم من البلغار والكيومان والوالاش Vallach^(٢) ، وفي ٧ مارس ١٢٠٧ دخل الى الأراضي التابعة لللاتين في البلقان ، وأرسل جيشا من الكيومان تخربوا المنطقة حتى وصلوا الى بوابات القسطنطينية ذاتها ، أما هو ففرض الحصار على مدينة هادريا نوبل ، ونصب ٣٣ منجنيقا ضخما لذلك الاسوار والابراج بالحجارة ، وقد أرسل سكانها من اللاتين واليونان الى الامبراطور هنري يخبروه بذلك ، وطلبوا النجدة العاجلة^(٣) .

وهكذا أحدث جوهانيتزا ، وللمرة الثانية ، تغييرا في الاحداث ، وحول انتباه اللاتين من آسيا الصغرى الى تراقيا . وللمرة الثانية أيضا أرسل الامبراطور اللاتيني يستدعي قواته من آسيا الصغرى ليرسلها الى حرب البلغار ، فنفذوا أوامر الامبراطور وانسحبوا من مواقعهم باستثناء حاميات صغيرة قليلة العدد بقيت في الاماكن التي فتحها اللاتين .

وحينما علم ثيودور لاسكاريس بنجاح نخطته وتخطيطه ، وحصار البلغار لهادريا نوبل ، وأن الامبراطور هنري تحت ضغط الحاجة قد استدعى رجاله لقتال البلغار ، وجد أن الفرصة مواتية لطرد النفوذ اللاتيني من آسيا الصغرى ، فجمع

(١) Villehardouin: Op. cit., P. 122.

(٢) اختلف المؤرخون حول اصل الوالاش Vlachs فبعضهم ينسبهم الى المستعمرين الرومان الذين استقروا في القرن الثاني الميلادي في منطقة الليريا ، على حين ينسبهم البعض الآخر الى البلو الرعاة الذين يرجع اصلهم الى جنوب نهر الدانوب . وقد لعب الوالاش دورا بارزا في عدد من الكيانات السياسية التي عرفت في العصور الوسطى ابتداء من القرن الثاني عشر وحتى نهاية القرن الرابع عشر ، كان اهمها الامبراطورية البلعارية الالاشية حول نهر الدانوب (١١٨٥-١٢٥٧) ، راجع :

The Illustrated Encyclopedia of Medieval Civilization, U.S.A. 1980, P. 704.

كل ما استطاع جمعه من المقاتلين وسار الى قزيقوس حيث اقام معسكره امامها ونسب القتلى بين ثيودور ورجاله من جهة والحامية اللاتينية القليلة العدد والعتاد من الجهة الأخرى . وقد استمر ثيودور في حصاره لهذه المدينة ولكنه ارسل الجزء الأكبر من رجاله الى قلعة Cibotos حيث حاصروها برا وبحرا بعدد من السفن يبلغ الستة عشر سفينة حربية ، وذلك في يوم السبت ٣١ مارس ١٢٠٧ . وكانت الحامية اللاتينية بها مكونة من ٤٠ فارسا نشب القتال بينهم وبين رجال لاسكاريس ، وقد أرسلت الحامية اللاتينية على وجه السرعة للامبراطور هنري الذي كان بالقسطنطينية ، يطلبون منه سرعة نجاتهم^(١) .

وعلى الفور اتجه الامبراطور الى الشاطئ ، واعتلى ظهر سفينته الحربية من نوع Galleon ، وقد حذا حذوه كبار رجاله الذين اعتلوا ما وجدوه امامهم من السفن ، وكان من بينهم المؤرخ جيوفري فيلهاردوين ، الذي ذكر أن الامبراطور أمر أن يذاع في القسطنطينية أن يتبعه جميع القادرين على القتال ، فاختلف الجميع وهربوا جميعا من بنادقة وبيازنة ولاتين الى الميناء حيث اعتلوا ظهر السفن التي وجدوها امامهم ، وكان مجموع السفن التي خرج بها الامبراطور ورجاله ستة عشر سفينة ، وقد سارت السفن برجالها في طريقها لانقاذ قلعة Cibotos وقطعت المسافة من القسطنطينية اليها في يوم وليلة ، وبعد وصولهم اليها وجدوا رجال لاسكاريس وسفنه تحاصرها ، فاشتبكوا معهم في القتال ، وحسب رواية فيلهاردوين تمكن اللاتين من الاستيلاء على سفن لاسكاريس . ولكن البيزنطيين انتهزوا فرصة ظلام الليل وسحبوا سفنهم الى الشاطئ حيث احرقوها عن آخرها حتى لا يستفيد بها اللاتين ، ثم رفعوا معسكرهم وانسحبوا من أمام هذه القلعة . أما الامبراطور هنري ، فقد تفقد القلعة في الصباح فوجدها في غاية الضعف ، وأنها عديمة الجدوى للاتين ، فسحب منها الحامية وعاد برجاله الى القسطنطينية^(٢) .

بعد نحره الامبراطور هنري الى القسطنطينية ، نأهب للرحيل الى الجبهة

(1) Villehardouin Op. cit., P. 123-124

(2) Villehardouin. Op. cit., P. 123-125.

البلغارية لتفقد احوال مدينة هادريانوبل بعد التخريب الذى لحقه بها قيصر البلغار جوهانيتزا . ذلك أنه استمر محاصرا لهذه المدينة طوال شهر ابريل ١٢٠٧ ، وأوشكت المدينة أن تقع فى يده ، بعد أن دمر بعض اجزاء من سورها ، وقد التحم رجاله مع المدافعين عنها وتقاتلوا يدا بيد ، وقد ابدى المدافعون عنها شجاعة كبيرة فى التصدى للبلغار وردهم عنها ، وكانت الخسارة كبيرة فى كلا الجانبين نظرا لكثرة عدد القتلى والجرحى . لكن الأحداث تطورت وأدت إلى انسحاب جوهانيتزا من أمام هادريا نوبل ، وتتلخص هذه الأحداث فى أن الكيومان المصاحبين لقيصر البلغار ، بعد أن عاثوا فسادا فى أراضى البلقان ، وحصلوا على الكثير من الغنائم والأسلاب ، عادوا إلى جوهانيتزا أمام هادريا نوبل واختبروه بعزمهم على الرحيل والعودة إلى بلادهم ، وعبثا حاول أن يشبههم عن عزمهم ، فقد تركوه ورحلوا ، ولم يستطع جوهانيتزا البقاء بدونهم نظرا لانهم كانوا يكونون العدد الأكبر من رجاله ، فانسحب من أمام هادريا نوبل وعاد الى بلاده^(١) .

وهكذا اراد الامبراطور هنرى الذهاب الى هذه المدينة لتفقد احوالها بعد انسحاب البلغار من أمامهم ، وبعد الخراب والتدمير الذى لحقه |باسوارها ولتأديب جوهانيتزا على ما ألحقه بها من الدمار . لكن الأنباء جاءت به بخطر الموقف فى آسيا الصغرى بسبب محاولات ثيودور لاسكاريس المتكررة لطرد النفوذ اللاتينى من هناك ، وفى ذلك الوقت قام ثيودور بمحاولة جديدة لحصار مدينة قزيقوس برا ، على حين قام قائد بحريته ويدعى Escurion على رأس اسطول مكون من ١٧ سفينة حربية بحصارها بحرا ، وقد اشتعلت ثورة الأهالى داخل قزيقوس مناهضين للحكم اللاتينى ومؤيدين لثيودور لاسكاريس وقاموا بمهاجمة حاكم المدينة اللاتينى بطرس ورجاله ، وانزلوا بهم نجسائر فادحة فى الأرواح^(٢) . ومعنى ذلك ان ثيودور لاسكاريس بدأ يكسب شعور ولاء اليونان وبدأ يلقي التأييد والمناصرة بعد أن اقتنعوا بأنه يقوم بالدفاع عن قضيتهم ضد اللاتين ، وبعد أن رأوا هزائم اللاتين أمام قوة البلغار .

(1) Ibid: P 126.

(2) Villehardouin: Op cit., PP 126-127

لذلك فقد أجل الإمبراطور هنري رحيله الى هادريا نوبل للمرة الثانية ، وعقد مجلسا للتشاور مع باروناته والبنادقة أيضا ، واجتمعوا على ضرورة الاسراع لنجدة بطرس في قزيقوس وغادر الإمبراطور ورجاله القسطنطينية في ١٤ سفينة حربية وكان معهم أيضا المؤرخ جيوفري فيلهاردوين ، وقد اتخذوا طريقهم نحو قزيقوس . وحين علم قائد اسطول لاسكاريس بذلك انسحب من أمام قزيقوس باتجاه مضيق الهللسبونت ، وقد تبعه اللاتين بسفنهم يومين وليتين ، قطعوا خلال هذه المدة مسافة ٤٠ ميلا ، ولكن لم يعثروا له على أثر فعادوا ادراجهم الى قزيقوس ، التي انسحب ثيودور لاسكاريس من أمامها ، وعاد الى أراضيه^(١) .

عاد الإمبراطور هنري الى القسطنطينية وتأهب للذهاب الى هادريا نوبل ، فجاءته الانباء بهجوم ثيودور لاسكاريس على مدينة نيقوميديا ، وكانت هذه المدينة تتبع نائب الإمبراطور ثييري اوف لوس ، الذي ارسل رجاله الى الإمبراطور هنري لكي يأتوا لنجدةهم فاضطر الإمبراطور هنري الى تأجيل رحيله الى هادريا نوبل للمرة الثالثة ، واتجه الى نيقوميديا ، وما أن علم ثيودور بذلك حتى رفع الحصار وانسحب الى نيقية .

وقد عقد الإمبراطور هنري مجلسا وقرر أن يترك بعض رجاله في المواقع التي تم استيلاء اللاتين عليها ، فقرر أن يستقر ثييري في نيقوميديا مع فرسانه وجنوده ، ويستقر Macaire of Sainte Menchold ورجاله في Charax أما William of Perchol فيستقر برجاله في قزيقوس ويتولى كل واحد من هؤلاء حراسة اراضيه ، وعاد الإمبراطور هنري الى القسطنطينية^(٢) .

وبمجرد وصول الإمبراطور للقسطنطينية جاءته الانباء بتفاقم الأمور في آسيا الصغرى ، ذلك أن ثييري ووليم وعدد من رجالهم خرجوا للرعى ، ففاجأهم رجال ثيودور لاسكاريس ووقعوا بهم ، واسروا كثيرين منهم كان من بينهم ثييري بعد أن جرح في وجهه ، أما وليم فقد فر بعد أن جرح في ذراعه ، ولجأ هو ومن لجا منهم

(1) Ibid: P. 127.

(2) Villehardouin: Op. cit., P. 128.

الى كنيسة سانت صوفيا في نيقوميديا حيث احتسوا بها ، وارسلوا للامبراطور هنرى من أجل نجاتهم ، خاصة وأن رجال ثيودور وعلى رأسهم شقيقه قد حاصروهم بها . فاضطر الامبراطور هنرى تحت ضغط هذه الظروف أن يعود من جديد الى آسيا الصغرى ، وحينما سمع رجال ثيودور بذلك انسحبوا الى نيقية ، أما الامبراطور هنرى فقد عسكر في ضواحي نيقوميديا ، وأرسل رجاله لنهب وتخريب اراضي ثيودور لاسكاريس . وبينما الامبراطور هنرى في موضعه جاءه رسل ثيودور يعرضون عليه الهدنة لمدة سنتين ، على شرط أن يسمح الامبراطور هنرى لثيودور بتدمير تحصينات مدينة قزيقوس — حتى لا يستفيد اللاتين بها — وتحصينات كنيسة سانت صوفيا في نيقوميديا ، وفي المقابل يطلق ثيودور سراح من عنده من اسرى اللاتين^(١) .

وقد تشاور الامبراطور هنرى مع رجاله ، واتفقوا على قبول مقترحات ثيودور ، وعللوا قبولهم بأنه من الأفضل أن يفقدوا بعض التحصينات في آسيا الصغرى ، بدلا من أن يفقدوا مدينة هادريا نوبل وما جاورها من اراضي في البلقان ، وكذلك بقبولهم الهدنة مع لاسكاريس يأمنوا جانبه بدلا من أن يفتحوا على انفسهم جبهتين للقتال ، احدهما في البلقان مع جوهانيتزا ، والاخرى في آسيا الصغرى مع لاسكاريس ، بعد أن تحالف الاثنان معا وصار يساعد كل منهما الآخر ضد اللاتين .

وهكذا تم ابرام الهدنة بين ثيودور لاسكاريس والامبراطور هنرى في ربيع عام ١٢٠٧ ، وتم تسليم قزيقوس وكنيسة سانت صوفيا في نيقوميديا الى ثيودور الذي قام بتخريب حصونهما واستقرت الهدنة بين الطرفين^(٢) .

وقد اعطت هذه الهدنة الفرصة لثيودور لكي يلتفت الى تنظيم شؤونه الداخلية ، فقد اراد ثيودور أن يجعل من نيقية شيئا أكثر اهمية من مجرد مركز لحركة المقاومة ضد اللاتين وأن يجعل نفسه معترفا به كحاكم شرعى على العرش البيزنطى ،

(1) Ibid: PP. 128-129.

(2) Villehardouin: Op. cit., PP 128-129.

فحتى ذلك الوقت كان ثيودور يكتفى بلقب الأمير Despot^(١) ، لأنه كان يدرك تماما ، انه لكي يتوج امبراطورا ، لابد أولا من وجود بطريرك للكنيسة ، يتوجه ويباركه ، لذلك فان الخطوة الأولى أمام ثيودور كانت العمل على إيجاد بطريرك لكنيسة نيقية يكون امتدادا لبطاركة القسطنطينية ، ويكون هو البطريرك الرئيسي والشرعى للكنائس الأرثوذكسية في الشرق . وكان البطريرك الأخير لكنيسة القسطنطينية يوحنا كاماتيروس قد فر عقب سقوط العاصمة في يد اللاتين في ١٢٠٤ الى بلغاريا — كما سبق أن اشرنا الى ذلك — وظل بها . وقد ارسل اليه ثيودور لاسكاريس طالبا منه أن يأتي الى نيقية ، ولكنه لم يستطع تحقيق ذلك بسبب مرضه ، ثم لم يلبث أن توفي في ١٢٠٦^(٢) . وقد جمع ثيودور كل من استطاع جمعه من رجال الدين في نيقية ، ودعاهم لاختيار بطريرك ، وقد وقع اختيارهم في مارس ١٢٠٨ على ميخائيل اوتوريانوس Michael Autorianus ، ليتولى كرسي البطريركية (١٢٠٨—١٢١٢) ، واتخذ اسم ميخائيل الرابع، وأقام في نيقية واتخذ لقب البطريرك المسكونى للقسطنطينية ، واصبح الرأس الشرعى الوحيد للكنائس اليونانية الارثوذكسية .

وقد قام البطريرك بتتويج ثيودور لاسكاريس امبراطورا في الاسبوع الثالث من الصيام الكبير Lent ، وبارك الامبراطور ومسحه بالزيت خلال اسبوع الآلام Holy Week في عام ١٢٠٨^(٣) .

وهناك اختلاف في الرأي حول التاريخ الذى توج فيه ثيودور الأول لاسكاريس امبراطورا . فالمؤرخ البيزنطى نقيتاس خونيائيس ذكر أن التتويج تم في عام ١٢٠٥^(٤)

(1) Miller: The Empire of Nicaea, P. 479.

Ostrogorsky: Op. cit., P. 428, F.N. 2.

(2) Choniates: Historia, II, P. 837.

Georgu Acropolites opera, I, P. 11.

Nicol: The Fourth crusade, in C.Med.H., Vol 1, Ved Hussey P. 295.

(3) Angold: The Byzantine Government in Exile, P. 43. Vasiliev: Op. cit., II, P. 511.

Ostrogorsky: Op. cit., P. 419.

(4) Georgu Acropolites opera, ed Helsenberg, II, P. 18.

Nicol: The Fourth crusade, P. 295.

Vasiliev: Op. cit., PP. 511-512.

Ostrogorsky: Op. cit., P. 428.; Whitting: Byzantium, P. 114.

على حين ذكر المؤرخ اكروبوليتيس أن التتويج تم في عام ١٢٠٨^(١) . لكن الثابت أن اختيار بطريرك نيقية كان في مارس ١٢٠٨ ، وقد تم تتويج ثيودور امبراطورا على يد البطريرك ، لذلك فالأصح هو ما ذكره اكروبوليتيس من أن التتويج تم في مارس عام ١٢٠٨ .

وهكذا تم احياء الامبراطورية البيزنطية مرة أخرى في نيقية ، وأصبح للبيزنطيين امبراطورا وبطريركا شرعيين هما امتدادا للسلطتين العلمانية والاكليريكية في بيزنطة ، واصبحت نيقية نقطة تجمع جديدة وأمل جديد في استرجاع العاصمة الأم القسطنطينية .

وكما سبق أن أوضحنا ، كان قد تم اختيار ثيودور لاسكاريس امبراطورا على اليونان في كنيسة القسطنطينية ، ولكن مراسم التتويج والمسح بالزيت بواسطة البطريرك ، احاطته بها له من القداسة ، ومنحت وظيفته كل الفخامة الامبراطورية ، وأصبح يعتبر الامبراطور الشرعي الوحيد للبيزنطيين واصبح اللقب الرسمي لثيودور هو :

"Theodorus, in christo Deo fidelis, Imperator et Maderator Romeorum et Semper Augustus, Comnenus Lascarus".

وترجمته باللغة العربية كما يلي :

« ثيودور ، المؤمن بالمسيح الرب ، امبراطور الرومان وحاكمهم ، وصاحب الجلالة على الدوام ، لاسكاريس كومنينوس » .

واصبح التوقيع الرسمي لثيودور على الوثائق الرسمية بالخبر الاحمر هو « الباسيليوس المقدس ، والأتوقراطور الروماني » . وهو نفس توقيع الاباطرة البيزنطيين السابقين^(٢)

وقد أحيى ثيودور لاسكاريس جميع النظم والتقاليد البيزنطية العريقة ، التي

(1) Nicetas choniates: Historia, ed. Bonn, P. 828.

(2) Angold: A Byzantine Government in Exile, P. 37.

وجدت تعبيرها الرمزي في شخصي الامبراطور والبطريك . وفي مجال الادارة والخدمات المدنية والبلاط الامبراطوري والنظم العسكرية ، بل وفي ميدان السياسة الخارجية أيضا ، أُعيد احياء كل ذلك من جديد على نفس الأسس البيزنطية العريقة^(١) .

وكان ثيودور يعتقد اعتقادا راسخا بأنه بعد سقوط القسطنطينية في يد اللاتين عام ١٢٠٤ ، انتقلت النظم والتقاليد البيزنطية العريقة الى نيقية ، حيث اجلس الله برحمته امبراطورا على العرش بها ، واصبح لزاما على الامبراطور — مثله مثل موسى من قبل — أن يقود شعبه ويحرره من الأسر ، وأن يستعيد وحدة اراضي الامبراطورية .

ويظهر ذلك بوضوح في هذه الفقرة التي جاءت في خطبة العرش التي القاها ثيودور لاسكاريس بعد تنويجه ، والتي جاء بها ما يلي :

« سلطتي الامبراطورية ، وُضعت بفضل السماء ، كوالد للدولة الرومانية العالمية ، ارادة الله امدتني بالقوة ، وحدة الامبراطورية تستلزم وحدة الكنيسة ، قطيعا واحدا وراعيا واحدا »^(٢) .

وقد أدت هذه الاجراءات التي اتخذها ثيودور لاسكاريس في نيقية ، الى اشتعال الصراع بينه وبين سلطنة قونية Iconium السلجوقية التي كان يدين لسلطانها الجزء الأعظم من آسيا الصغرى ، ذلك أن اتخاذا ثيودور لاسكاريس لنيقية عاصمة له ومركزا للامبراطورية المنفية ، قد أحيا الصراع البيزنطي السلجوقي القديم بعدما وجد عائقا هاما امام التوسع السلجوقي غير باقي اتجاه ساحل البحر

(١) عن كل هذه المجالات والنظم التي سارت عليها امبراطورية نيقية البيزنطية ، راجع الكتاب التالي الذي يعتبر مرجعا هاما في هذا الموضوع :

Angold: A Byzantine Government in Exile, Government and Society Under the Laskarids of Nicaea, 1204-1261, Oxford University Press. 1975.

Glykatz-Ahrweiler: "La politique agale des Empereurs de Nicee". dans la Revue de (Byzantion). tome XX VIII, Bruxelles, 1958. PP. 51-66.

(2) Vasiliev: Op. cit., Vol. 2, PP. 513-14.

Angold: Op. cit., P. 13.

الايجي . أضف لذلك أن تتويج ثيودور لاسكاريس امبراطورا في نيقية جعل والد زوجته وهو الامبراطور السابق لبيزنطة اليكسيوس الثالث انجيلوس (١١٩٥-١٢٠٣) يفر الى السلطان السلجوقي ، ويسأله أن يعاونه على استرداد عرشه المفقود ، وابعاد ثيودور عن عرش نيقية ليحل هو أى اليكسيوس ، محله امبراطورا على الشعب البيزنطى .

وقد أرسل السلطان السلجوقي يتوعد ثيودور إن لم يتنازل عن عرشه لمحبيه اليكسيوس ، وقد قرب العداء لثيودور ومحاولة تدميره بين كل من اللاتين والسلاجقة ، وجعلهما حليفان يسعيان معا للقضاء عليه ، وقد توسط البنادقة بين الامبراطور هنرى وبين سلطان سلاجقة الروم ويدعى غياث الدين كاي خسرو الاول ، وتم عقد اتفاقية سرية بين الطرفين فى عام ١٢٠٩ وبناء عليه أمد الامبراطور اللاتينى السلطان السلجوقي بقوات من اللاتين حاربت الى جانبه ضد ثيودور^(١) .

وقد قام السلطان السلجوقي بالتعدى على أراضى ثيودور لاسكاريس ، ولم يكن ثيودور بالذى يرضى بهذا التعدى ، فاشتعلت معركة ضارية بين الطرفين فى ربيع عام ١٢١١ بالقرب من انطاكية على شاطئ نهر الميادر ، وكان جيش ثيودور يتكون من عشرين ألفا من بينهم ثمانمائة فارس من اللاتين المرتزقة الذين وقع عليهم البابا اينوسنت الثالث قرار الحرمان لتعاونهم مع البيزنطيين المنشقين^(٢) . وقد اظهروا شجاعة فائقة وانزلوا خسائر فادحة بالأتراك ، ولكن الغالبية العظمى منهم سقطت قتلى فى ميدان المعركة ، وقد اشتبك ثيودور فى معركة منفردة مع السلطان السلجوقي ، قتل اثناءها السلطان ، ودخل ثيودور مدينة انطاكية منتصرا ، أما الامبراطور السابق اليكسيوس انجيلوس فقد تم اسره واجبر على التهرب ، وقضى البقية الباقية من حياته فى دير Hyakintlos فى نيقية^(٣) .

(1) Gregoras: Historiae Byzantinae, I, PP. 17-18.

Ostrogorsky: Op. cit., P. 429.

Nicol: Op. cit., P. 295.

(2) Miller: The Empire of Nicaea, P. 484.

(3) Georgu Acropolitae opera, I, P 17

والواقع أن هذه المعركة لم تعطى ثيودور تغييرات اقليمية كبيرة ، ولكن نتائجها الأدبية والمعنوية كانت عظيمة القيمة ، فقد أكدت أن الامبراطورية الناشئة قد أحيت التقليد البيزنطى القديم الخاص بالنضال ضد المسلمين ، وحرزت أولى انتصاراته ، كما كان من نتائجها كذلك الزام اليونان الباقين على قيد الحياة والمطالبين بالعرش الامبراطورى البيزنطى بالصمت . كما ملأت بالفرح والحماس قلوب الشعب البيزنطى ليس فقط فى آسيا الصغرى ، ولكن فى أوروبا كذلك ، الذين نظروا الى نيقية على أنها مركزهم ونقطة تجمعهم .

وقد توصل السلطان السلجوق الجديد الى التفاهم مع ثيودور ، ونشأت بينهما علاقات ودية ، وبذلك ضمن ثيودور بجانب الاتراك السلاجقة الذين يعتبرون اقرب جيرانه ، وبدأ يوجه انتباهه من جديد نحو استئناف النضال ضد اللاتين .

وقد ارسل ثيودور بعد انتصاره على السلاجقة رسائل الى كل الأقاليم اليونانية ، اذاع فيها انتصاره ، وطلب منهم بذل المساعدة له بوصفه امبراطورهم الشرعى ، ووعدهم اذا أموه بالمساعدة فانه سوف يأت اليوم الذى يحررهم فيه ويحرر أراضهم من هؤلاء (اللاتين الكلاب)^(١) .

وقد قام ثيودور بمحاولة للاستيلاء على العاصمة القسطنطينية بعد أن شجعه هذا الانتصار ورفع روحه المعنوية ، فحاصرها باسطوله وهاجمها ، غير أن هذه المحاولة لم تنجح ، لأن امبراطورية نيقية كانت لاتزال حتى ذلك الوقت ، محدودة الامكانيات سواء من الناحية العسكرية أو المادية أو البشرية . وقد نقل الامبراطور اللاتينى هنرى المعركة الى ارض آسيا الصغرى نفسها حيث ممتلكات ومقر ثيودور لاسكاريس ، وخاض ضده معركة على ضفاف نهر Rhyndacus غير بعيد عن بروسا ، وذلك فى ١٥ أكتوبر ١٢١١ وحرز هنرى الانتصار ، وتقدم جنوبا واستولى على مدينتى Pergamum et Nymphaeum وبعض المواقع الأخرى^(٢) . وقد ارسل

(1) Georgii Aetropolitae opera, P 27

(2) Recueil des Capitulaires et de la France, ed. Bouquet, deuxième édition, Paris, 1879, PP

هنرى من برجاموم فى بداية عام ١٢١٢ . خطابا وجهه « الى جميع الأصدقاء » جاء فيه : « أن العدو الأول والأكبر هو لاسكاريس الذى استولى على كل الأرض بجوار شاطيء سان جورج (مضيق البسفور) حتى حدود الاتراك ، وظهر كإمبراطور ، وهو غالبا يهاجمنا من هذا الاتجاه ... لقد جمع لاسكاريس عدد كبير من السفن الحربية لكى يستولى على القسطنطينية ، علاوة على أن المدينة ترتجف فى خراب عظيم الى حد أنهم يأسوا من عودتنا (من آسيا الصغرى) . كثيرين من شعبنا خططوا للفرار عبر البحر ، وعدد عظيم عبروا البحر الى لاسكاريس ووعده بالمساعدة ضدنا ... جميع اليونان تدمروا ضدنا ووعدهوا لاسكاريس بالمساعدة ، اذا ما جاء لقتال القسطنطينية » .

وقد انتهى الخطاب بنداء موجه لللاتين من أجل مساعدة هنرى : « لاحتراز الانتصار التام وامتلاك إمبراطوريتنا نحتاج الى عدد كبير من اللاتين نستطيع أن نمنحهم الأرض التى نكسبها ، والتى اكتسبناها بالفعل ، لأنه كما تعلمون ، ليس كافيا اكتساب الأرض ولكن يجب أن يكون هناك من يستطيع أن يحافظ عليها » (١) .

ويظهر بوضوح من خلال هذا الخطاب أن هنرى يعتبر ثيودور لاسكاريس عدوه الأساسى الذى يرغب فى تدميره والقضاء عليه . كذلك يتضح من هذا الخطاب أن ثيودور أصبح هو الجانب الأقوى ، بدليل أن اللاتين أنفسهم بدأوا يتحازون اليه وينضمون الى جانبه ، بالإضافة الى اليونان أيضا الذين رأوا فى ثيودور رجل الساعة الذى التفوا حوله لكى يخلصهم من اللاتين ويعيد اليهم أرضهم المسلوبة وحقهم الضائع . كذلك يتضح من هذا الخطاب أن هنرى يريد المزيد من اللاتين من أجل توطينهم واستقرارهم فى الأراضى التى يتم له فتحها واغتصابها من ثيودور حتى يصبح للعنصر اللاتينى التفوق والغلبة فى هذه المنطقة .

(١) Recueil des historiens des Gaules et de la France, ed. Bouquet, deuxième édition, 1879, PP. 530-533.

لكن جهود هنرى ذهبت ادراج الرياح ، ولم يجد أى استجابة من الغرب الاوروى ، وفى النهاية تم عقد اتفاقية بين هنرى وثيودور لاسكاريس فى مدينة Nymphaeum فى ديسمبر عام ١٢١٤ تم بمقتضاها تحديد الحدود بين الطرفين ، فاحتفظ اللاتين بالركن الشمالى الغربى من اقليم بيشنيا ، أى انهم اكتسبوا شريطا ساحليا آسيويا لبحر مرمره ورقعة هامة ممتدة على طول البحر الايجى ، واصبحت مدن Nicomedia, Cyzicus, Pegae and Adramyttium تابعة للإمبراطور اللاتينى

أما الجانب النيقى فقد أخذ نيقية ، بروسا ، والأقليم الواقع خلف Adramyttium ويمتد حتى Smyrna^(١). وترك لنيقية حرية امتلاك أية اراضى جديدة على حساب السلطنة السلجوقية ، أو على حساب الجيران الآخرين . كذلك نص على عدم حصار القسطنطينية بحرا بواسطة اسطول ثيودور لاسكاريس^(٢) .

وهكذا اعترف كل من الامبراطورين اللاتينى هنرى واليونانى ثيودور بحق كل منهما فى البقاء ، ووقفوا محاولات تدمير كل منهما لمنافسه ، ونشأ توازن فى القوى فى هذه المنطقة . وقد بدأ ثيودور يلتفت الى اعدائه الآخرين المجاورين له فى آسيا الصغرى ، ونتيجة للسلام النيقى اللاتينى كان انهيار قوة آل كومنين على شواطئ البحر الأسود .-

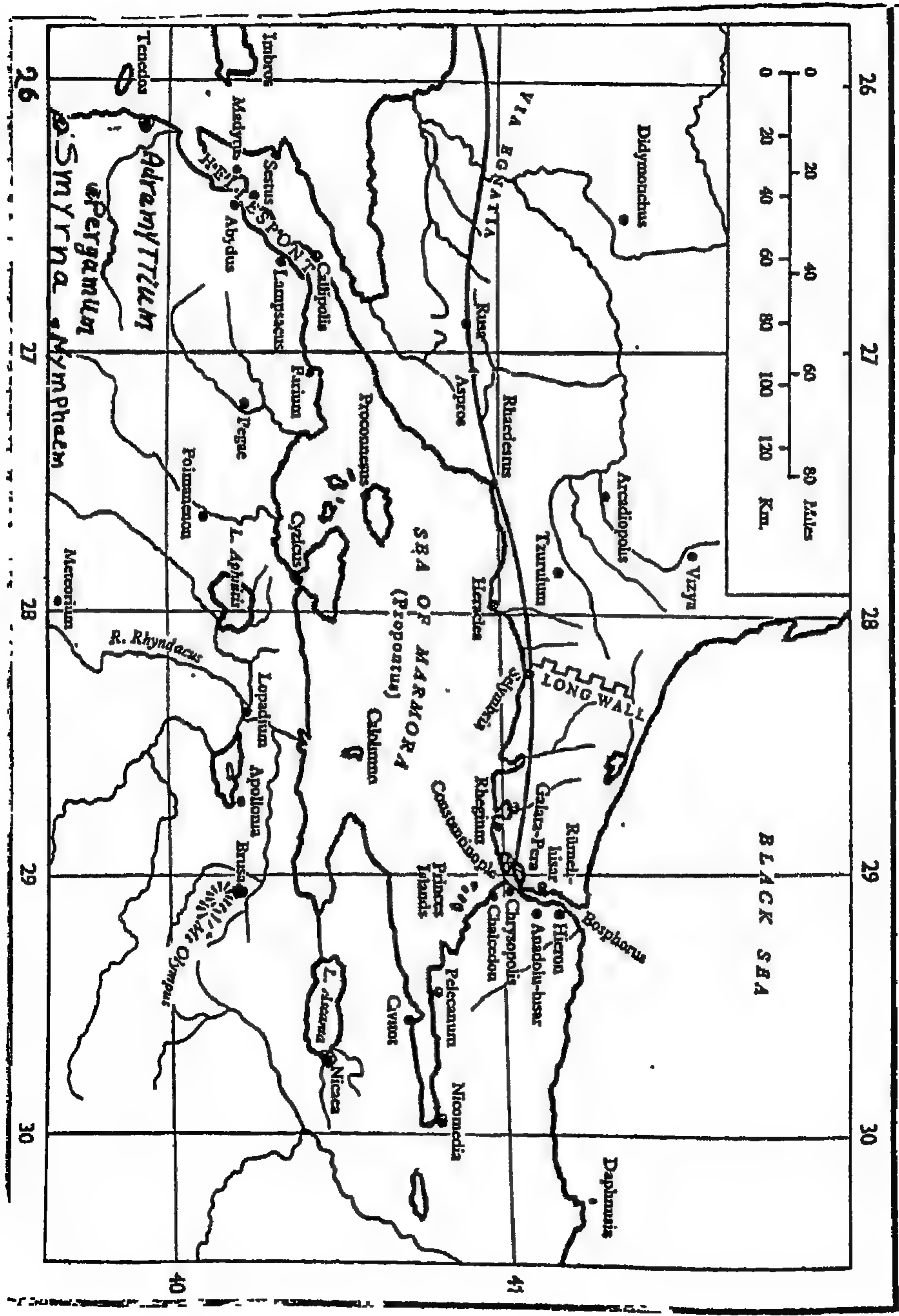
ذلك أن دافيد كومنين الذى كان قد أصبح فصلا لامبراطور القسطنطينية اللاتينى وبالتالي تحت حمايته ، قد ترك بعد هذه المعاهدة بين هنرى وثيودور ، لموارده الخاصة ولل اعتماد على نفسه دون مساعدة الامبراطور اللاتينى . وهكذا أصبح غير قادر على الوقوف وحده فى وجه امبراطور نيقية . وفى نفس عام ١٢١٤ ، استولى ثيودور لاسكاريس على كل ما يمتلكه آل كومنين غرب سينوب بالإضافة الى هرقلية واماستريس Amastris وبذلك بدأ نفوذ ثيودور لاسكاريس يظهر على الساحل الجنوبى للبحر الأسود ، بعد أن أوجد لنفسه منفذا على هذا البحر ، وهذا بطبيعة الحال لم يرض السلاجقة الذين دخلوا فى صراع مع آل

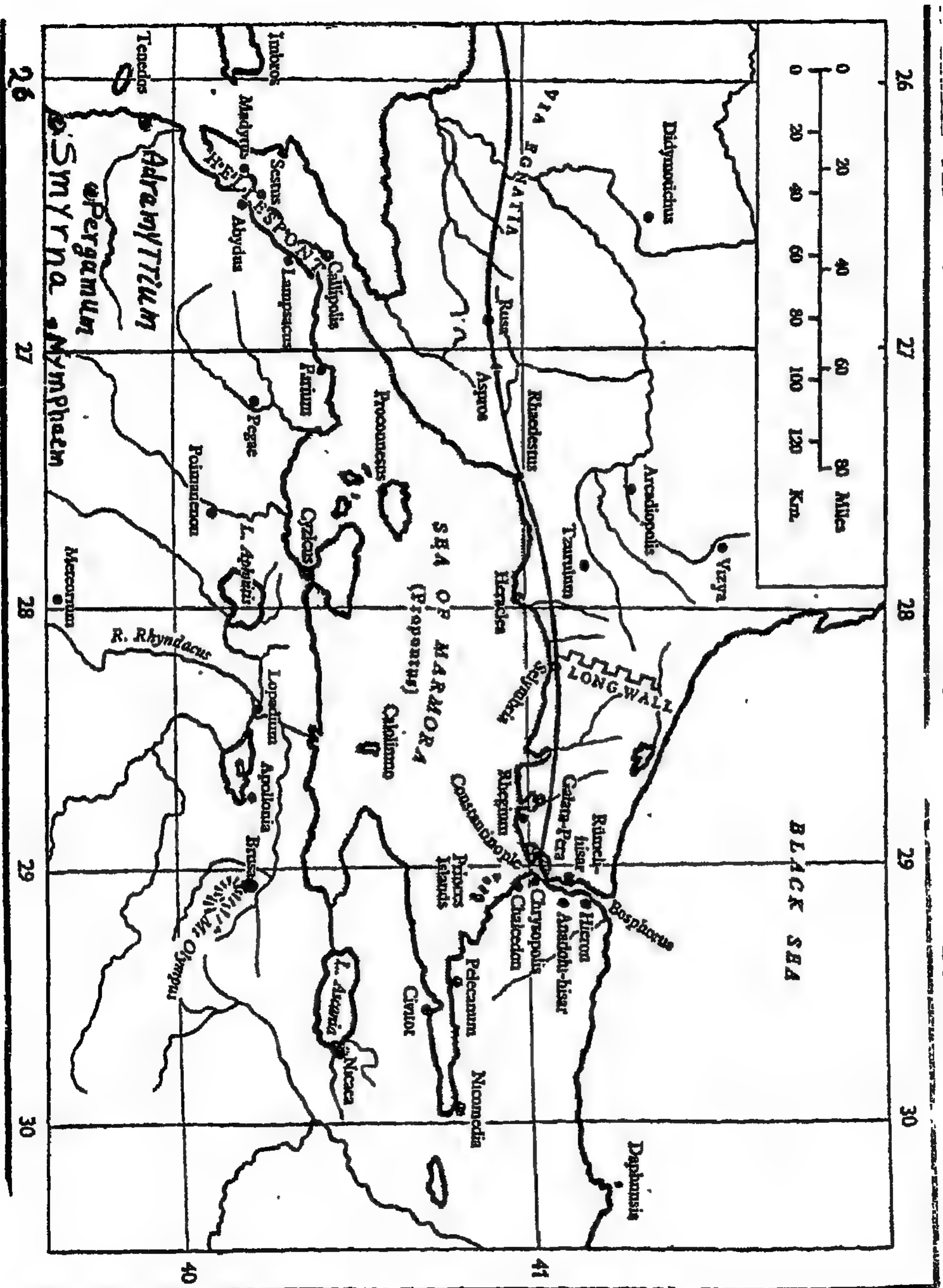
(١) Georgii Acropolitae opera, PP. 27-28.

Brehier: Vie et mort de Byzance, PP. 308-309.

Ostrogorsky: Op. cit., P. 430.

(١) انظر الخريطة .





كومنين واحتلوا سينوب ، وهزموا وقتلوا دافيد ، وأسروا شقيقه اليكسيوس ، وعندئذ أعادوه على عرش طرابيزون ، فضلاً لسلطان قونية السلجوقي يدفع له الجزية السنوية^(١) .

وفي اغسطس عام ١٢١٩ عقد لاسكاريس هدنة لمدة خمس سنوات مع الحاكم البندقى بالقسطنطينية The Padesta of the Venetian Colony of Constantinople ويدعى يعقوب تيبولو Jacob Tiepolo الذى خلف هنرى داندولو بعد وفاته فى عام ١٢٠٥ ، احيا بمقتضاها التقليد البيزنطى القديم الخاص باعفاء التجار البنادقة من دفع الرسوم الجمركية فى اراضى امبراطورية نيقية وفتح الحدود بين الطرفين للتجارة ، وتعهد ثيودور بعدم حصار القسطنطينية بحراً^(٢) .

وهكذا عادت الهدنة بين هنرى وثيودور بالفائدة على امبراطورية نيقية التى تمتعت اثناء هذه الهدنة بالاستقرار والرخاء ، بينما اخذت امبراطورية القسطنطينية اللاتينية فى التدهور والاضمحلال ، وخاصة بعد وفاة الامبراطور هنرى فى عام ١٢١٦ .

وقد وجد ثيودور لاسكاريس أن محاولاته العسكرية لم تفلح فى استرداد العاصمة القسطنطينية من يد اللاتين ، لذلك لجأ الى طريق آخر عله يحقق بواسطته ما عجزت القوة العسكرية عن تحقيقه ، ودل هذا على سعة ادراك وحسن سياسى ممتاز ، فقد تجاوز ثيودور حاجز العداء السياسى بينه وبين اللاتين ، ولجأ الى طريق المصاهرة مع الأسرة الحاكمة فى القسطنطينية ، حتى يؤول الى اسرته عرش بيزنطة عن طريق الميراث فى يوم ما ، وهو ما يطلق عليه اسم (زواج التحالف) Intermarry .

وتفضيل ذلك، انه بعد وفاة الامبراطور اللاتينى هنرى فى عام ١٢١٦ ، وقع اختيار البارونات على زوج شقيقته بطرس اوف كورتناى Peter of Courtenay الذى كان

(1) Ostrogorsky: Op. cit., P. 413.

Nicol: Op. cit., P. 300-301.

(2) Ostrogorsky: Op. cit., P. 431.

Nicol: Op. cit., PP. 300-301

حيثُذ بفرنسا ، ليحل محله على عرش القسطنطينية ، وفي بداية عام ١٢١٧ خرج بطرس من الأراضي الفرنسية في طريقه الى القسطنطينية ، وتوقف في روما ليستلم تاجه من البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦-١٢٢٧) الذي توجه في سان لورنزو خارج اسوار روما في ٩ ابريل ١٢١٧ ، وبعد ذلك اتخذ طريقه الى القسطنطينية عن طريق البر مصحوبا بالمندوب البايوى وجيش مكون من ٥٥٠٠ جنديا ، اما زوجته يولاند Yoland فقد واصلت رحلتها الى القسطنطينية عن طريق البحر ، ونجح بطرس وجيشه في استعادة ديراخيوم Dyrrachium من ثيودور دوقاس حاكم ايروس ، وواصلوا سيرهم برا الى القسطنطينية ، لكنه لم يقدر لبطرس أن يصل الى القسطنطينية ، حيث انه اختفى في الطريق ، بينما وصلت زوجته يولاند للقسطنطينية ، وهناك واجهتها مشكلة الحكم ، وقد رفض ابنها الأكبر ويدعى فيليب أن يترك فرنسا ، أما ابنها الثاني بلدوين فكان صغير السن قال العرش اليه وحكمت يولاند كوصية عليه لمدة سنتين . وكان ليولاند ابنتان تزوجت احدهما وهي Agnes من جيوفري فيلهاردوين الثاني وريث عرش مملكة أنخيا ، وقد وجدها ثيودور لاسكاريس فرصة مناسبة ليتزوج ابنتها الثانية ماري Mary ، وخاصة وأنه كان بلا زوجة بعد انفصالة عن زوجته الثانية^(١) . وبالفعل تم زواجه للمرة الثالثة من ماري ابنة يولاند ، وابنة اخت أول امبراطورين لاتينيين توليا عرش القسطنطينية^(٢) .

وهكذا ارتبط ثيودور لاسكاريس برابطة المصاهرة مع البيت الحاكم في القسطنطينية ولم يكتف ثيودور بذلك وإنما سعى لزواج ابنته من امبراطور القسطنطينية ذلك أن بلدوين تولى العرش بعد وفاة والدته في عام ١٢١٩ باسم

(١) الزوجة الثانية لثيودور الأول لاسكاريس كانت احدى الاميرات الارمينيات ، ولكن الزواج لم يستمر سوى عام واحد وانتهى بالطلاق ، راجع

Georgu Acropolitae opera, P. 27.

(2) Georgu Acropolitae opera, PP. 27, 31.

(٣) حكم روبرت اوف كورناتى من ١٢٢١ - ١٢٢٨ ، ثم عاد بلدوين الثانى للحكم من ١٢٢٨ - ١٢٦١ وهو

بلدوين الثاني ، وحكم حتى عام ١٢٢١ ، ثم تولى الحكم شقيقه روبرت أوف كورتناى Peter of Courtenay فى ٢٥ مارس عام ١٢٢١^(١) . وقد سعى ثيودور لاسكاريس لزواج ابنته Eudocia من روبرت أوف كورتناى ، وظلت المفاوضات جارية بين الطرفين بشأن هذا الزواج حتى حالت وفاة ثيودور فى عام ١٢٢٢ دون اتمامه .

وهكذا وضعت الخاتمة لحياة هذا البطل الذى قدر له أن يشهد مرارة الظروف . وصعوبة الموقف الخاص بسقوط القسطنطينية فى يد الغزاة اللاتين .

== آخر امبراطور لاتينى يتولى عرش القسطنطينية ، علما بأن حنادى بربروس حكم نابا عن بلدوين فى الفترة من ١٢٣١-١٢٣٧ . راجع

{1} (Ostrogorsky op cit P 307)

الخاتمة

استعرضنا على امتداد هذا البحث ، الدور الذى لعبه ثيودور الأول لاسكاريس وجهوده العسكرية والسياسية من أجل الصمود فى وجه اللاتين ، ومقاومتهم ، واتخاذ لبروسا ثم نيقية مركزا لجمع العناصر البيزنطية المشتقة ، وقاعدة لنضال الشعب البيزنطى ضد المغتصبين اللاتين .

وفى تقييم الدور الذى لعبه ثيودور لاسكاريس ، يمكن القول أنه لم يدخر جهدا عسكريا أو سياسيا فى سبيل العمل على استرجاع العاصمة القسطنطينية من يد اللاتين . ويدين البيزنطيون لثيودور ، وباعتراف مؤرخيهم ، باحياء الامبراطورية البيزنطية من جديد ، رغم الصعوبات الجمة التى قابلها ، ورغم تعدد الاعداء المحيطين به . وفى وسط هذا كله ، اكتسب الاعتراف به كزعيم للهيلينسنية . وقد ارسى ثيودور القواعد الأساسية للحكم فى نيقية ، تلك القواعد التى سار عليها خلفاؤه من بعده حتى تمكنوا من استعادة العاصمة الأم فى عام ١٢٦١ .

فمن حيث اختيار المكان الذى يتخذ مركزا وقاعدة لحركة المقاومة ضد اللاتين ، كان هو الذى اختار مدينة نيقية فى آسيا الصغرى ، وكان هذا الاختيار مناسبا وموفقا للغاية نظرا لقرب نيقية من العاصمة القسطنطينية ، مما هيا له اقلاق راحة الامبراطور اللاتينى ، وجلب له المتاعب المستمرة على النحو الذى سبق أن تعرضنا له ، وهيا للبيزنطيين سرعة الحركة حينما سنحت لهم الظروف لاسترداد العاصمة القسطنطينية فى عام ١٢٦١ بخلاف الحال اذا ما كان وقع اختيار ثيودور على مكان آخر بعيد .

ورغم صعوبة الظروف وقلة الموارد إلا أنه تمكن من اعداد وتنظيم جيشا واسطولا كانا اساسا للقوة العسكرية لامبراطورية نيقية البيزنطية ، تلك القوة التى احرزت الانتصار على الاعداء سواء فى عصر ثيودور نفسه أو فى عصور ما تلاه من اباطرة .

وقد حاول ثيودور بقدر المستطاع أحياء النظم العسكرية البيزنطية التي وجدت في القرن الثاني عشر الميلادي ، واعتمد على الجنود المرتزقة كمادة البيزنطيين دائما ، فاستعان بالجنود المرتزقة من عناصر الجرمان ، الاتراك ، الأرمن ، بل ومن اللاتين انفسهم^(١) .

ومن الصعب تقدير عدد الجيش في عهد ثيودور ، وأن كان يفهم مما أورده المؤرخان اكردبوليتيس وجريجوراس ان عدد الجيش النقي في معركة انطاكية مع السلاجقة في عام ١٢١١ كان حوالي العشرين ألفا ، منهم ثمانمائة فقط من المرتزقة اللاتين^(٢) .

وفي بداية عهده كان يعهد بقيادة الجيش الى أحد الاشخاص المقربين اليه ، ولكن في الغالب كان ثيودور يقود الجيش بنفسه ، كما فعل في معركة انطاكية مع الاتراك السلاجقة وغيرها من المعارك مع اللاتين^(٣) .

وفي أواخر عهد ثيودور لاسكاريس بدأ يظهر منصب الدمشق الأعظم ، وعهد به الى اندرونيكوس باليولوجوس Andronikos Palaiologos وهو والد الامبراطور ميخائيل باليولوجوس ، وقد استمر اندرونيكوس في هذا المنصب حتى وفاته في عام ١٢٤٧^(٤) .

أما عن الاسطول فقد حاول ثيودور تكوين اسطول لنيقية منذ البداية ، وقد جمع ثيودور اسطولا صغيرا كان مقره بحر مرمرة ، وفي البداية كان لا يزيد عن ١٢ مركبا Vessel ، وبالطبع كان محدود النشاط ، ثم استطاع ثيودور بعد ذلك أن يجمع اسطولا مكونا من سبعة عشرة سفينة Galleys ، وعهد بقيادته الى Eursion الذي كان قائد للأسطول في عهد الامبراطور اسحاق الثاني انجيلوس^(٥) .

(1) Georgu Acropolitae opera, I, P. 16, 11, PP. 6-8, 16-20.

Gregoras: Historiae Byzantinae, I, P. 18, 11, PP. 17-18.

(2) Georgu Acropolitae opera, I, P. 116, 11, PP. 6-8, 16-20.

Gregoras: Hist. Byz. I, P. 18, 11, PP. 17-20.

(3) Georgu Acropolitae opera, I, P. 29, 11, PP. 4-5.

(4) Gregoras: Historiae Byzantinae, I, P. 69, 11, PP. 11-12.

(5) Nicetas choniates: Historia, PP. 636-637.

وقد جاء ذكر للاسطور النيقى فى عهد ثيودور لاسكاريس فى المعاهدة التى أبرمت بينه وبين اللاتين فى عام ١٢١٤ ، وفى الأتفاقية التى وقعت بينه وبين البنادقة فى عام ١٢١٩ ، وكان بهما نصا خاصا بعدم مهاجمة أو حصار اسطول ثيودور لمدينة القسطنطينية على النحو الذى تم توضيحه من قبل . وكان هذا الأسطول هو نواة الأسطول الكبير الذى امتلكته امبراطورية نيقية البيزنطية فى عهدها التالية ، والذى احرز الانتصارات البحرية فى عهد يوحنا فانتازيس (١٢٢٢-١٢٥٤) خليفة ثيودور الأول وزوج ابنته اميرين ، تلك الانتصارات التى أسفرت عن الاستيلاء على العديد من الجزر الهامة فى البحر الايجى مثل جزر لسبوس ، خيوس ، ساموسى ، ايكاريا ، كوس وغيرها ، وادخلها تحت سيادة امبراطورية نيقية البيزنطية^(١) .

هذا وقد آمن ثيودور ايمانا عميقا بقيمة الكهنوت كقوة سياسية وقومية ، لذلك فقد أسس البطريركية فى عاصمته نيقية ، وأبد جهود البطريرك من أجل اتحاد الكنائس اليونانية . وقد أثرت جهوده فى هذا المجال ونظر الى امبراطورية نيقية من جانب العناصر الموجودة فى شبه جزيرة البلقان كوريثة لبيزنطة ومركز الارثوذكسية ، وعلى سبيل المثال ، فقد تجاهل ساقا Sava ابن ستيفن فيمانيا Steven Nemanja ابرشية اوخريدا Ochrida التى تخضع لها الكنيسة الصربية ، واتجه الى نيقية ، وفى عام ١٢١٩ رسمه بطريرك نيقية رئيسا لاساقفة الصرب^(٢) . وهكذا أصبحت لبطريركية نيقية وبطريركها المكانة الأولى فى الصلوات فى الكنيسة الصربية وكان هذا علامة ظاهرة على نمو الاحترام لامبراطورية نيقية البيزنطية .

وقد حرص ثيودور على أن تتم مراسم تتويجه فى نيقية على يد البطريرك ، وبذلك اكتسب الصفة الشرعية للحكم ، خاصة وأن رجال الدين البيزنطيين ، وعلى رأسهم بطريرك القسطنطينية كانوا قد سبق لهم أن اختاروه امبراطورا شرعيا قبل سقوط القسطنطينية فى يد اللاتين فى عام ١٢٠٤ . وبذلك أضفى ثيودور على

(1) Georgu Acropolitae opera, I, 88, II, 12-14.

Gregoras: I, PP. 28-29.

(2) Ostrogorsky: Op. cit., P. 431.

خلفائه من اباطرة نيقية هذه الصفة الشرعية ، باعتبارهم الشعب البيزنطى الاباطرة الرسميين لهم وذكرهم المؤرخون البيزنطيون في قائمة الاباطرة البيزنطيين مثلهم مثل الاباطرة الذين حكموا في بيزنطة نفسها وذلك بخلاف اباطرة طرابيزون أو ايروس .

وقد اعجب الفرنجة بشجاعة ثيودور ومهارته العسكرية والسياسية ، فقد كان يمتلك الجرأة في كلا المجالين ، واستفاد من فرص ضرب عنصر بآخر كما فعل مع البلغار واللاتين ، واستخدم البلغار لخدمة نضاله ضد اللاتين وتحريكهم في الوقت المناسب لهذا الغرض .

والمعروف أن الامبراطور ميخائيل باليولوجوس هو الذى استرد القسطنطينية في عام ١٢٦١^(١) ، ولكن الفضل في استرداد القسطنطينية في عام ١٢٦١ لا يرجع الى ميخائيل باليولوجوس وحده ، فلا يمكن بأى حال من الأحوال اغفال جهود اباطرة نيقية السابقين له ، وخاصة مؤسسها ثيودور الأول لاسكاريس . وكما هو معروف فان استعادة القسطنطينية في عام ١٢٦١ لم يكن بناء على حرب خاضها ميخائيل باليولوجوس ، وإنما كانت بدافع من الشعور القومى للقوة الاستكشافية الصغيرة التى كلفت برصد حركات البلغار ، فوجدت امكانية استرداد العاصمة الأم فلم يتوان أفرادها عن القيام بواجبهم في هذا الصدد^(٢) ، وكان المحرك والدافع الأول لهذه القوة الصغيرة هو الشعور القومى الذى حافظ عليه ونماه ثيودور الأول لاسكاريس وليس بناء على أوامر عسكرية صدرت إليها من الامبراطور ميخائيل باليولوجوس لاسترداد العاصمة، ولو لم يحافظ ثيودور على هذه الروح القومية ويعمل على تنميتها واحياء التقاليد البيزنطية العريقة ، ويرسى قواعد الحكم في نيقية على أساس رفع راية النضال ضد اللاتين ، لانتهد القضية البيزنطية واندثرت بعد أن خرجت امارتا

(١) Vasiliev: Op. cit., Vol. 11, P. 507.

Brehier: Vie et mort de Byzance. PP. 318-321.

Ostrogorsky: Op. cit., PP. 448-449.

(2) Nicol: The Fourth Crusade and the Greek and latin Empires, 1204-1261, PP. 327-328.

Ostrogorsky: Op. cit., P. 449.

Brehier: Vie et mort de Byzance. PP 320-321

ايروس وطرايزون من حلبة الصراع حول استرداد القسطنطينية من يد اللاتين ،
وشغلنا بمشاكلهما المحلية عن تحقيق هذا الهدف القومى .

وهكذا يمكننا القول ، ونحن مطمئنون تماما ، أن امبراطورية نيقية البيزنطية ،
كانت بمثابة الجسر الذى عبر عليه الشعب اليونانى الأرثوذكسى ، من عصر
السقوط فى عام ١٢٠٤ الى عصر الاسترداد فى عام ١٢٦١ ، من عصر الأنهار الى
عصر القوة ، من عصر الهزيمة الى عصر الانتصار ، من عصر الغربة والضياع
والتشرد ، الى عصر الامان والانتماء والاستقرار فى أحضان الأم الحبيبة
القسطنطينية .

وبما لاشك فيه أن الفضل فى ذلك كله يرجع والى حد كبير الى مؤسسها
ثيودور الأول لاسكاريس ، الذى استحق عن جدارة هذه الكلمات الصادقة التى
رثاه بها فى حفل تأبينه ، الشاعر المؤرخ ورجل الدين ميخائيل اكوميناتوس ، تلك
الكلمات التى توضح بجلاء مكانة ثيودور لاسكاريس فى نفس ووجدان الشعب
البيزنطى ، قال اكوميناتوس^(١) :

« هاجم البرابرة العاصمة بعنف ، واغرقوا اسوار بيزنطة حتى شواطىء آسيا
الصغرى فى شكل شظى يائس . وقد تسلحت بك من أجل الأرشاد والأنقاذ .
أنت يجب أن تسمى الى الأبد ، المؤسس الجديد ، والمعمار لمدينة قسطنطين .
ينظرون اليك ، أنت فقط ، ويطلقون عليك اسم المخلص والمحرر الهام ، للشعب
الغارق فى الطوفان الجارف .

اتخذوا دولتك ملجأ يلودون به ، كما يلودون بمرقا الأمان . لا أظن أن أحدا من
الأباطرة الذين حكموا القسطنطينية يتساوى معك ، فيما عدا باسيل العظيم
سفاح البلغار ، ومن قبله هيراقليوس » .

- . . . -

(1) Michael Acominatus, ed Lampros, PP. 150-151 in Greek.

المصادر والمراجع

References

- 1 - Allen: A History of the Georgian People, 1932.
- 2 - Angold: A Byzantine Government in Exile, 1204-1261, Oxford, 1975.
- 3 - Barrachough (G.): The Medieval Papacy, London, 1975.
- 4 - Brehier (L.): Vie et mort de Byzance, ed. Albin Michel, Paris, 1969.
La Civilisation Byzantine ed. Albin Michel, Paris, 1970.
L'institutions de L'empire Byzantine, ed. Albin Michel, Paris, 1970.
- 5 - Choniates (N.): Historia, ed Bekker, In corpus scriptorum Historiae Byzantinae, Bonn, 1935.
- 6 - Clari (R.): La Conquete de constantinople, editée par lauer, Paris, 1924.
- 7 - Diehl (ch.): Une Republique Patricienne, Venise (Bibliothèque de philosoph Scentirique), 1928.
- 8 - Foord: The Byzantine Empire, London, 1911.
- 9 - Gardnèr (A.): The lascarids of Nicaea, London, 1912.
- 10- Gelzer (H.): Abriss der Byzantinischen Kaiesergeschichte, Munich, 1897.
- 11- Georgu Acropolites, Opera, ed. Heisenberg, Leipzeg, 1903.
- 12- Gibbon (E.): The decline and Fall of the Roman Empire, 6 Vols, New York, 1976.
- 13- Glykatzi-Ahrweiler: "La politique agaire des Empereurs de Nicée" dans la Revue de (Byzantion), tome XXV 111, Brux elle, 1958.
- 14- Gregoras (N.): Historiae Byzantiwae, ed. Weberi, Bonn, 1829.
- 15- Grousset (R.): Histoire des croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, Paris, 1956.
L'emfire des Steppes, 1945.
- 16- Guillon: La civilasation Byzantine, Arthand, Prais, 1974.
- 17- Hussey (J.): The Byzantive World, London, 1967.
- 18- The Illustrated Encyclopedia of Medieval Civilization, U.S.A. 1980.
- 19- Labis: Histoire de France, Paris, 1976.
- 20- Lexi Con Universal Encyclopedia, Lexicon Publication, Inc. New York, 1983, 21 Vols.

- 21- The Lincoln Library of Essential Information, The Frontier press Company, Columbus, Ohio, U.S.A. Thirty Ninth Edition, 1978.
- 22- Magie: Roman Rule in Asia Minor, 2 Vols, 1975.
- 23- Miller: The Empire of Nicaea and the recovery of Constantinople in C.Med.H. ed. Bury, Vol, IV, Cambridge, 1923.
Imperial Constantinople, U.S.A. 1969.
- 24- Nicol (D.): The Fourth crusade and the Greek and latin Empires, 1204-1261, in C.Med.H. Vol, IV, Part, ed. Hussey, Cowbridge, 1975.
Byzantium, its ecclesiastical history and relations with the western world, London, 1972.
- 25- Neumann (C.): "Die Byzantinische Marine", Historische Zeitschrift, LXXX, 1, 1898.
- 26- Ostrogorsky: History of the Byzantine State, English trans. by Hussey, Oxford, 1968.
- 27- Painter (S.): A History of the Middle Ages, New York, 1954.
- 28- Pears (E.): The Fall of Constantinople being the Story of the Fourth Crusade, New York, 1975.
- 29- Runciman (S.): The History of the crusades, Vol. 3, Cambridge university Press, 1966.
The Byzantine Theocracy, Cambridge University Press, 1977.
- 30- Tessier (J.): La quatrieme croisade, la division sur Zara et Constantinople, la rowx, Paris, 1884.
- 31- Ushensky: The Formation of the Second Kingdom of Bulgaria, Odessa, 1879.
- 32- Vasiliev: History of the Byzantine Empire (324-1453), U.S.A. 1971.
- 33- Villehardouin (G.): La Conquete de Constantinople par les Barons Francais associez que Venitiens L'an 1204. English Transl. by Sir Marzials, London, 1965.
- 34- Walter: La Ruine de Byzance (1204-1453), ed. Albin Michel, Paris, 1958.
- 35- Whitting (Ph.): Byzantium, Oxford, 1981.
- 36- Wolff (R.): Studies in the latin Emprie of Constantinople, London, 1976.

البحث الثالث

زواج الخالفة

في العصور الوسطى

دكتورة
الدمية غنيم

١٩٨٦

المحتوى

الموضوع	صفحة
المقدمة	٢١٥ — ٢١٨
● الفصل الاول :	
نماذج مختلفة لزواج التحالف	٢١٩ — ٢٢٨
● الفصل الثانى :	
العوامل التى أدت للمصاهرة بين اليونان واللاتين	٢٢٩ — ٢٦٤
● الفصل الثالث :	
زواج التحالف بين يوحنا فاتاتريس وكونستانس هوهنستاوفن	٢٦٥ — ٢٨٢
المصادر والمراجع	٢٨٢ — ٢٨٨

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

ان موضوع زواج التحالف يعتبر من الموضوعات الهامة في مجال دراسات تاريخ العصور الوسطى ، نظرا لشيوعه آنذاك عند مختلف العناصر التي حفل بها عالم العصور الوسطى ، وأيضا لما له من الصفة الاجتماعية ، والاخرى السياسية ، والثالثة الانسانية .

فالزواج كما هو معروف ، نظام اجتماعي يعطى الصفة الشرعية للعلاقة بين الرجل والمرأة وما ينجبونه من أبناء ، وهو كذلك ارتباط اجتماعي بين عائلتين هما عائلة الزوج وعائلة الزوجة ، وهو ما يسمى بالمصاهرة .

والتحالف يعرف في العلاقات الدولية ، بأنه اتفاق بين دولتين أو أكثر ، من أجل التعاون معا ، لتحقيق أهداف سياسية معينة ، غالبا ما تكون دفاع متبادل ضد العدو المشترك .

أما الجانب الانساني في هذا الموضوع ، فهو الذي شغلتني اليه ولفت نظري ، واستحوذ على تفكيري . وربما يرجع ذلك الى تعاطفي الشديد مع ضحايا هذه المشكلة ، السياسية شكلا ، والانسانية مضمونا . فالضحية في الغالب فتاة ، وربما طفلة ، تغادر الاهل والوطن ، وترحل الى بلاد غريبة عنها ، وتعيش وسط أناس مختلفون في العادات والتقاليد واللغة والدين وكل شيء ، باسم الزواج أو المصاهرة ، وفي واقع الامر فان هذا الزواج أو هذه المصاهرة تخدم أولا وأخيرا أهداف ومخططات سياسية بحته ، المصلحة السياسية هي الهدف ، وهي صاحبة الاعتبار الاول والاخير

في هذا الزواج ، أما الفتاة فهي مجرد (نص) أو (بند) في اتفاقية سياسية
تعقد بين الدولتين •

ومن الناحية الاخرى ، يمكن القول أن أولئك الفتيات قد قمن بدور
هام كرسل سلام ، وأدين خدمات جليلة لاطنانهن ، لذلك يمكن اعتبارهن
جند . جندن لخدمة المصالح السياسية العليا لدولهن وليس كباقي الفتيات ،
وهذا هو العزاء الوحيد لهن • لكن ذلك لم يحدث الا في القليل النادر من
هذه الحالات ، مثل الاميرة آنا Anna المقدونية ، التي تزوجت
فلاديمير حاكم كييف الروسي ، على النحو الذي يتم توضيحه في ثنايا هذا
البحث • أما معظم حالات زواج التحالف هذا ، فلم تسفر الا عن فترة
سلام مؤقتة ربما لبضع شهور ، أو لبضع سنين ، ثم تتطور الامور ،
وتتغير السياسات ، وربما ينقلب سلام وود أمس ، الى عدا و قتال بعد
ذلك ، وهنا تكون الطامة الكبرى لمثل أولئك الفتيات كما حدث مع كونستانس
هونستافن ، ابنة الامبراطور الالماني فردريك الثاني هونستافن ، التي
تزوجت زواج تحالف من امبراطور نيقية البيزنطية يوحنا فاتاتريس (١) ،

(١) ذكر المؤرخ البيزنطي جريجوراس هذا الامبراطور باسم يوحنا دوقاس
Ioannis Ducae ، وذكره المؤرخ اكروبوليتيس باسم يوحنا
دوقاس باتاتريس Batatzes ، وعائلة باتاتريس من العائلات البيزنطية
الشهيرة التي أخذت في الظهور اعتبارا من أواخر القرن العاشر وبدأت تلعب
دورا نشطا في خدمة الامبراطورية البيزنطية ، ويرجع أصل هذه العائلة الى
اقليم تراقيا . وقد استعملت في هذا البحث اسم فاتاتريس Vatatzes
وهو الاسم الذي اتفق الفالبية العظمى من المؤرخين المحدثين على استعماله .
راجع :

التي تعتبر قصة زواجها هذه ، والظروف التي أحاطت بهذا الزواج ، والنتائج التي تترتبت عليه ، هي الموضوع الرئيسي لهذا البحث .

وزواج التحالف يعرف باليونانية باسم *Συμπειρασαι* وباللاتينية *Coniungo (Coniungere)* ، ويطلق عليه بالانجليزية *Intermarry or Intermarriage or Alliance Marriage*

وزواج التحالف هذا كان قاصرا على الطبقات الحاكمة فقط ، لما له من الصفة السياسية ، ولا يمكن أن نطلق على أى زواج يحدث بين عنصرين مختلفين من عامة الشعوب اسم زواج تحالف ، وإنما يطلق عليه في هذه الحالة اسم (الزواج المختلط) *Mixed Marriage*

والجدير بالذكر ، أنه رغم أهمية موضوع زواج التحالف ، إلا أن أحد من المؤرخين ، على الإطلاق ، لم يتناوله بالبحث والدراسة حتى الآن ، لذلك فإن هذه الدراسة تعتبر أول دراسة من نوعها تظهر في هذا الموضوع الجديد المبتكر .

= Gregoras : *Historae Byzantinae*, C.S.H.B. ed Weberi, Bonn, 1829, p. 22 f f.

Georgii A Cropolites *Opera*, ed. Heisenberg, Leipzig, 1203, p. 26.

Polemis : *The Doukai*, University of London Historical Studies, XXII. 1968, pp. 106 — 109.

Ostrog orsky : *History of The Byzantine State*, Oxford, 1968, p. 435 ff.

Vasi Liev : *History of The Byzantine Empire*, U.S.A. 1971, p. 517 ff.

Brehier : *Vie et mort de Byzance*, Paris, 1969, p. 309 ff.

Angold : *A Byzantine Empire in Exile, Government and Society Under the laskarids of Nicaea, 1204 — 1261*, Oxford, 1975, p. 47 ff.

هذا ، ولم يكن من الممكن التعرض لبحث كهذا ما لم تكن هناك الخلفية التاريخية العربية ، والرؤيا الواضحة ، لمختلف القضايا ، التي حفل بها عالم العصور الوسطى في الغرب والشرق على حد سواء وبالتالي فقد تنوعت مصادر هذا البحث ومراجعة وتعددت ، نظرا لتعرضنا لنماذج متنوعة من حقبة تاريخية مختلفة ، وذلك على النحو الذي يبدو واضحا خلال عرضنا لهذا الموضوع .

وأرجو أن تفيد هذه الدراسة الهامة ، الدارسين والباحثين ، وتسدد بعض النقص في المكتبة التاريخية الخاصة بتاريخ العصور الوسطى .
والله الموفق .

اسمعت غنيم

لوران

١٢ أبريل ١٩٨٦

الفصل الأول نماذج مختلفة لزواج التحالف

- موقف الاباطرة البيزنطيين (الرسمي) من زواج التحالف .
- موقف الكنيسة اليونانية .
- موقف البابوية .
- نماذج مختلفة لزواج التحالف في العصور الوسطى .

« لكن هيا ، التفت الآن ، لتقابل طلبا من نوع آخر ، رهيب وغير لائق . ان الكلمات اللائقة والمناسبة تبتكر وتبحث عن مخرج . وذلك انه اذا حدث أن طلبت احدى هذه القبائل الشمالية الوضيعة ، زواج تحالف ، مع الامبراطور الرومانى سواء بأخذ ابنته زوجة ، أو باعطاء ابنتهم لتصبح زوجة للامبراطور أو لابنه فانك سوف ترد على هذا الطلب الشائن من قبلهم بهذه الكلمات : فيما يتعلق بهذا الامر ، هناك أيضا وصية وأمر مهيب وموثوق به ، لقسطنطين العظيم المقدس ، منقوشا فوق المنضدة المقدسة لكنيسة المسيحيين العالمية^(١) آيا صوفيا ، يحرم على أى امبراطور رومانى أن يعقد زواج تحالف مع أمة لها عادات تختلف وتغاير التقاليد الرومانية ، وخاصة مع من تكون ملحدة وغير معمدة ، فيما عدا الفرنجة وحدهم ، لانهم وحدهم كانوا مستثنين من قبل هذا الرجل العظيم قسطنطين المقدس ، لانه هو نفسه ينحدر أصله من هؤلاء الاجناس ، ولان هناك صداقة وعلاقات تجارية عظيمة بين الفرنجة والرومان . ولماذا أمر بزواج أباطرة الرومان منهم فقط . ان ذلك يرجع الى شهرة تقاليد هذه البلاد ، ونبل هذه القبائل . ولكن ليس بوسعهم^(٢) أن يفعلوا ذلك مع أى أمة أخرى مهما كانت . ومن

(١) استخدم الامبراطور قسطنطين السابع الكلمة اليونانية كاثوليكيكس Καθολικὴς أى تصبح الترجمة هكذا (لكنيسة المسيحيين الكاثوليكية آياصونيا) . لكن المعروف أن كنيسة آيا صوفيا ليست كاثوليكية ولكنها على المذهب الارثوذكسى Orthodoxus ، وهو ما اكده قسطنطين السابع نفسه فى أكثر من موضع فى هذا الكتاب (انظر على سبيل المثال ص ٨٧) . لذلك أرى انه من الإصح أن تترجم هذه الكلمة اليونانية بمعنى عالمى Universal وهو معنى هذه الكلمة بالفعل .

(٢) المقصود ليس بوسع الاباطرة الرومان .

يجزؤ على فعل ذلك ، يكون مدان كذارج على المجتمع المسيحى ، ومخالف لقوانين الأسلاف ، وللاوامر الامبراطورية » .

ويبرر الامبراطور قسطنطين السابع اقتتاعه بعدم عقد زواج تحالف بين الاسرة الحاكمة البيزنطية ، وأية أسرة حاكمة من أى عنصر آخر بقوله .

Ἐκαστον γὰρ ἴθνος διύγορε. ἔχον ἴθην καὶ διαλλύττονται νόμους τε καὶ θάσμοις ὁφίλει τὴν εἰρήνην χρυτεῖν καὶ ἀπὸ τοῦ αὐτοῦ τοῦ ἴθνος τὴν πρὸς ἀνέχρισιν βίον κοινωνίαν ποιῆσθαι καὶ ἐν τῇ γαίᾳ. ὥσπερ γὰρ ἕκαστον ζῷον μετὰ τῶν ὁμογενῶν τὰς μίξεις ἐργάζεται, οὕτω καὶ ἕκαστον ἴθνος οὐκ ἐξ ἀλλοιούλων καὶ ἀλλογλώσσων ἀλλ' ἐκ τῶν ὁμογενῶν τε καὶ ὁμοφώνων τὴν συνοικίαν τῶν γύμων ποιῆσθαι καθεύσκει δέκναι. ἐνταῦθα γὰρ καὶ ἡ πρὸς ἀλλήλους ὑποτροφία καὶ συνομιλία καὶ προσφιλεῖς συνδιτριβή καὶ συμβίωσις περιγίνεσθαι πίφκει. τὸ δὲ ὑλλύτριον ἴθην καὶ διαλλύττονται νόμιμα ὑπεχθίους μᾶλλον καὶ προσκρούσις καὶ ῥύση καὶ στυσίς ἰῶσθαι ἀπογεννῶν, ὑπὲρ οὗ φιλίας καὶ κοινωνίας ἀλλ' ἔχθρας καὶ διωσύναις ὀφίλει ὑπεργάζεσθαι. (١)

« لأن لكل أمة تقاليدھا المختلفة ، وقوانينھا وتشريعاتھا المتباينة ، فإنه يجب أن تندمج هذه الاثياء كلها لتمييزھا عن غيرها ، ويجب أن تتكون وتنشأ من نفس الامة الرابطة التى توحد أسلوب حياتھا . وكما أن كل حيوان يتزاوج من نفس فصيلته ، لذلك فالاصح أن كل أمة كذلك يجب أن تتزاوج وتتعايش مع نفس جنسھا ولغتها ، وليس ممن يختلفون عنها فى العنصر واللغة . ولهذا السبب ينشأ التوافق الطبيعى والتفكير والتعامل والحديث الودى بين الفرد والآخر ، ويعيشون معا فى وئام . لكن التقاليد الاجنبية والقوانين المتشعبة ، تكون على العكس تماما ، فانھا تؤدى الى

(1) Constantini Porphyrogeniti : De Administrando Imperio, Cap. 13.
pp. 89

العداوة والخلاف والكراهية والشجار ، تلك الاشياء التى تخدم وتولد ،
ليس الصداقة ولا المشاركة ، ولكن الحق والانقسام » .

كان ذلك عن موقف الاباطرة البيزنطيين من موضوع زواج التحالف ،
ولكن ماذا عن موقف الكنيسة اليونانية الارثوذكسية من امر الزواج بين
البيزنطيين وغيرهم من العناصر الاخرى ؟

لقد كانت الكنيسة اليونانية تطلب دائما أن يكون الزوجان ليس فقط
على نفس الدين ، وانما على نفس المذهب . لذلك كان زواج البيزنطيين من
العناصر الاخرى المختلفة الديانة أو المذهب ، يعتبر من وجهة نظر الكنيسة
الارثوذكسية زواجا غير شرعى . وفى القرار الرابع عشر لمجمع خلقيدونية
حرم على المسيحى الارثوذكسى أن يعقد « زواج مع امرأة هرطقة » . وقد
أعاد القرار الثانى والسبعين لمجمع Trullo هذه الصيغة ، وأضاف
أنه اذا كان الزواج قد تم بالفعل فانه يجب أن يفسخ . وفى القرن الثانى
عشر قرر عالم اللاهوت والقانون ورجل الدين Theodore Balsamon
ان النساء الارثوذكسيات اللاتى يتزوجن من رجال هرطقة يجب أن
يقطن فورا من الكنيسة^(١) .

ورغم أن قسطنطين الاكبر ومن تلاه من اباطرة بيزنطيين قد أباحوا
الزواج من عنصر الفرنجة اللاتين ، الا أن الموقف كان لابد وأن يتغير بعد
القطيعة الدينية بين الكنيستين الشرقية والغربية ، ذلك أن انقسام عام
١٠٥٤م . كان لابد وأن يلقي ظلاله القاتمة على امكانية الزواج بين أصحاب

(1) Nicol : Byzantium, its ecclesiastical history and relations with the
western world, variorum Reprints, London, 1972, p. 160.

(الخبز قبل الاختمار) *Prozymites* وهم اليونان ، و (الخبز غير المختمر) *Azymites* وهم اللاتين •

وزاد الطين بلة ، أحداث عام ١٢٠٤م • الخاصة باستيلاء اللاتين على العاصمة البيزنطية القسطنطينية ، وتنصيب بطريك لاتيني كاثوليكي في كنيسة القسطنطينية ، وقد أصبح رجال الدين من كلا الطرفين اللاتيني واليوناني يتهم كلا منهما الآخر بالهرطقة وقال ديمتريوس خوماثيانوس *Demetrios chomatianus* رئيس أساقفة أوخريدا ، وهو رجل الدين اليوناني الأكثر ثقافة بين رجال الدين في القرن الثالث عشر الميلادي ، انه لا خير يأت من الزواج بين اليونان واللاتين ، وأصدر حكمه بأن الطرف الارثوذكسي في هذا الزواج يجب أن يقطع من الكنيسة ، أما رجل الدين اليوناني الذي يعقد مثل هذا الزواج فيجب أن يطرد من وظيفته فوراً^(١) •

أما المؤرخ البيزنطي نقيتاس خونيائيس *Nicetas choniates* الذي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي فقد وصف اللاتين بأنهم (دعاة سابقون للمسيح الدجال)^(٢) •

وفي مثل هذه الظروف أصبح الزواج بين الطرفين اليوناني واللاتيني يعتبر خروجاً على القانون الكنسي •

(1) *Demetrios Chomatianus*, ed. Pitra, in (Analecta Sacra Spicilegio Solesmensi Parata) Rome, 1891, VII, p. 713.

(2) *Choniates N. : Historia*, ed. Bekker. in *Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae*, Bonn, 1835, p. 763.

على أن دوافع السياسة العليا للبيزنطيين ، أجبرت رجال الدين الارثوذكس على أن يقتنعوا بوجهة نظر أباطرتهم اليونان ، الذين قطلعوا للزواج من نساء الطبقة الحاكمة اللاتينية في الشرق ، ووضعوا مصالحهم القومية فوق قيود القانون الكنسي ، لانه طالما بقيت الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية قائمة ، فان زواج الاباطرة اليونان من الاسرة الحاكمة اللاتينية ، يظل أمرا من أمور التنظيم الدبلوماسي لليونان ، فالذى لا يستطيعون الحصول عليه عن طريق الحرب ، يمكنهم الحصول عليه عن طريق المصاهرة ، وكانت العاصمة الام القسطنطينية هي هدفهم الاول والاخير .

لذلك فقد تغاضى البطريك اليونانى عن زواج بعض الاباطرة البيزنطيين من لاتينيات غربيات ، مثل زواج الامبراطور ثيودور لاسكاريس الاول (١٢٠٤ - ١٢٢٢) من ماريا أوف كورتنای شقيقة الامبراطور اللاتينى للقسطنطينية روبرت أوف كورتنای (١٢٢١ - ١٢٢٨) . وتزويجه اثنتين من بناته الثلاثة الى زوجين لاتينيين ، فقد زوج ابنته ماريا لاسكاريس من ابن ملك هنغاريا ، وزوج ابنته الثانية أيدوكيا لاسكاريس من البارون الفرنسى للقسطنطينية Anseau of Cahieu (١) وقد تجاهل البطريك الاعتراضات الكنسية التى يمكن أن يعرزمها ويتمسك بها في الظروف الاخرى .

(1) *Georgii Acropolitae opera*, ed. Heisenberg, Leipzig, 1903, pp. 26, 41,

لكن البطريرك كان يشترط أن يكون الاولاد أرثوذكسا ، اذا كان أحد طرفي الزواج أرثوذكسيا ، لان الطرف غير الارثوذكسى يكون هرطقا ، اذن يجب أن يكون الابناء أرثوذكسا وليسوا هرطقة^(١) .

كان هذا عن موقف اليونان ، ولكن ما هو موقف البابوية والكنيسة الكاثوليكية من الزواج من الارثوذكس ؟

لقد بنى موقف البابوية بعد انقسام عام ١٠٥٤م . على مبادئ صارمة ، وكان لابد للكاثوليك في حالة الزواج من أرثوذكس أن يحصلوا على موافقة وتصديق بابا روما على هذا الزواج ، أما بعد أحداث عام ١٢٠٤ فقد كان من الممكن أن يقتنع البابوات بمثل هذا الزواج اذا أبدى الاباطرة اليونان رغبتهم الواضحة الصريحة في ادخال الكنيسة اليونانية في اتحاد مع كنيسة روما^(٢) .

ورغم نصائح وتحذيرات قسطنطين الاكبر وتأكيديه على عدم عقد زواج تحالف بين الاسرة الحاكمة في بيزنطة وبين بعض الاسر الحاكمة الاجنبية فيما عدا الفرنجة ، الا أن زيجات تحالف عديدة قد تمت بالفعل

(1) Nomocanon Photii Patriarchae Constantinopolitani, ed. Christophorus lustellus, Latins trans., Paris, 1615, pp. 133 — 134, 194 — 196.

(2) Nicol : Op. cit., p. 171.

على امتداد التاريخ البيزنطي ، فعلى سبيل المثال لا الحصر ، تزوج
الامبراطور قسطنطين الخامس من أميرة من الخزر هي ابنة ملك الخزر •
وكذلك زوج الامبراطور رومانوس ليكابينوس حفيدته ماريا من الامير
بطرس البلغاري ، وقد ترتب على هذا الزواج اطلاق البلغار لسراح عدد
كبير من الاسرى البيزنطيين^(١) •

أما الامبراطور باسيل الثاني المقدوني (٩٧٦ - ١٠٢٥م) فقد
اضطرته ظروفه السياسية الداخلية الى التضحية باخته الاميرة آنا
Anna حفيدة قسطنطين السابع نفسه ، وتزوجها من فلاديمير
Vladimir قيصر روسيا •

وتتلخص هذه الظروف السياسية الصعبة التي واجهها باسيل الثاني
في بداية حكمه في عام ٩٧٦ ، في ثورة أهلية خطيرة قام بها أحد كبار القادة
البيزنطيين ويدعى بارداس سكليروس Bardas sclerus ، وكان
يرمى من وراء ثورته هذه الى انتزاع العرش الامبراطوري من أصحابه
الشرعيين باسيل الثاني وقسطنطين الثامن • ومما زاد الموقف سوءا أن
القائد البيزنطي برداس فوقاس ، وهو الآخر من عائلة بيزنطية شهيرة ،

(1) Constantini Porphyrogeniti : De Administrando Imperio, Cap,1 3,
pp. 87 — 88.

(٢) ذكره المؤرخون المسلمون باسم (ورد بن منير) أو (ورد الرومي) ،
انظر على سبيل المثال :

ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٢٨٠ •

ابو شجاع : ذيل تجارب الامم ، ص ١٣ •

أما المؤرخ يحيى الانطاكي فقد ذكره باسم (بردس السقلاروس) ، انظر:
يحيى الانطاكي : التاريخ ، ص ١٥٨ •

الذى أرسلته الحكومة البيزنطية بالجيش للقضاء على ثورة سكليروس ، انتهى به الامر الى التحالف مع هذا الثائر ، وتم الاتفاق بينهما على اقتسام الامبراطورية البيزنطية ، بحيث يأخذ سكليروس الجزء الآسيوى ، ويأخذ فوقاس الجزء الاوروبى منها^(١) .

وهكذا تفاقمت الامور ، وأصبح الموقف يهدد بالقضاء على الاسرة المقدونية ، ولم يجد باسيل منفذا للخروج من هذه الظروف العسيرة الا بمساعدة خارجية ، فاتجه بانتظاره نحو حاكم كييف الامير الروسى فلاديمير Vladimir (٧٩٢ - ١٠١٥) الذى ذكره المؤرخ البيزنطى زوناراس باسم بلاديميرو Bladimero (٢) .

وقد تم عقد معاهدة بين الطرفين تضمنت تقديم فلاديمير المساعدة العسكرية لباسيل ، وارسال بعثات تبشيرية لتحويل الروس من الوثنية الى المسيحية ونصت أحد بنود هذه المعاهدة على زواج شقيقة باسيل الثانى الاميرة آنا من هذا الامير الروسى فلاديمير^(٣) .

ويعلق المؤرخ ستيفن رانسيمن على هذا الزواج بقوله انه كان مهينا بوجه خاص ، وذلك لان الامير فلاديمير كان همجيا بربريا لا يرجى صلاحه^(٤) .

(١) يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ١٦٧ .

Ostrogorsky : History of the Byzantine State, English trans. by Hussey, Oxford, 1968, p. 269.

(2) Zonaras : Epitomae Historiarum, Bonn, 1838, Liber XVIII, pp. 552 — 553.

(3) Zonaras : pp. 552 — 553.

Ostrogorsky : op. cit., p. 269.

C. Med. H., Vol IV, ed. Bury, Cambridge 1926, p. 88.

(4) Runciman : Byzantine Civilisation, Seventh impression, great Britain, 1975, p. 160.

وقد تمكن بيسيل عن طريق المساعدة العسكرية التي أرسلها له
فلاديمير والتي تمثلت في ستة آلاف مقاتل من الروس أن ينزل الهزيمة
بخصومه وتم اخماد هذه الفتنة الاهلية^(١) ، وتوطد نفوذ الاسرة المقدونية
ورسخت أقدامها على العرش البيزنطى .

وهكذا تمت التضحية بهذه الاميرة البيزنطية الشابة في سبيل تحقيق
أهداف سياسية عليا للدولة البيزنطية . ولكن لا يمكن أن نغفل الدور العظيم
الذى قامت به هذه الاميرة البيزنطية في حفظ العرش واستمرتها وتحويل
الروس من وثنيتهم الى ديانة تنمائية .

ومن أمثلة زواج التحالف أيضا ، ذلك الذى حدث بين الامبراطور
مانويل كومنين (١١٤٣ — ١١٨٠) وبرثا أوف سلزباخ Bertha of Sulzbach

(١) بخصوص هذه الفتنة الاهلية من بدايتها حتى نهايتها أنظر المصادر
التالية :

Zonaras : Epitomae Historiarum, Liber XVIII, pp. 539 — 557.

Psellos : Chronographie, Collection Byzantine Publiee Sous le Patronage
de l'association tullaume pudé, Serie par Renault, Paris,
1928, Tome 1, pp. 14 — 20.

Finlay : History of The Byzantine Empire, pp. 336 — 340.

Schlumberger : L'epopeé Byzantine, Vol, pp. 338 — 340.

Ostrogorsky : op. cit., pp. 265 — 270.

C. Med. H. Vol. IV, ed. Bury, pp. 83 — 88.

ومن المصادر العربية راجع :

ابن الاثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٨٠ وما بعدها .

ابو شجاع : ذيل تجارب الامم ، ص ١٣ وما بعدها .

نحى الانطاكى : التاريخ ، ص ١٣ وما بعدها .

شقيقة زوجة الملك كونراد الثالث ملك الالمان (١١٣٨ - ١١٥٢) ،
وكان هذا الزواج يخدم أهدافا سياسية . فحين وجد كل من البيزنطيين
والالمان أن ملك الصقليتين روجر الثانى (١١٣٠ - ١١٥٤) يهدد نفوذهما
فى ايطاليا ، اتجها للتحالف معا ، وكان تحالفها هذا موجها ، وفى المقام الاول ،
ضد روجر الثانى ، وتأكيدا لتحالفهما ، تم زواج الامبراطور البيزنطى
مانويل كومنين من برثا الالمانية فى القسطنطينية فى عام ١١٤٩ . وجلبت
عليها الكنيسة اليونانية اسما يونانيا هو ايرين^(١) .

ولم يخل عصر الحروب الصليبية كذلك من زيجات تحالف ، هدفت الى
تحقيق المصالح السياسية العليا للصليبيين فى الشرق ، وعلى سبيل المثال
لا الحصر ، زواج التحالف الذى تم بين ايزابيلا ، ملكة مملكة بيت المقدس
الصليبية الاسمية ، وعهورى لوزجنان ملك قبرص .

ذلك أنه بعد وفاة الملكة سبيل ملكة بيت المقدس ، وزوجة جاي
لوزجنان ، فى أكتوبر ١١٩٠ ، عاد العرش الى أسرتها من جديد ، حسب قانون
مملكة بيت المقدس ، وهكذا انتقل العرش الى شقيقتها ايزابيلا ، التى كانت
متزوجة من شخص يدعى انشروى الرابع دى تورون *Onfroi IV de toron*

ولكنه لم يحز على رضا الصليبيين ، اذ كانوا يرونه خاملا لن يستطيع أن
يقودهم الى انتصارات على صلاح الدين والمسلمين فى هذه المرحلة المصيرية
فى تاريخ الصليبيين فى الشرق بعد انهيار مملكتهم على يد صلاح الدين

(1) Cinnamus : *Historiarum*, éd Bonn, 1836, p. 87.

الايوبى عقب معركة حطين فى ١١٨٧ ، لذك فقد طلقها الصليبيون من زوجها ، واختاروا لها زوجا رأوا فيه رجل الساعة وهو كونراددى مونتفرات الذى وجدوا فيه القدرة والكفاءة على احياء مملكة بيت المقدس الصليبية ، وزوجوها منه فى نوفمبر ١١٩٠ (١) .

على أن كونراد لم يلبث أن قتل فى ٢٨ أبريل ١١٩٢ ، وعلى الفور ، وبعد يومين فقط من مقتل زوجها السابق ، زوجها الصليبيون من هنرى دى شامبنى الذى كانت تربطه صلة القرابة بريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا .

على أن هنرى دى شامبنى لم يلبث أن توفى فى ١٠ سبتمبر ١١٩٧ ، وأخذ الصليبيون يعملون فكرهم لاختيار زوجا جديدا لايزابيلا ، وسرعان ما اتجهوا بأنظارهم نحو جزيرة قبرص ، وأدركو أن ضمها لأملاكهم بالشام لا شك أنه يخدم مصالحهم السياسية ، نظر لموقع الجزيرة الاستراتيجية الممتاز ، التى كثيرا ما اتخذها الصليبيون قاعدة لعملياتهم العسكرية ضد بلاد الشام ، ومركزا عسكريا لحملاتهم ضد البلاد الاسلامية فى الشرق الأدنى .

وهكذا خطط الصليبيون لضم قبرص الى الشام ، وكان أقصر طريق لذلك هو زواج التحالف ، فأتموه بالفعل ، وزوجوا ايزابيلا فى ١١٩٨ من

(1) Dodu (G.) : Histoire des Institutions Monarchiques dans le Royaume Latin de Jerusalem, Paris, 1894, pp. 120 — 121.

Eracles, 11, pp. 152 — 154.

حاكم جزيرة قبرص الملك عمورى لوزجنان - شقيق جاي لوزجنان - وبذلك تم توحيد تاجى قبرص ومملكة بيت المقدس الصليبية (الاسمية) ، وأصبح لزاما على الملك عمورى أن يجند امكانيات قبرص وجهوده الذاتية للدفاع عن مصالح الصليبيين بالشام^(١) .

هناك أيضا زواج التحالف الذى تم بين يولاندى برين ابنة حنادى برين ومارى دى شامبنى ، ووريثة عرش مملكة بيت المقدس الصليبية (الاسمية) وبين الامبراطور الالماني فردريك الثانى هوهنشتاوفن .

فحينما بلغت يولاند الحادية عشر من عمرها ، وقع اختيار البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦ - ١٢٢٧) عليها لتكون زوجة للامبراطور العظيم فردريك الثانى (١١٩٧ - ١٢٥٠) ، وذلك من أجل أهداف سياسية بحتة .

فقد كانت البابوية دائمة الالاحاح على الامبراطور فردريك الثانى من أجل القيام بحملة صليبية ضد المسلمين بالشرق الادنى لتعويض الفشل الذى حاق بالحملات الصليبية المتعاقبة ، واعادة مدينة بيت المقدس للصليبيين واقرار أمورهم بالشام . ولما كان فردريك الثانى يحب المسلمين ويميل اليهم ، وهو الذى قضى بينهم طفولته وصباه فى صقلية ، ولما كان

(1) Stubbs : Seventeen Lectures on The Study of Medieval and modern History, Oxford, 1900, p. 196.

Setton : A History of Crusades, Pennsylvania, 1958, Vol II, pp. 523 — 529.

سعيد عاشور : قيرس والحروب الصليبية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٣٧

كذلك على درجة كبيرة من الثقافة والحضارة نأت به عن خوض بحور الدماء
التم، دأب الملوك الغربيون على خوضها خلال صراعهم مع المسلمين ، لذا
فقد أخذ يراوغ البابوية ، والبابا يلح عليه للقيام بهذه الحملة المرتقبة •

وهكذا ، وفي محاولة من جانب البابوية لايجاد الدافع لدى فردريك
الثانى للقيام بهذه الحملة ، خطط البابا لزواج يولاند وريثة عرش المملكة
الصليبية بالشام من فردريك الثانى واشترط البابا أن يتم الزواج فى الشام
حتى يجبر الامبراطور فردريك على الرحيل بجيوشه الى الشام • وقد نفذ
الامبراطور رغبة البابا الخاصة بالزواج من يولاند ، لما فى ذلك من مصالح
سياسية ستعود عليه، لكنه بدلا من الذهاب الى الشام، استدعى عزوسه هى
ووالدها حنادى برين الى صقلية ، وتم زواجه بها فى صقلية فى ٩ نوفمبر
١٢٢٥ ، وعن طريق هذا الزواج كسب الامبراطور فردريك الثانى عرش
المملكة الصليبية بالشام الذى كان حقا من حقوق زوجته ، وأصبح ملكا على
هذه المملكة • على أن العمر لم يمتد بيبولاند ، وتوفيت فى ابريل ١٢٢٨ ،
ولم تتعد السابعة عشر من عمرها ، وبعد أن أنجبت طفلا لفردريك أطلق
عليه اسم كونراد ، وأصبح هو الوريث الشرعى لوالدته (١) •

والى بجانب هذه الامثلة والنماذج لزواج التحالف عند العناصر
المختلفة التى عرفت فى العصور الوسطى ، نستعرض مثالا آخر لزواج
التحالف عند البلغار •

(١) Archer & Ringsford : The Crusades, London, 1894, p. 381.

Runciman: A History of the Crusades, Vol III, p. 177.

.. فبعد أن كان البلغار من العناصر البربرية ، التي كان البيزنطيون ينظرون اليهم بتعالي وغطرسة ، والذين خاص ضدهم الامبراطور باسيل الثاني حروبا عنيفة متصلة أكسبته لقب (سفاح البلغار) Bulgaroktonos . وانتهت هذه الحروب بادخال بلغاريا ضمن دائرة النفوذ البيزنطي واحتلالها ، قام البلغار بعد ذلك وحرروا بلادهم من نير الحكم البيزنطي ، بل واقاموا امبراطورية أصبح لها شأنها وثقلها السياسي منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادي ، وساعد على ذلك انهيار الامبراطورية البيزنطية تحت الضربة العنيفة التي وجهها اليها اللاتين الغربيين في عام ١٢٠٤ ، والتي أدت الي اقامة مملكة لاتينية في القسطنطينية ، وامارات لاتينية صغيرة في شبه جزيرة البلقان ، الى جانب الامارات التي أقامها البيزنطيون في أبيزوس غرب بلاد اليونان ، ونيقية في آسيا الصغرى ، وطرابيزون على ساحل البحر الاسود . وهكذا أصبح التفكك هو الصفة المميزة لهذه المنطقة من عالم الغصور الوسطى .

وفي وسط هذا كله ، بزغت الامبراطورية البلغارية ، وأصبح لها الدور الاقوى والاهم في الاحداث السياسية الجارية في هذه المنطقة ، وأصبح يخطب ودها ويطلب تحالفها كل من اللاتين واليونان على حد سواء ، ليستعين كل منهما ، بقوتها العسكرية لتدمير قوة أعدائه وجنى ثمارا سياسية .

وقد لعب زواج التحالف لعبته وسط هذه الاحداث . ذلك أن ابنة ملك البلغار ، يوحنا آسن تهافت على الزواج منها يلدوين الثاني الامبراطور

اللاتيني للقسطنطينية ، وفي نفس الوقت رأى يوحنا فاتاتريس امبراطور
نيقية البيزنطية ألا تضيق هذه الصفقة السياسية من بين يديه ويدع خصمه
اللاتيني يكسبها ويكسب معها تحالف البلغار ومساعدتهم العسكرية له .
لذلك فقد أرسل الى والدها يخطبها لابنه ثيودور الثانى لاسكاريس . وقد
كسب فاتاتريس هذه الجولة ، وتم بالفعل فى عام ١٢٣٥ زواج ثيودور
لاسكاريس الثانى من هيلينا يوحنا آسن وتعرض المؤرخ البيزنطى
نقفورجيجوراس لهذا الزواج بقوله :

«Helenam Asanis filiam decem annos natam Imperatoris filio nendum
puberi Theodoro Lascari iuniori Coniungunt». (١)

وقد تم عقد تحالف بين الطرفين اليونانى والبلغارى ، كان الهدف
الاساسى من ورائه هو أن يستغل فاتاتريس قوة البلغار العسكرية من أجل
استرجاع العاصمة الام القسطنطينية من يد اللاتين ، وقد بدأ تنفيذ هذا
المشروع بالفعل واجتمعت القوات البلغارية بقيادة يوحنا آسن، واليونانية
بقيادة يوحنا فاتاتريس وحاصرت القوات المتحالفة مدينة القسطنطينية .
لكن سرعان ما أدرك آسن أنه فى حالة سقوط القسطنطينية فى أيديهم
فان فاتاتريس فقط هو الذى سيجنى الثمار ويستولى عليها بصفته صاحب
الحق الشرعى فيها ، لذلك فكر آسن فى الانسحاب من أمام القسطنطينية
وقلب ظهر المجن لفاتاتريس ولكنه خشى أن ينتقم اليونان من ابنته هيلينا ،
لذلك ، وقبل أن يقدم على أى تصرف ، طلب من فاتاتريس أن يسمح لهيلينا

(1) Gregoras : Historiae Byzantinae, ed. Weberi, Bonn, 1829, pp. 29—30.

بزيارة أهلها وعشيرتها ، وفهم فاتاتريس الخطة التي رسمها آسن ، ورغم ذلك سمح لها بمغادرة نيقية بناء على طلب والدها^(١) .

وبعد أن اطمأن آسن الى وصول ابنته اليه ، رفع الحصار وانسحب من أمام القسطنطينية ، بل أكثر من ذلك فانه تحالف مع اللاتين في القسطنطينية ضد فاتاتريس واشترك جيش لاتيني بلغاري في حصار مدينة Tzurulum في اقليم تراقيا ، التابعة ليوحنا فاتاتريس .

ولم يلبث آسن أن جاءته الانباء بوفاة زوجته وابنه في آن واحد ، فأدرك أن هذا هو عقاب السماء له لخيانته فاتاتريس ، فنقض حلفه مع اللاتين وانسحب من أمام Tzurulum ، وأعاد ابنته هيلينا الى زوجها ثيودور لاسكاريس الثاني ، وعاد من جديد حليفا ليوحنا فاتاتريس^(٢) .

وهكذا كانت هذه الفتاة هيلينا يوحنا آسن دمية في يد والدها يحركها كيفما أراد ، فتارة يزوجه من ابن حليفه اليوناني ، وتارة أخرى ينتزعها من زوجها وقتما يريد ويعيدها الى ديارها بناء على شكوك ومخاوف سياسية ، ثم حينما يقرر إعادة تحالفه السياسي مع فاتاتريس يعيدها هي الاخرى لزوجها . والموضوع كله مصالح سياسية بحتة ، والفتاة لا تملك من أمرها شيئاً ، عليها فقط أن تتحرك وفقما يحركها والدها لخدمة أغراضه ومصالحه السياسية .

(1) Wolff : The Latin Empire of Constantinople, Chapter I, p. 219.

(2) Wolff : op. cit., p. 220.

واكتفى بالإشارة لهذه التماذج الانسانية لفتيات من مختلف العناصر
كن ضحية لهذه الزيجات السياسية ، وأبدأ في عرض وتحليل زواج تحالف
واحد مستعرضة مختلف التفاصيل الخاصة به ، من حيث الظروف السياسية
التي أدت الى عقده ، والنتائج التي ترتبت عليه ، ثم تتبع حياة الفتاة بعد
الزواج والاحداث التي عرضت لها حتى وفاتها .

الفصل الثاني
العوامل التي أدت للمصاهرة بين اليونان واللاتين

- الظروف السياسية ليوحنا ثمانتزييس ، وعلاقاته بالبابوية .
- فردريك الثاني ونضاله السياسي والديني ضد البابوية .

لقد تم هذا الزواج بين امبراطور نيقية البيزنطية يوحنا فاتاتريس (١٢٢٢ - ١٢٥٤) وكونستانس هوهنستاوفن ابنة الامبراطور الالماني فردريك الثانى هوهنستاوفن وكانت دوافع وأهداف هذا الزواج سياسية بحتة .

ذلك أن فاتاتريس كان قد تولى عرش امبراطورية نيقية البيزنطية بعد وفاة مؤسسها ثيودور الاول لاسكاريس فى ١٢٢٢ ، وكان ثيودور قد زوج ابنته ايرين لاسكاريس من يوحنا فاتاتريس . والواقع أن فاتاتريس كان كفؤا لتولى عرش الامبراطورية البيزنطية المنفية التى اتخذت من نيقية فى آسيا الصغرى مركزا وقاعدة وعاصمة مؤقتة لحين استرجاع العاصمة الام من يد اللاتين . وقد بلغت نيقية فى عهده مركزا مرموقا ، وغدت موثلا للعلماء والمثقفين ، وتبوأ مكانة أثينا فى العصور القديمة ، وقد أولى فاتاتريس عناية كبيرة لمختلف شئون دولته ، فنظم الادارة الداخلية تنظيما رائعا ، على نفس النمط البيزنطى المعروف فى الادارة ، كما اهتم بتحسين الزراعة وتربية المواشى والدواجن، ومن طريف ما يذكر فى هذا الصدد ، أن فاتاتريس اشترى لزوجته ايرين لاسكاريس تاجا مرصعا باللالىء والجواهر النادرة ودفع ثمنه من المبالغ التى تسلمها ثمننا لما باعه من بيض ودجاج احدى مزارعه وقد سمي هذا التاج باسم (تاج البيض) Egg Crown (١)

أما فى ميدانى السياسة والحرب ، فقد ابلى فاتاتريس بلاءا حسنا

(1) Ostrogorsky : History of the Byzantine State, p. 443.

وحافظ على المكاسب التي حققها سلفه ثيودور الاول لاسكاريس ، بل وزاد كثيرا في حدود امبراطورية نيقية بما قام به من حروب ضد مختلف الاعداء المحيطين بدولته ، وخاصة اللاتين الذين كان القضاء عليهم واسترجاع القسطنطينية من أيديهم هو حلمه الاكبر الذي سعى من أجل تحقيقه طوال سنوات حكمه ، والذي كان زواجه من كونستانس هوهنشتاوفن احدى وسائله لتحقيق هذا الحلم .

والواقع أن قضية اليونان واللاتين ، والتعاطف الذي أبداه الامبراطور فردريك الثانى تجاه اليونان وتأييده لقضيتهم ولحقهم الشرعى في القسطنطينية ، وكذلك تأييد فردريك لفاتاتريس في موقفه ضد بابا روما ، كل ذلك مما أدى الى التقارب بين الطرفين وساهم مساهمة فعالة في اتمام هذا الزواج .

ذلك أن فاتاتريس قد قضى العامين الاولين من حكمه مشغولا في تنظيم الامور الداخلية والاستعداد عسكريا لمعركته ضد اللاتين ، فدعم الاسطول البحرى الذى كان قد أنشأه سلفه ثيودور الاول لاسكاريس ، وقد ساهم هذا الاسطول الى حد كبير في احراز الانتصار على أعدائه في هذه المرحلة .

ولم يلبث فاتاتريس أن بدأ حربه مع اللاتين في ١٢٢٥ وأحرز انتصارات عديدة عليهم ، وفتح معظم أملاك اللاتين في آسيا الصغرى ، كما قام أسطوله بالاستيلاء على شبه جزيرة غاليبولى Gallipoli ، ذات الاهمية الكبيرة ، نظر لوقوعها عند مدخل مضيق الدردنيل ،

واستولى كذلك على جزر لسبوس Lesbos ، خيوس Chios ، ساموس Samos ، إيكاريا I Caria ، وروُدس Rhodes (١) .

وقد شجعت هذه الانتصارات اليونان في أوروبا ، فطلب يونان ادرنه Adrianople المساعدة العسكرية من فاتاتريس الذى وجدها فرصة كبيرة لنقل فتوحاته ضد اللاتين الى أوروبا ، فلبى نداءهم ، وانتقل بقواته الى الساحل الاوروبى واستولى على العديد من المدن الساحلية ، واقتحمت القوات النيقية مدينة ادرنه التى تعتبر قاعدة فتوحات اللاتين في أوروبا ، وقد خشى اللاتين من تقدم فاتاتريس في أوروبا ، فتوصلوا الى عقد هدنة معه في عام ١٢٢٥ ، بمقتضاها اعترفوا لفاتاتريس بملكية جميع فتوحاتهم في آسيا الصغرى فيما عدا مدينة نيقوميديا التى بقيت في يد اللاتين . وقد وافق فاتاتريس على عقد هذه الهدنة مع اللاتين حتى يتفرغ لمواجهة خطر حاكم أبيرونس اليونانى ثيودور انجيلوس (١٢١٥ - ١٢٣٠) الذى استولى على سالونيك في ١٢٢٤ وتوج بها امبراطورا ، وأطلق على نفسه لقب : Basileus and Autocrator of the Romaioi وأصبح بذلك منافسا خطيرا لفاتاتريس في الاستيلاء على القسطنطينية (٢) .

ذلك أن ظهور قوات نيقية في أوروبا واستيلائهم على مدينة ادرنه هدد نفوذ ثيودور ، الذى اندفع شرقا من سالونيك ليستولى على معظم اقليم تراقيا في شمال بلاد اليونان ، ووصل حتى بوابات ادرنه ، وحث سكانها على طرد قوات فاتاتريس ، ثم استولى عليها وواصل فتوحاته بتراقيا حتى

(1) Gregoras : Historiae Byzantinae, p. 29.

(2) Ostrogorsky : op. cit., pp. 433 — 435 ; Whitting : Byzantium. Oxford, 1981, p. 114.

وصل الى أسوار القسطنطينية في ١٢٢٦ ، وبدا مركز اللاتين يائسا حرجا^(١) .

لكن تدخل البلغار في الوقت المناسب ، أنقذ القسطنطينية من الوقوع في يد ثيودور امبراطور سالونيك ، ولم يكن تدخل البلغار في الواقع بدافع من حرصهم على مصلحة اللاتين ، ولكن تدخلهم كان دافعه الاساسى هو الاحتفاظ بالقسطنطينية لانفسهم نظرا لاطماعهم فيها . وبناء على ذلك عقد ملك البلغار يوحنا آسن الثانى (١٢١٨ - ١٢٤١) معاهدة سلام في ١٢٢٠ ، ومع ثيودور انجيلوس ، الذى زوج شقيقه مانويل انجيلوس من ابنة يوحنا وتدعى ماريا Maria ، وقد توسط يوحنا بين ثيودور وامبراطور القسطنطينية روبرت أوفكورتناى (١٢٢١ - ١٢٢٨) ، ونجح في أخذ وعد من ثيودور بعدم مهاجمة اللاتين في تراقيا . وقد تم عقد هدنة بين الطرفين اليونانى واللاتينى في ١٢٢٨ نصت على تبادل التجارة وفتح الحدود بينهما ، واستمر امتلاك اللاتين لثلاث مدن في تراقيا هي Sergen, Pinarhisar and Vizya (٢) .

وقد قام امبراطور القسطنطينية روبرت أوفكورتناى بزيارة لروما ، في طريق عودته توفي في بلاد اليونان في ١٢٢٨ ، وبعد وفاته انتقل العرش شقيقه الاصغر بلدوين الثانى (١٢٢٨ - ١٢٦١) الذى كان لا يزال طفلا صغيرا في الحادية عشر من عمره ، وقد اختار البارونات النبيل

(1) Wolff : The Latin Empire of Constantinople, Chapter I, p. 215.

(2) Wolff : op. cit., p. 215.

Narjot of Toucy ليحكم كوصى على بلدوين • وعندما بلغ بلدوين
السابعة عشر من عمره تزوج من ماري دي برين ابنة حنا دي برين من
زوجته برنجاريا Brengaria شقيقة الملك فرديناند الثالث حاكم
قشتالة الاسباني (١٢١٧ - ١٢٥٢) • وبعد زواج بلدوين الثاني من
ماري فوض والدها في تصريف شئون الحكم نيابة عنه (١) •

ولم يلبث ثيودور انجيلوس أن نقض تحالفه مع يوحنا آسن ملك
البلغار ، وتقدم لغزو بلغاريا ، فسار من ادرنه الى ماريتسا Maritsa
وعند Klokotnitsa التقى بقوات آسن الذى تمكن من هزيمة ثيودور
وأسره ، ثم اندفع آسن فاستولى على ادرنه وديموتिका وكل غرب تراقيا
حتى تساليا ، والجزء الاكبر من البانيا ، وشحن معظم الحصون في
امبراطوريته البلقانية الجديدة ، وقد عامل سكانها بعطف بالغ ، أما ثيودور
فقد تم سمل غيبيه ، وأسند آسن حكم سالونيك الى زوج ابنته وشقيق
ثيودور في نفس الوقت مانويل (١٢٣٠ - ١٢٣٧) وقد أطلق يوحنا
آسن على نفسه ، مثل سلفه جوها نيتزا ، لقب قيصر البلغار واليونان
Tsar of Bulgarians and the Greeks.

وقد أراد يوحنا آسن تكوين بطيركية بلغارية مستقلة ، فاتجه صوب
ثيقية وفتح باب المفاوضات بينه وبين يوحنا فاتاتريس ، وحول ولاء بعض
الاسقفيات في البلاد التى فتحتها من البطيركية اللاتينية في القسطنطينية

(1) Wolff : op. cit., p. 217.

الى بطريركية نيقية الارثوذكسية^(١) ، ولا شك أن ذلك كان كسبا أدبيا كبيرا
حصلت عليه امبراطورية نيقية .

وعلى الجانب السياسى أراد يوحنا آسن تكوين أئتلاف من القوات
الارثوذكسية بهدف استرجاع القسطنطينية من يد اللاتين ، غير أن
فاتاتريس أجل البت فى هذا الامر حتى عام ١٢٣٥ ، وذلك بسبب فتح باب
المحادثات بينه وبين بابا روما جريجورى التاسع .

وكان بطريرك نيقية هو الذى بدأ هذه المحادثات حين انتهز
فرصة مرور خمسة من الرهبان الفرنسيسكان ، وأرسل معهم رسالة الى
البابا جريجورى ، وعلى الفور أرسل البابا بعثة مكونة من اثنين من الرهبان
الفرنسيسكان ، واثنين من الرهبان الدومينيكان الى نيقية لبحث مسألة
انهاء الانقسام بين الكنيستين الغربية والشرقية ، وقد وصلوا الى نيقية
فى عام ١٢٣٤ ، وتناقشوا طويلا حول السؤال الدائم عن (filioque) (٢)
واستعمال الخبز غير المختمر فى رقائق الطقوس الدينية ، وقد استعلم
فاتاتريس عما اذا كان باستطاعة البابا اعادة حقوق بطريرك نيقية كبطريركا
شرعيا للكنيسة اليونانية الشرقية الرئيسية ، اذا ما وعد بالطاعة للكنيسة

(١) Miller : The Empire of Nicaea and The Recovery of Constantinople,
C.M. ed H. ed. Bury, Vol IV, p. 89.

(٢) معنى هذه الكلمة باللغة العربية (والابن) Filius = Son

que = and والمقصود هو السيد المسيح ، وهذه الكلمة كانت محل مناقشات
دينية وخلاف بين الكنيستين الشرقية الارثوذكسية والغربية الكاثوليكية منذ
امد طويل سابق لعصر فاتاتريس .

الكبرى في روما . وقد أجاب الاخوة الفرنسييسكان والدومينيكان بأن بطريك نيقية سيجد تقاهما واضحا من جانب البابا (١) .

وقد دعاهم فئاتريس لحضور المجمع العام للكنائس الارثوذكسية ، ولكنهم رفضوا ذلك وأوضحوا أن تعليمات البابا أن تكون مهمتهم محددة ، ثم غادروا نيقية الى القسطنطينية بعد أن وعدوا فئاتريس بالعودة الى نيقية مرة أخرى ، وفي القسطنطينية وجدوا أن الحال بها مروعا ، وقد سجلوا ذلك في تقرير جاء به :

« ان أرض القسطنطينية محرومة من كل حماية ، السيد الابطراطور حنا (حنا دي برين) فقيرا معدما ، وقد غادرها كل الفرسان المرتزقة ، وتناهب للرحيل سفن البنادق ، البيزيين الانكونيين ، وسائر الجنسيات الاخرى ، وقد رحل بعضهم بالفعل ، وحينما رأينا أن الارض قد هجرت ، توقعنا الخطر ، لانها محاطة بالاعداء من كل جانب . آسن ملك الوالاش يحيط بها من الشمال ، فئاتريس يحيط بها من الشرق والجنوب ، ومانويل من الغرب ، لذلك اقترحنا هدنة لمدة عام واحد بين امبراطور القسطنطينية وفئاتريس ، وأننا نفعل ذلك على مسئوليتنا ، وقد تشاورنا في هذا الامر مع رجال الدين في آياصوفيا ، ومع الابطراطور ، ونصحنا الجميع بفعل ذلك » (٢) .

(1) Wolff : The Latin Empire of Constantinople. p. 218. .

(2) Rocaglia (M.) : Les Frères Mineurs et l'église grecque Orthodoxe au XIII^e Siècle, 1231 — 1274, Biblioteca della terra Santa e dell' Oriente francescano, Ser. 4, Studi II Cairo, 1954, pp. 23 ff.

وبناء على ذلك عاد الاخوة الفرنسيين والدومينيكان الى نيقية ،
وحضروا المجمع العام للكنايس الارثوذكسية في *Nymphaeum*
وقد نبه الاخوة الامبراطور فاتاتريس الى ضرورة استعمال الخبز غير
المختمر في الطقوس الدينية ، ولكنه أكد من ناحية أخرى على ضرورة نبذ
اللاتين (filioque) من العقيدة ، لهذا لم تسفر المفاوضات بين
الطرفين عن شيء * .

وحين وجد فاتاتريس ذلك اتجه الى البلغار ، وعقد مع يوحنا آسن
معاهدة زوج بمقتضاها ابنه ثيودور الثانى لاسكاريس من هيلينا ابنة
يوحنا آسن على النحو الذى سبق التعرض له ، وتعاون الإثنان فى حصار
القسطنطينية * . لكن البابا جريجورى التاسع تزعم حركة المقاومة ضد
فاتاتريس ، فتوسط لدى ملوك وامراء الغرب لارسال المساعدات العسكرية
من أجل انقاذ القسطنطينية ، وبناء على ذلك أرسل كل من ملكى فرنسا
وهنغاريا مساعدات عسكرية ، وكذلك تعاون جيوفرى فيلها ردوين الثانى
(١٢٢٨ - ١٢٤٦) أمير آخيا *Achaea* فى بلاد المورة ، مع امبراطور
القسطنطينية فى مواجهة ذلك الخطر ، وجاءت مساعدات بحرية من كل من
جنوا وبيزا والبندقية ، ومن دوق الارخبيل *Angelo Sanued*
وقد أرسل البابا جريجورى التاسع رسالة الى فاتاتريس يخبره فيها بين أن
يستسلم لحنادى برين ، أو أن يقاسى الدمار على يد جيوش غربية جديدة * .
فرد عليه فاتاتريس فى أسلوب لا يخلو من السخرية قائلا :

« لن أتنازل أبدا عن هجومي على لصوص وقتلة ، احتلوا مدينة
أعتبر أنا حاكمها الشرعى ، أن الامبراطور الحقيقى يحكم شعبا ، ولا يحكم

فقط أخشابا وحجارة صنعت منها الاستحكامات» (١) .

وفي عام ١٢٤١ توفي البابا جريجوري التاسع ، وخلفه البابا اينوسنت الرابع (١٢٤٣ - ١٢٥٤) الذي لم يقل قوة وحزما عن سلفه ، والذي سار على نفس سياسته تجاه اليونان . وقد توفي في نفس العام ملك بلغاريا يوحنا آسن الثاني ، وخلفه ابنه الصغير كولومان الاول Coloman I (١٢٤١ - ١٢٤٦) ولم يلبث أن توفي في عام ١٢٤٦ ولم يتعد عمره الثانية عشر عاما ، وقد خلفه أخاه الصغير غير الشقيق ميخائيل (١٢٤٦ - ١٢٥٦) . وقد شجعت هذه الاحداث التي مرت بها دولة البلغار ، يوحنا فاتاتريس للتدخل في شئون البلقان ، ومحاولة اكتساب حدود اقليمية جديدة غير تلك التي كانت أيام يوحنا آسن . وقد انتقل فاتاتريس الى الاراضى البلقانية في عام ١٢٤٦ ، واجتاح تراقيا Thrace حتى وصل الى نهر ماريقا Marica ، وفي مقدونيا وصل حتى نهر الفردار Vardar وبذلك وسع ممتلكاته على حساب البلغار ، ثم اتجه الى سالونيك ، ودخلها دون مقاومة تذكر في ديسمبر ١٢٤٦ ، وأخذ امبراطورها اليوناني ديمتريوس انجيلوس (١٢٤٤ - ١٢٤٦) - الذي كان يحكمها مع والده الضير ثيودور انجيلوس ، بعد أن أطلق البلغار سراحه - أسيرا الى نيقية . وهكذا حطم فاتاتريس قوة منافسه حاكم سالونيك ، وضمها لممتلكاته وعين لحكمها أحد رجاله وهو أندرونيكوس باليولوجوس Andronicus Poleologus

(1) Grumel (V.) : L'Authenticité de la lettre de Jean Vatatzes, empereur de Nicée, au Pape gregoire 1 X, Echos D'Orient, XXIX, 1930, p. 450.

الذى خول له فاتاتريس حكم جميع ممتلكات امبراطورية نيقية في الجانب الاوروبى^(١) .

وقد قام أحد أبناء ميخائيل الاول انجيلوس ، وهو ميخائيل الثانى ، واستقل بابيروس عن سالونيك ، وضم اليها تساليا Thessaly وكون منهما امارة خاصة به . وقد عقد معه فاتاتريس فى عام ١٢٤٩ معاهدة صداقة وزوج ابنته ماريا Maria الى ابن ميخائيل ووريثه نقفور^(٢) .

وبذلك أثبت فاتاتريس انه المطالب الوحيد بعرش القسطنطينية ، بعد أن دمر منافسه اليونانى امبراطور سالونيك ، وبعد أن انهارت امبراطورية البلغار بعد وفاة يوحنا آسن الثانى .

وهكذا وبينما فاتاتريس يناضل نضالا عنيفا ويجاهد جهادا حارا من أجل استرداد العاصمة الام من يد اللاتين وحلفاءهم فى الغرب الاوروبى من جهة وبابوات روما واحدا تلو الاخر من أجل الاعتراف بشرعية بطريك نيقية على أنه البطريرك الرئيسى للكنائس الارثوذكسية فى الشرق من جهة أخرى ، اذا به يجد تعاطفا وتأييد المطالبة السياسية والدينية على حد سواء ، من أكبر ملوك الغرب الاوروبى فى ذلك الوقت ، وهو فردريك الثانى هوهنشتاوفن . أما هذا التعاطف ، وهذا التأييد لليونان ، فكان وراءه دوافع عديدة وجدت لدى فردريك الثانى سيتم شرحها فى السطور التالية .

(1) Miller : The Empire of Nicaea, p. 493.

Ostrogorsky : History of the Byzantine State, pp. 439 — 440.

(2) Miller : The Empire of Nicaea, p. 494.

Ostrogorsky : op. cit., p. 440.

فردريك الثانى هو ابن هنرى السادس ملك ألمانيا ، وكونستانس صاحبة صقلية ، وحفيد كل من فردريك الاول بربروسا وروجر الثانى ملك صقلية ، لذلك فقد جمع الوالدان فى ابنيهما أسمى والديهما معا ، فأطلقوا عليه اسم فردريك روجر Frederick Roger ، أما معاصروه فقد أطلقوا عليه اسم Stupor Mundi أى أعجوبة الدنيا •

ولد فردريك فى المدينة الصغيرة عيسى Jesi فى ماركية انكونا فى صقلية ، وذلك فى ٢٦ ديسمبر ١١٩٤ ، وعندما بلغ الثالثة من عمره توفى والده هنرى السادس فى ريعان الشباب فى ٢٨ ديسمبر ١١٩٧ ، وأعلن فردريك ملكا على ألمانيا وصقلية فى نفس العام ، تحت وصاية والدته كونستانس • ولما كانت ألمانيا تعج بالصراعات السياسية العنيفة ، لذلك فقد فصلت والدته الابتعاد بابنها عن هذه الصراعات وعاشت معه فى موطنها الاصلى فى صقلية •

على أن والدته لم تلبث هى الاخرى أن توفيت فى عام ١١٩٨ ، وكانت قد طلبت أن يكون البابا اينوسنت الثالث وصيا على ابنها الصغير ، وقد شارك البابا فى الوصاية مستشارى هنرى السادس من الالمان والصقليين (١) •

وهكذا قضى فردريك الثانى سنوات طفولته وصباه تحت سماء صقلية فى بالرمو ، حيث كان يعيش اليونان ، فالمسلمين ثم النورمان ، وكان لذلك

(1) Michelangelo Schipa : Italy and Sicily Under Frederick II, in C. Med. H. Vol VI, ed.Bury, Cambridge, 1968, p. 131.

أثره الكبير في تكوين شخصية فردريك ، فقد اتقن اللغات اليونانية ، العربية ، والاطالية ، أما الالمانية فكان أقل إتقاناً لها ، وقد نهل فردريك من ثقافة اليونان والمسلمين ، وكان شغوفا بالدراسات الفلسفية والرياضيات . كان فردريك يعتبر واحداً من أذكى رجال عصره ، وكان متفهماً في العلوم ، الفلسفة ، فقه اللغة ، الفلك ، الهندسة ، الجبر ، الطب ، والتاريخ الطبيعي . وقد ألف كتاباً يعتبر أصلاً من أصول العلوم التجريبية في غرب أوروبا ، وهذا الكتاب يسمى (فن الصيد بالصقور) أو البزدره^(١) .

De Arte Venandi Cum Avibus

وهذا الكتاب عبارة عن بحث قائم على أساس الملاحظات والمعلومات المستقاة من المصادر السابقة لعصره ، وقد ظل فردريك يدون ملاحظاته في هذا الكتاب على مدى ثلاثين عاماً . وهذا البحث ينقسم الى ستة فصول ، ويبحث في تدريب الطيور وترويض الصقور من أجل الصيد ، وقد استخدم فردريك كمراجع العديد من كتب الحيوان والاحياء التي كانت معروفة في عصره ، وخاصة كتب أريستو والعالم العربي ابن سينا ، اللذين ترجم معظم أعمالهما ميخائيل سكوت Mtchaelscotus بناء على طلب فردريك . وقد أتم فردريك هذا الكتاب في عام ١٢٤٨ ، ويقال أن النسخة الاصلية التي دونها فردريك فقدت في إحدى المعارك التي دارت بالقرب من بارما Parma ، لكن مانفريد ابن فردريك قام بتدوينه من جديد

(١) البزدره هي فن تدريب البزاة (الصقور) اى الصيد بالاستعانة بالبزاة.

مع عدة تنقيحات ، وهذا الكتاب الاخير هو المصدر الاساسى لجميع الطبعات المنشورة لهذا الكتاب^(١) .

وقد اعتبر فردريك نفسه ايطاليا ، رغم أنه في واقع الامر ينتمى الى عائلة الهوهنستاوفن^(٢) Hohenstaufen الألمانية ، وقد أصبح بلاط فردريك في بالرمو موئلا للعلماء والادباء من جميع الجنسيات والعناصر ، وأنشأ فردريك جامعة نابلى ، وتعهد بالرعاية مدرسة الطب في سالرنو ، وهى المدرسة التى حازت شهرة عريضة فى العصور الوسطى ، وفى كلمة موجزة، فان فردريك الثانى فاق معاصريه فى تفكيره وعقليته ونظرته للامور، وخاصة الدينية منها على النحو الذى يتضح خلال عرضنا التالى للاحداث. ولم يكن معاصريه ليفهموه ، ويمكن اعتبار عصره فى القرن الثالث عشر الميلادى تمهيدا لحركة النهضة الايطالية ، والمؤرخ الفرنسى Huillard — وهو من مؤرخى القرن التاسع عشر الميلادى — كتب يقول أن فردريك

(1) Wood & Fyfe, Transla. and ed., The Art of Falconry (1963).

(٢) الهوهنستاوفن أسرة المائة حكمت الامبراطورية الرومانية المقدسة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين ، ويعتبر حكمها اعظم الفترات فى تاريخ المانيا العصور الوسطى ، واتخذ الاسم نسبة الى احدى قلاعهم المسماة ستاوفن Staufen فى اقليم سوابيا . والهوهنستاوفن يرجع اصلهم الى الكونتات الذين حكموا قلعة Weiblingen فى سوابيا واطلق عليهم الايطاليون اسم Ghibellines ، وهذا الاسم أصبح اسم حزب ظهر فى ايطاليا عند نهاية القرن الثانى عشر وخلال القرن الثالث عشر ، وكان يتلقى المساعدة من الامبراطور فردريك الثانى واصبح معروفا بمناصرته للسياسة الامبراطورية ضد الحزب المناصر للسياسة البابوية وهو حزب الجلف Guelphs راجع :

Buchler J : Die Hohenstaufen (1925).

Hyde : Society and Politics in Medieval Italy (1973).

الثانى « أعطى الدفعة القوية لحركة النهضة التى ظهرت فى أواخر العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة » (١) .

وقال المؤرخ الايطالى Amari عن فردريك الثانى انه كان «رجلا ذرا ابداع وعبقريه جسورة» (٢) . أما المؤرخ الالماني Kantarowicz فان تقييمه لفردريك الثانى يتلخص فى العبارة التالية : « فى شموليته كان عبقرى نهضة حقيقى يجلس على عرش امبراطورى ، وفى نفس الوقت فانه كان امبراطورا ذا عبقرية فذة » (٣) .

وهكذا. سيظل الموضوع الشيق بالنسبة للمؤرخين الباحثين فى حياة هذا الامبراطور ، انه كان — وبكل الاحترام — لغزا لم يحل حتى الان .
أما عن نشاطه السياسى سواء فى ألمانيا أو فى صقلية فهذا هو الموضوع الشائك ، نظرا للمتاعب السياسية الكثيرة التى أثارها أمامه خصومه سواء فى ألمانيا أو فى ايطاليا ، ومما زاد الامور تعقيدا تأييد البابوية لخصومه هؤلاء فى محاولات مستميتة من جانبها لسحقه والقضاء عليه ، وقام البابوات بتوقيع قرار الحرمان عليه المرة تلو الاخرى حتى مات فى ١٢٥٠ وهو ملعونا من البابوية ومقطوعا عن الكنيسة .

(1) Huillard B. : Introduction à l'histoire diplomatique de l'empereur Fredric II, Paris, DL VII, p. 567.

(2) Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia, 1937, p. 628.

(3) Kantarowicz E. . Frederick the Second, English transl., London, 1931, p. 613.

والواقع أن العلاقات بين فردريك الثاني والبابوية تدبرغم مرارتها -
الا أنها من الموضوعات الشائقة الممتعة ، التي تظهر لنا كيف جرى هذا
الامبراطور بمبادئه وأفكاره المتحررة ، وهو الذي بدأ حياته متحالفا مع
البابوية وتحت وصايتها ، والذي كانت البابوية ترى فيه الحليف والسند
في تحقيق أهدافها ومخططاتها الدينية والسياسية معا ، كيف جرى بعد ذلك
على مناهضة البابوية واختصها بكرهه والتشجيع على البابا الى حد
نعتة بالدجال ، في عصر كان فيه للبابا كل التبجيل والاحترام بصفته خليفة
القديس بطرس الذي بيده مفاتيح الجنة والنار ، ولا يغيب على أحد من
الباحثين في تاريخ العصور الوسطى المكانة السامية التي تبوأها البابا في
تلك العصور .

ونظرا للتاريخ السياسي الخافل للامبراطور فردريك الثاني مما
لا يتسع المجال هنا لعرضه بالتفصيل ، لذا تتم الإشارة السريعة لهذا
الموضوع ، مع التركيز بصفة خاصة على علاقاته بالبابوية نظرا لما ترتب
عليها من نتائج أدت الى التقارب بينه وبين امبراطور اليونان يوحنا
المانتريزيس .

لقد استمرت وصاية البابا اينوسنت الثالث على فردريك الثاني كما
سبق أن أشرت ، وفي عام ١٢١٢ وقع البابا اينوسنت قرار الحرمان على
أوتو الرابع أوفبرنسويك Otto IV. of Brunswick ، الذي اغتصب
العرش في ألمانيا مستغلا وجود فردريك الثاني في إيطاليا ، وقد بدأ البابا
اينوسنت بارسال فردريك الثاني الى ألمانيا للمطالبة بالعرش ، وسرعان

ما انتخب فردريك ملكا على ألمانيا ، وهزم أوتو عند Bouvines

في ١٢١٤ رغم تحالف أوتو مع فيليب الثاني ملك فرنسا ، ولكي تحكم البابوية قبضتها على فردريك أجبرته بعد انتصاره على خصومه أن يتنازل عن سلطاته للنبلاء ورجال الدين .

وفي سنة ١٢١٥ توج البابا فردريك الثاني ملكا على الرومان في كنيسة اكس لا شابيل Aix - La - Chapelle ، وبما أن فردريك الثاني ظهر حتى ذلك الوقت كحليفا مطيعا للبابوية ، بالإضافة للوعد الذي قطعه لها بالقيام بحملة صليبية من أجل استرداد بيت المقدس من يد المسلمين ، لذا فقد تم تتويجه امبراطورا في عام ١٢٢٠ كما توج ابنه الاكبر هنري ملكا على ألمانيا ، رغم أنه كان آنذاك في التاسعة من عمره (١) .

ولم تلبث نوايا فردريك الثاني أن بدأت تتضح أمام ناظري البابا ، ذلك أنه هدف الى ادماج إيطاليا وصقلية في مملكة متحدة داخل امبراطوريته، وكان ذلك بلا شك ضد مصلحة البابوية وعصبة المدن اللومباردية

The lombard League (٢)

(1) Michelangelo Schipa; op. cit., p. 132.

(٢) يطلق هذا التعبير على الاتحاد الذي قام بين المدن والقومونات في شمال إيطاليا ، وقد تالف هذا الاتحاد للمرة الاولى في عام ١١٦٤ لمقاومة السياسة الامبراطورية للامبراطور الالماني فردريك الاول ببروسا . وكان هذا الحلف تحت زعامة مدينة ميلان ، وايده البابا الكسندر الثالث . وقد تجدد هذا الحلف في عام ١٢٢٦ لمقاومة نفوذ الامبراطور فردريك الثاني حينما بدا هذا الامبراطور يتدخل في شئون شمال إيطاليا . ويرغم الهزائم التي أنزلها بها فردريك الثاني الا أن هذه العصبة ظلت اقوى القوى المعادية للامبراطور والمؤيدة لسياسة البابوية .

وحينما مات الامبراطور فردريك الثاني في ١٢٥٠ استقلت هذه المدن ، ولم يلبث الصراع الداخلي أن قام بينها وقضى عليها . انظر :

Waley D. : The Italian City Republics, 1969.

بعد نهضتها وازدياد قوتها ، لذا فقد عملا معا لافساد ذلك المشروع •
فما كان من فردريك الا أن أجل رحيله الى الاراضى المقدسة فى حملة
صليبية ، واتجه الى صقلية ، حيث قضى على ثورة اقطاعية وأسس حكومة
مركزية على أساس بيروقراطى ، وفى ١٢٣١ أصدر فردريك ما عرف باسم
تشريعات ملفى *Constitutiones of Melfi*

وكان الدافع له لاصدار هذه التشريعات هو اخضاع مملكته لقانون
موحد يقضى على الاضطراب المتفشى فيها ، بعد أن (علا الصدا القانون
القديم لطول اهماله) على حد تعبير فردريك نفسه •

وقد جمع الامبراطور لجنة للقيام بهذا العمل كان أبرز أفرادها هو
Giacomo وهو رئيس أساقفة كابوا ، وكذلك *Peter della Vigna*
الذى يعود اليه الفضل الاكبر فى انجاز هذا العمل • وقد انتهت اللجنة من
عملها بعد شهرين فقط ، وأطلق على هذه القوانين اسم كتاب الامبراطور
العظيم *Liber Augustalis* أو قانون الامبراطور العظيم *Lex Augustalis*
واذ يمت هذه القوانين فى احتفال كنسى فى مدينة ملفى ومن ثمة عرفت
باسم تشريعات ملفى ، وأصبح يعمل بها ابتداء من أول سبتمبر ١٢٣١ •
وقد ترجمت على الفور الى اللغة اليونانية ، التى كانت لا تزال سائدة فى
صقلية • وتنقسم هذه التشريعات الى ثلاثة مجموعات ، المجموعة الاولى
عن القانون العام ، المجموعة الثانية عن الاجراءات القانونية التى تتبع
فى المحاكم ، والمجموعة الثالثة عن الاقطاع والعسكرية والعقوبات • ثم
أضيفت الى هذه التشريعات واحد وستين تشريعا جديدا عرفت باسم

Constitutiones Novellae
وهي القوانين المستحدثة التي
اقتضت الظروف اصدارها من وقت لآخر (١) . وقد جعلت هذه التشريعات
صقلية الدولة الاكثر تقدما في غرب أوروبا في العصور الوسطى .

وهكذا تغيرت العلاقات بين فردريك الثاني وبين البابوية ، فقد أثبتت
سياسة الامبراطور في ادماج صقلية وايطاليا وأحكام قبضته عليهما بما
أصدره من تشريعات ، أن آمال البابا اينوسنت الثالث في السيطرة على
فردريك واستغلاله لتحقيق مصالح البابوية ، كانت غير واقعية ، وأن
(الولاية) البابوية التي مركزها روما ، أصبحت حاطة بممتلكات امبراطور
قوى ، لذلك ففي عام ١٢٢٥ شجعت البابوية عناصر الجلف Guelph (٢)
في المدن الايطالية للثورة ضد فردريك الثاني ، بينما أخذت في الضغط عليه
من أجل تحقيق وعده بالقيام بالحملة الصليبية . وبمجرد أن اعتلى عرش
البابوية جريجوري التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١) وبالرغم من أنه كان طاعنا
في السن الا أنه صمم منذ الوهلة الاولى على تصعيد الموقف مع فردريك
الى أشده . وفي ١٢٢٨ وقع عليه قرار الحرمان ، ومنح الشرعية للثورات

(1) Michoelangelo Schipa : Italy and Sicily Under Frederick II, in C.
Med. H., Vol VI, p. 148.

(٢) الجلف هو حزب سياسي ايطالي ، وقد خلف هذا الحزب حزب الولف
Welf الالماني الذي كان يعارض سياسة عائلة الهوهنشتاوفن المعادية
له في المانيا . وكانت مهمة حزب الجلف هو مساعدة الاحزاب المعارضة لسياسة
فردريك بربروسا ثم فردريك الثاني في ايطاليا ، وقد تحالف الجلف مع البابوية .
وبعد وفاة فردريك الثاني في ١٢٥٠ فقد الحزب مقزاه الاصلى ، ومع ذلك استمر ،
ثم انقسم الى احزاب عديدة ، واختفى . عند بداية القرن الخامس عشر الميلادي .
أنظر :

Hyde : Society and Politics in Medieval Italy, 1973.

التي تقوم ضده في ايطاليا ، حيث أعيد احياء الحلف اللومباردى ، لذلك فقد قرر فردريك القيام بحملته الصليبية ، وفي ٢٨ يونيو ١٢٢٨ خرج من ميناء برنديزى في ايطاليا في طريقه الى الشرق ، وعن طريق المفاوضات نجح فردريك في أن يتسلم مدينة بيت المقدس سلميا ، ودخل اليها في يوم السبت ١٧ مارس ١٢٢٩ وتوج نفسه بيده في كنيسة القيامة بها (١) .

وأثناء غياب فردريك في حملته الصليبية، أعاد البابا جريجورى التاسع توقيع قرار الحرمان على الامبراطور كما أشاع بأنه قد توفى ، وأباح لرعاياه الاعتداء على ممتلكاته ، مما أشاع الفوضى في مملكة فردريك ، الذى ما أن عاد الى الغرب في ١٠ يونيو ١٢٢٩ حتى أقر الامور بها وسحق الثورات التي قامت ضده في ايطاليا بتحريض من البابا الذى رفض في البداية ، الاعتراف بما حققه فردريك من مكاسب واسترداده لبيت المقدس

(١) عن كل ما يتعلق بحملة فردريك الثانى على الاراضى المقدسة التي عرفت باسم الحملة الصليبية السادسة ، راجع :
العينى : عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان ، حوادث سنة ٦٢٤ هـ (مخطوط بدار الكتب المصرية) .

ابن واصل : مفرج الكروب في اخبار ايوب ، الجز الثانى ، ورقة ٢٢٦ ب ،
ورقة ٢٥٢ (مخطوط بدار الكتب المصرية) .
ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر ، القاهرة ١٣٢٥ هـ ، حوادث
٦٢٣ سنة هـ .

المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر زيادة ، القاهرة ، ١٩٣٤ ،
الجزء الاول ، ص ص ٢١٥ - ٢٣٠ .

سعيد عاشور : الامبراطور فردريك الثانى في الشرق العربى ، بحث نشر
في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الحادى عشر ، سنة ١٩٦٣

Grousset : Histoire des Croissades, Paris, 1946, Vol III, pp. 280 — 320.

Runciman : A History of the Crusades, Cambridge, 1957, Vol III, pp.
177, 191.

Kantorowicz : Frederick The Second, London, 1931, pp. 139 — 199.

ليد المسيحيين من جديد • على أن البابا لم يستطع الاستمرار في تجاهل هذه المكاسب التي حققها فردريك ، وفي معاهدة سان جرمانو San Germano في ٢٣ يوليو ١٢٣٠ ، أعترف بما أنجزه فردريك ورفع عنه قرار الحرمان^(١) •

أما في ألمانيا فقد ثار عليه ابنه هنري في عام ١٢٣٣ ، ولكن فردريك ذهب الى ألمانيا حيث قضى على الثورة ، وعزل هنري في ١٢٣٤ ، وأودعه السجن مدى الحياة ، وعين بدلا منه ابنه الثاني كونراد الرابع ملكا على ألمانيا ، وثبت النفوذ الامبراطوري على الامراء هناك ، وعاد فردريك الى شمال ايطاليا حيث هزم العصبة اللمباردية عند كورتنوا Cortenouva في ١٢٣٧ ، وفي ١٢٣٨ ظهر أن قوة الامبراطور قد اشتدت وتوطدت تماما ، وعين ابنه Enzo ملكا على ساردينيا Sardiina . وواقعا أصبح الحاكم لكل ايطاليا^(٢) •

وقد أزعج نمو سلطة فردريك الثاني على هذا النحو البابا جريجوري التاسع ، الذي خشى على استقلال البابوية وممتلكاتها ، فما كان من البابا جريجوري التاسع الا أن أوقع قرار الحرمان على الامبراطور فردريك الثاني في ٢٠ مارس ١٢٣٩ •

وقد أعاد ذلك فتح باب العداء بين الطرفين من جديد ، وزاد من شدة هذا العداء ايمان فردريك ايمانا عميقا بفكرة سيادة الامبراطور على العالم

(1) Michelangelo Schipa ; Italy and Sicily Under Frederick II, p. 147.

(2) Michelangelo Schipa : op. cit., p. 154.

كله بتقويض من الله ، كشيئا مطلقا ومسلما به ، وهذه الفكرة تتعارض
تعارضاً صارخاً مع فكرة سيادة البابوية على العالم وسمو سلطة البابا على
سلطة الملوك .

وقد كان نضال البابوات ضد فردريك نضالاً عنيفاً ، وقد وضع
البابوات خلال هذا النضال الغرض الدينى جانبا ، وكانوا ينتقمون لانفسهم
من أعدائهم الشخصيين « هؤلاء ذرية الافاعي من الهوهنستاوفن » الذين
كان البابوات مصرين على ابادتهم^(١) .

وقد اعتمد فردريك في حربه ضد البابوية على مذهب التقشف عند
طائفة الفرنسيسكان لمحاربة دعاوى البابوات الدنيوية ، وكتب في سنة
١٢٢٧ يقول : « ان الكنيسة المسيحية الاولى قامت على الفقر والبساطة في
تلك الايام التي كانت فيها أما رؤوما لجميع المسيحيين وليس لاحد أن
يشرع للناس قواعد غير تلك التي شرعها السيد المسيح »^(٢) .

وهكذا فان عداء فردريك الثانى للبابوية اتسع ليشمل كل من يتلقى
مساعدة من البابوات ، مثل الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ، التي
رأت فيها البابوية وسيلة للاتحاد بين الكنائس الغربية والشرقية ، كما أن
عداء فردريك للبابوية أيضا قاده للتقرب من اليونان الاعداء الالاء
للبابوية وللإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ، وجعله يتعاطف معهم

(1) Vasiliev : History of the Byzantine Empire, Vol II, p. 527.

(٢) فيشر : أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٢٥٣ .

ويتقهم قضيتهم ويؤيدهم ويشد أزهرهم من أجل استعادة حقهم المسلوب
وانسترداد عاصمتهم القسطنطينية من يد اللاتين •

وقد انعكست آراء فردريك الثانى على علاقاته مع اليونان ، وعبر
عنها بوضوح فى رسائله اليهم التى نشرها العالم الايطالى Festa
باليونانية واللاتينية فى مجلة الارشيف التاريخى الايطالى ، العدد الثالث
عشر لسنة ١٨٩٤ (١) •

وقد حدث تقارب بين فردريك الثانى وأمير أبيروس اليونانى ثم
امبراطور سالونيك ثيودور انجيلوس (١٢١٥ — ١٢٣٠) وأرسل اليه
فردريك مساعدات مالية ، وكتب اليه يقول : « نحن نرغب فى الدفاع ليس
فقط عن حقنا ، ولكن أيضا عن حقوق أصدقاءنا وجيراننا الاعزاء ، الذين
يحبون المسيح بنقاء واخلاص ، ويتحدون معنا ، وبصفة خاصة اليونان ،
أصدقاءنا الحميمين ، ان البابا يدعى أنه الاكثر تقوى ، وان اليونان
هم الاكثر اثما وهرطقة » (٢) •

وردا على العلاقات الودية التى قامت بين فردريك الثانى وثيودور
انجيلوس ، أوقع البابا جريجورى التاسع قرار الحرمان واللعنة على
كلا منهما (٣) •

(1) Festa N. : "Le lettre greche di Federigo II", Archivio Storico italiano,
XIII, 1894.

(2) Festa : op. cit., pp. 15 — 16.

(3) Vasiliev : op. cit., Vol II, p. 528.

ولما كان فردريك يتعاطف مع اليونان ، ويؤيد قضيتهم ضد الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ، وضد البابوية ، لذا لم يكن غريبا أن تقوم العلاقات الودية بينه وبين امبراطور نيقية البيزنطية يوحنا فئاتريس ، فراسله هو الآخر ، وأعلن فردريك في إحدى رسائله الى فئاتريس انه لا يتحرك بدافع من شعوره الشخصي لفئاتريس فقط ، ولكن كذلك بواسطة حماسه العام من أجل مساعدة مبادئ السلطة الدينية . كما كتب لفئاتريس يقول : « نحن جميعا ، ملوك وأمراء الارض ، وبصفة خاصة المتحمسين للارثوذكسية ، ديانة وعقيدة ، نؤيد الخصومة مع الاساقفة ، والمقاومة الروحية لزعماء الكنيسة » .

وهتف فردريك في خطاب آخر لفئاتريس :

« آسيا ، أيتها السعيدة ، أيتها القوى المغتربة في الشرق ، انهم لا يخشون أسلحة رعاياهم ، ولا يهابون الاصطدام مع البابوات » .

كتب كذلك فردريك محرضا فئاتريس ضد البابا قائلا :

« لماذا هذا الذى يدعى البابا يقطع سهوك من الكنيسة كل يوم ، بالاسم ، وفي حضور كل الرجال من رعاياك الرومان ؟ وبوقاحة ، يطلق اسم الهرطقة على الارثوذكس الرومان ، الذين عن طريقهم وصلت الديانة المسيحية الى أقصى حدود المعمورة »^(١) .

(1) Festa : op. cit., p. 22.

وقد كانت أسباب عدااء كل من فردريك الثانى ويوحنا فئاتاتريس للبابوية مختلفا ، ذلك ان فردريك تمنى أن ينبذ البابوات ادعاءاتهم للسلطة الدنيوية ، على حين تمنى فئاتاتريس أن تعترف البابوية بالكنيسة الشرقية القائمة بالفعل فى عاصمته نيقية على أنها الكنيسة الرئيسية لليونان ، وبذلك تفقد البطريركية اللاتينية بالقسطنطينية أسباب بقائها ومساندة البابوية لها ، وحينئذ يصبح الامل كبيرا لدى فئاتاتريس فى أن تختفى الامبراطورية اللاتينية ويعود اليونان الى عاصمتهم القسطنطينية •

كذلك فان نظرة البابا تجاه كل من فردريك الثانى وفئاتاتريس كانت مختلفة ، فقد نظر البابا لفردريك على أنه ابن غير مطيع للكنيسة الكاثوليكية ، اعتدى على (نائب المسيح) ، وخليفة القديس بطرس • أما بالنسبة لفئاتاتريس فانه كان فى نظر البابا منشقا وهرطيقا ، عرقل تحقيق أعز حلم للبابوية وهو اعادة اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية •

وهكذا قربت هذه الظروف السياسية وعداء كل من الطرفين للبابا ، بين الامبراطورين فئاتاتريس وفردريك الثانى ، وقد أرادا توثيق صلتهما عن طريق عقد زواج تحالف بين فئاتاتريس وكونستانس ابنة فردريك الثانى • أما تفاصيل هذا الزواج فيتم شرحها فى الفصل التالى من هذا البحث •

الفصل الثالث زواج التحالف

بين يوحنا فانتازيس وكونستانس هوهنستاوفن

- — إتفاقية التحالف بين فانتازيس وفردريك الثانى
- — زواج فانتازيس وكونستانس
- — النتائج التى ترتبت على هذا الزواج
- — الظروف والأحداث التى مرت بكونستانس حتى وفاتها

استعرضنا في الفصل السابق الظروف السياسية لكل من يوحنا فاتاتريس وفردريك الثاني ، وعداء كل منهما للبابا ، وقد ساعدت ظروف أخرى معينة كل من الطرفين على توثيق صلتها ، والارتباط معا برابطة المصاهرة .

ذلك أن زوجة فاتاتريس الاولى ايرين لاسكاريس ، توفيت في ١٢٤١ ، وبعد وفاتها أصبح الامبراطور يعاني من الوحدة ، وأشار المؤرخ البيزنطي جريجوراس الى ذلك بقوله : « ان الامبراطور لم يعد قادرا على أن يتحمل وحدته » (١) ، لذلك تم الاتفاق بين الطرفين على عقد زواج تحالف بين الامبراطور اليوناني يوحنا فاتاتريس وكونستانس هونستافن ، وقد سبق هذا الزواج عقد اتفاقية بين فاتاتريس وفردريك الثاني في ١٢٤٤ نصت على ما يأتي : (٢)

١ — تعهد فردريك لفاتاتريس بأن يتعاون معه في تحرير القسطنطينية من يد اللاتين واعادتها لامبراطورها الشرعى .

٢ — تعهد فاتاتريس في حالة تحقيق فردريك الثاني لوعده باسترداد القسطنطينية أن يصبح فصلا Vassal للامبراطور فردريك الثاني .

٣ — تعهد فاتاتريس للامبراطور فردريك بأن يعيد اتحاد الكنيستين

(1) Gregoras : Historiae Byzantinae, II, p. 45.

(٢) بخصوص نصوص الاتفاقية راجع :

Vasiliev : op. cit., Vol II, p. 528.

Nicol : op. cit., Chapter III, p. 316.

Diehl : op. cit., p. 209.

الشرقية والغربية ، اذا قدر له استعادة القسطنطينية عن طريق مساعدة فردريك الثانى له .

فيما يتعلق بالنص الاول فى هذه الاتفاقية الخاص بوعده فردريك الثانى لفاتاتريس بالعمل على تحرير القسطنطينية من يد اللاتين ، فقد سبقت الاشارة الى أن عدااء فردريك الثانى للبابوية اتسع ليشمل كل من يتعاطف معهم البابا ، وكان الامبراطور اللاتينى فى القسطنطينية أحد هؤلاء الذين يتمتعون بعطف البابا ورعايته . كذلك فان الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية كانت أحد مصادر قوة البابوية ونفوذها ، وكم تمنى فردريك أن تفقد البابوية قوتها ونفوذها . يضاف لذلك أن أحد أهداف فردريك الثانى كان اكتساب نفوذا وامتيازات فى القسطنطينية ذاتها اذا ما ساعد اليونان على استعادتها بالفعل .

أما فيما يتعلق بالنص الثانى فى الاتفاقية الخاص بأن يصبح الامبراطور البيزنطى فصلا (تابعا) للامبراطور فردريك الثانى . فالمرجح أن فاتاتريس قبل التعهد به حتى يكسب عطف فردريك ومساعدته العسكرية له . ومما لا شك فيه أنه اذا كان قد قدر لفاتاتريس أن يستعيد القسطنطينية بالفعل، حتى عن طريق المساعدة العسكرية من جانب فردريك الثانى ، لكان أول شئ فعله هو خلق الولاء والتحلل من هذا النص ، لأنه لم يحدث من قبل أن قبل امبراطور بيزنطى أن يصبح تابعا لامبراطور غربى . اذ المعروف أن نظرة الامبراطور البيزنطى للوك وأباطرة الغرب الاوروبى وخاصة لاباطرة الالمان ، كانت نظرة تعالى واحتقار لهؤلاء الاباطرة (المحدثين)

الذين لم يحصلوا على لقب الامبراطور الا سنة ٨٠٠ ميلادية بتتويج شارلمان امبراطورا • أما الامبراطور البيزنطى فهو وريث الاباطرة الرومان العظماء •

وان كان نفس هذا النص فى صالح فردريك الثانى ، فكون الامبراطور الشرقى يصبح تابعاً له ، فان ذلك كان مما يعزز مركزه أمام البابوية وباقى ملوك الغرب الاوروبى خاصة وأنه حدث لم يسبق لاحد من ملوك الغرب أن حققه •

أما فيما يتعلق بالنص الثالث فى تلك الاتفاقية ، وهو الخاص باعادة اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية ، فهذا فى الواقع محل دهشة ، لانه لم يعرف عن فردريك الثانى اهتمامه بالامور الدينية ، كما أن العداء الذى اشتعل بينه وبين البابوية كان مما لا يسمح له بالعمل على توطيد نفوذها عن طريق اعادة اتحاد الكنيستين ، وتحقيق هذا الحلم الذى سعت اليه البابوية طويلاً • فهل يعقل أن فردريك الثانى هو من يتألفن يهتم فجأة بتعزيز مركز البابوية ويعمل على اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية ؟

الامر فى الغالب ، ليس أكثر من مناورة سياسية من جانب فردريك الثانى قصد من ورائها خدمة مصالحه السياسية ، وليس مصالح البابوية الدينية ، لانه سيثبت للبابوية وبشكل عملى قدرة (الامبراطور) على تحقيق ما عجزت (البابوية) عن تحقيقه ، فها هو حلمها الاعظم يتحقق على يديه ، أو بمعنى آخر يحققه هو لها ، وبذلك يثبت لها بمقدرته وكفاءته ، ويضع نفسه فى المركز الاعلى ، وهى فى المركز الادنى ، وبذلك يبرهن للبابوية عملياً ،

أن السلطة الدنيوية الممثلة في الامبراطور ، أسمى وأعظم من السلطة الدينية الممثلة في البابا ، لان الاولى استطاعت أن تحقق للثانية حلمها الاعظم الذي عجزت عن تحقيقه قرون طويلة •

وهكذا يتضح أن هذا النص الخاص باتحاد الكنيستين والذي يبدو للوهلة الاولى هدفا دينيا بحثا قصد به خدمة البابوية وتحقيق حلمها ، ما هو في الواقع الا هدفا سياسيا قصد به فردريك خدمة أهدافه ومصالحه السياسية ، وكسب جولة جديدة في سلسلة صراعه الطويل مع البابوية •

وبعد ابرام هذه الاتفاقية بين الطرفين ، تم زواج الامبراطور يوحنا فاتاتزينس من كونستانس هوهنستاوفن في عام ١٢٤٤ في مدينة بروسا B:usa في آسيا الصغرى^(١) • ويدعى بعض المؤرخين أن كونستانس كانت ابنة غير شرعية لفردريك الثاني^(٢) • ولكن هذا الادعاء غير صحيح ، فهي ابنة شرعية لفردريك ، وهي شقيقة ابنه مانفريد ، وقد أنجبهما كلاهما من زوجته الثالثة بيانكا لانسيا Bianca Lancia^(٣) •

(1) Diehl : Figures Byzantines, Deuxieme Série, Paris, 1921, p. 211.

Miller : The Empire of Nicaea, in C.M.H. Vol IV, p. 495.

(2) Nicol : op. cit., p. 316.

Whitting : Byzantium, Oxford, 1981, p. 115.

(3) Diehl : op. cit., p. 210.

Marinesco: Du Nouveau Sur Constance de Hohenstaufen impératrice de Nicée, dans (Byzantion), Revue International Des Etudes Byzantines, tome I, Paris, 1924, p. 452. Vasiliev : op. cit., p. 528.

وكان فئاتريس آنذاك في الثانية والخمسين من عمره ، على حين كانت كونستانس في الثانية عشر فقط أى بمسارق بينهما في العمر أربعين عاما . وقد اشترط فئاتريس أن تعتنق العروس مذهبه هو ، أى المذهب الارثوذكسى ، مذهب الكنيسة اليونانية التى منحتها اسما يونانيا هو *Anna* . (١) .

وقد منحها فئاتريس بمناسبة الزواج ، ثلاث مدن في آسيا الصغرى ، عائدها السنوى يبلغ ثلاثون ألف بيزانط^(٢) ، أما والدها فقد منحها الكثير من الاموال والمجوهرات كما زودها بحاشية كبيرة من الوصيفات الايطاليات^(٣) .

= والجدير بالذكر أن الزوجة الاولى لفردريك الثانى كانت كونستانس اوف اراجون ، شقيقة بطرس الثانى حاكم اراجون ، وقد خطبها له البابا اينوسنت الثالث اثناء زيارة شقيقها لروما في ١٢٠٤ ، وتزوجها فردريك وتوفيت في ٢٣ يونيو ١٢٢٢ ، وكانت الزوجة الثانية له هى يولاند ابنة حنادى برين وقد خطبها له البابا هونوريوس الثالث وتزوجها فردريك في ٩ نوفمبر ١٢٢٥ كما سبقت الاشارة الى ذلك ، وتوفيت في ابريل ١٢٢٨ ، راجع عن ذلك :

C. Med. H. Vol VI, ed, Bury Cambridge, 1968, pp. 14, 144, 161.

(1) Diehl : op. cit., p. 211.

(٢) البيزانط Byzant هو الاسم الذى عرفت به دول اوروبا العملة

البيزنطية المعروفة باسم النوميisma Nomisma ، وهى عملة ذهبية كانت تساوى واحدا على اثنين وسبعين من الرطل من الذهب منذ عهد قسطنطين الاكبر ، وان كان سعرها يرتفع او يهبط حسب ظروف الامبراطورية وكانت النوميisma تنقسم الى ١٢ ميلياريسيا ، وهى تنقسم بدورها الى اثني عشر فلسا . راجع :

Hetherington : Byzantium, City of Gold, City of Faith, Obris Publishing Limited, London, 1983, p. 75.

Runciman : Byzantine Civilisation, pp. 176 — 177

(3) Marinesco : op. cit., p. 455.

Diehl : op. cit., p. 224.

وهكذا تمت هذه المصاهرة بين الشرق اليونانى والغرب اللاتينى
وتوثقت الصلة بينهما .

ولكن ما هى النتائج التى ترتبت على هذا الارتباط ؟ وما هو موقف
بابا روما من هذه المصاهرة ؟ وما هو موقف بطريك نيقية أيضا والشعب
اليونانى ؟ وهل نجحت هذه المصاهرة فى تحقيق مكاسب سياسية هامة لكلا
الطرفين ؟ وهل سعدت كونستانس ، أعنى (آنا) بهذا الزواج ؟
ان أول نتيجة ترتبت على هذا الارتباط هو غضب بابا روما اينوسنت
الرابع (١٢٤٣ - ١٢٥٤) غضبا شديدا ، لتخلى كاثوليكية عن عقيدتها ،
واعتناقها المذهب الارثوذكسى وزواجهما من أرثوذكسى يعتبر منشقا وهرطيقا
فى نظر البابا . وكان ان أوقع البابا قرار الحرمان واللعنة على كلا من
الامبراطورين ، وذلك فى مجمع ليون فى ٢٨ يونيو ١٢٤٥ ، يوحنا فئاتاتريس
لأنه منشقا وهرطيقا ، وفردريك الثانى لأنه زوج ابنته من منشق
وهرطيق (١) .

وقد وصف ماثيو الباريسى Mathew Paris الصدمة التى سببها
هذا الزواج فى الغرب الاوروبى بقوله :

« نظر الى هذا الزواج من جانب البابا وكل رجال الدين الرومان على
أنه اثم خطير ، لأنه من خلال يوحنا فئاتاتريس نفسه ، ازداد الانقسام

(1) Diehl : Figures Byzantines, p. 210.

Marinesco: Du Nouveau Sur Constance de Hohenstaufen, p. 452.

Wolff : The Latin Empire, p. 225.

اتساعا بين الكنيستين الرومانية واليونانية ، حينما أطلقت عليه الكنيسة الرومانية وصف الهرطيق « (١) » .

وإذا نحينا موضوع الهرطقة والانشقاق جانبا ، فإن البابا كان يرى أن هذا الارتباط بين الطرفين ارتباطا غير مرغوب فيه ، لأنه يجمع بين عدوين للبابوية في تحالف لا بد وأن يثير المتاعب في وجهها مستقبلا .

أما بالنسبة لموقف بطريرك نيقية من هذا الزواج ، فقد سبق أن أوضحت أن البطريرك اليوناني كان على استعداد لتجاهل الاعتراضات الكنسية التي كان من الممكن أن يبرزها في موقف آخر ويتمسك بها ، إذا كان من وراء هذا الزواج منفعة سياسية تخدم قضية اليونان ضد اللاتين . أضف الى ذلك أن اعتناق كونستانس للمذهب الارثوذكسي ، مذهب الكنيسة اليونانية ، قد قضى على أية اعتراضات من الممكن أن يحتج بها البطريرك الارثوذكسي .

أما شعب نيقية ، فقد رحب بهذا الزواج ، ونظمت الاشعار التي توضح مدى فرحتهم وابتهاجهم بهذا الزواج ، ومنها ما قاله نيقولاس ايرنيكوس (٢) :

تلتف شجرة اللباب التقانا رقيقا حول شجرة السرو المحبوبة

(1) Mathew Paris : Chronica Majora, 1877, Chapter IV, p. 299.

(٢) انظر أبيات الشعر في المرجع التالي :

Vasiliev : op. cit., pp. 528 — 529.

الامبراطورة هي شجرة السرو ، وامبراطوري هو شجرة اللبلاب
أما على المستوى السياسى ، فلم تسفر هذه المصاهرة عن أية نتائج
ايجابية للطرفين على حد سواء ، فلم نعثر فى المصادر المعاصرة أو المتأخرة
زمنيا ، على أية اشارة لاية محاولة عسكرية مشتركة قام بها الحليفان من
أجل استعادة القسطنطينية ، ولم يقدم فردريك لفاتاتريس أية مساعدة
عسكرية من أجل استرداد العاصمة البيزنطية ، وتحقيقا لنص الاتفاقية
بينهما ، بل ان الذى حدث هو أن فاتاتريس قدم المساعدة العسكرية لفردريك
وأرسل اليه بفوات يونانية حاربت معه فى ايطاليا^(١) .

وإذا بحثنا عن أسباب ذلك وجدنا أن صراع فردريك الثانى مع
البابوية ، والذى حرخت فيه البابوية وأيدت جميع القوى المعارضة لفردريك
سواء فى ايطاليا وصقلية ، أو فى ألمانيا ، لم يتح له الفرصة لتقديم المساعدة
العسكرية لفاتاتريس^(٢) .

على أية حال ، فقد استمرت العلاقات طيبة بصفة عامة بين الطرفين
حتى وفاة فردريك الثانى فى ١٢٥٠ ، لكن العلاقات لم تلبث أن تغيرت الى
الاسوأ فى عهد ابنه مانفريد الذى خلفه فى حكم صقلية . وهكذا فان

(1) Diehl : op. cit., p. 209.

Vasiliev : op. cit., p. 528.

(٢) انظر تفاصيل هذا الصراع فى البحثين التالبيين :

Michealangelo Echipa : Italy and Sicily Under Frederick II, in C. Med.

H. Vol VI, ed. Bury, pp. 157 — 165.

Austin Lanepoole : Germany in the reign of Frederick II, in C. Med. H.,
Vol VI, pp. 80 — 109.

« التحالف الذى حلم به فردريك الثانى ، أصبح لا شئ أكثر من مجرد ذكرى » • على حد تعبير المؤرخ الفرنسى شارل ديبل^(١) .

أما عن حظ كونستانس فى هذا الزواج ، فقد كان تعيسا الى أبعد الحدود ، ذلك أن زوجها الامبراطور يوحنا فاتاتريس ، لم ترق له هذه الطفلة التى تزوجها فقط لاسباب سياسية بحتة ، فوقع فى غرام احدى وصيفاتها الايطاليات Lady-in-Waiting التى ذكر المؤرخون البيزنطيون أنها تسمى الماركيزة nomine Marcesina^(٢) والتى امتازت بجمال أخاذ ، وعينين رائعتين ، واناقة فائقة • وقد فتنت هذه الماركيزة الامبراطور فاتاتريس ، ولبى لها جميع طلباتها ، فأسكنها فى قصر خاص لا يقل جمالا وفخامة عن القصر الامبراطورى ، وسمح لها باتخاذ كافة الشارات الملكية التى كانت وفقا فقط على الامبراطورة ، وقد حظت بكل مظاهر الاحترام وكأنها امبراطورة شرعية ، حتى أن كونستانس تراجعت الى المرتبة الثانية بعد هذه الماركيزة •

وقد لخص المؤرخ البيزنطى نقفورجرجوراس ، الموقف فى هذه العبارة ، التى أوضح فيها كيف أصبح واضحا للعيان أن الامبراطور يعيش قصة حب هشة مع هذه الماركيزة ، وكيف انه خدع الامبراطورة آنا وأهملها ، قال جريجوراس^(٣) :

(1) Diehl : op. cit., p. 220.

(2) Gregoras : Historiae Byzantinae, ed. Bonn, II, p. 45.

(3) Gregoras : Historiae Byzantineae, II, p. 45.

”Imperatoris oculos in se convertit amorque sui sic incendit, at iam haec dissimulanter Imperatrix Anna prae ea negligetur.”

وقد أثارت علاقة فاتاتريس بهذه الماركيزة الإيطالية شعور الكراهية والبغض لها لدى الشعب اليوناني ، كما أثار تعاطفهم مع الامبراطورة (أنا) وقد تسببت هذه الماركيزة في إثارة بعض الفضائح والاضطرابات مما أساء أبلغ الاساءة لشعور كونستانس .

من ذلك تلك الحادثة التي كان لها دوى هائل ، ذلك انه حوالى عام

١٢٤٨ أصبح الكاتب والعالم الشهير نقفور بليميدس Nicephorus

Blemmydes رئيسا لدير القديس جريجورى St. Gregory

بالقرب من أفيسوس . وكان معروفاً عن نقفور كراهيته الشديدة لهذه الماركيزة ، بسبب تحررها الزائد عن الحدود ، وبسبب جنسيتها الإيطالية ، وهو الراهب الذى اختص النساء عموما والاجانب بكراهيته ، فصمت هذه الماركيزة على تحديه . وذات يوم من عام ١٢٥٠ ، اقتحمت الماركيزة كنيسة فى موكب امبراطورى محاطة بحاشيتها ، وكان من بينها عدد من الفرسان ، فى نفس اللحظة التى كان يقوم فيها بليميدس بالشعائر الدينية الخاصة برسم أحد رجال الدين . وعلى الفور أمر بليميدس بطرد (هذه المرأة الفاجرة التى دنست هذا المكان المقدس بحضورها اليه) على حد تعبيره . فاندفع أحد حراسها من الفرسان ليذبح هذا الراهب الجرىء بليميدس وهو واقف عند مذبح الكنيسة ، لتطاوله على سيدته الماركيزة ، لكن سيفه التصق بغمده ولم يخرج منه . وقد ردت الماركيزة على غضب بليميدس بتماديها فى مجونها ومرحها الصاخب ، ثم غادرت الكنيسة ،

وطالبت بمحاكمة بليميدس بعد أن وجهت اليه تهمة ، العيب في الذات الملكية ، والسحر .

وقد دافع بليميدس عن نفسه في خطاب عنيف اللهجة ، ولم يعاقبه الامبراطور فاتاتريس ، بل برأه من التهمتين المنسوبتين اليه^(١) . وربما كان الدافع لهذا التصرف من جانب الامبراطور هو خوفه من حدوث صدام بينه وبين بليميدس الذي كان يتمتع بحب الجماهير واحترامهم نظرا لما عرف عنه من طهر أخلاقه ووطنيته الصادقة . أو ربما أدرك الامبراطور أن تصرفات هذه الماركيزة قد تجاوزت كل الحدود بشكل أصبح يهدد علاقته بشعبه ، فأراد أو يضع حدا لتصرفاتها هذه .

وبعد هذه الفضيحة لم يأت ذكر لهذه الماركيزة في المصادر اليونانية . ويرجح المؤرخ ميللر Miller أنها تزوجت من أحد الايطاليين في ١٢٥٣ وعادت معه الى موطنها الاصلى في ايطاليا حيث استقرت هناك^(٢) . وبعد أخفاء هذه الماركيزة أتيح لكونستانس أخيرا أن تأخذ مكانتها كامبراطورة شرعية لليونان في نيقية ، وأن تمارس بعض النفوذ على زوجها ، ولم يطل ذلك اذ توفي فاتاتريس في العام التالي مباشرة في ٣ نوفمبر ١٢٥٤^(٣) ، أى بعد عشر سنوات من زواجه من كونستانس ، التي أصبحت أرملة ولم يتعد عمرها الثانية والعشرين عاما .

(1) Gregoras : Historiae Byzantinae, II, pp. 45 — 46.

(2) Miller : The Empire of Nicaea, p. 496.

(3) Georgii A Cropolites opera, p. 103.

Ostrogorsky : op. cit., p. 444.

Polimes : The Doukai, p. 108.

وقد خلف فاتاتريس على العرش ابنه ثيودور الثانى لاسكاريس من زوجته الاولى ايرين لاسكاريس ، الذى كان يكن كراهية خاصة للاتين ، ولزوجة أبيه كونستانس ، يضاف الى ذلك عدااء مانفريد شقيق كونستانس لامبراطورية نيقية البيزنطية، وقد أدى كل ذلك الى القبض على كونستانس ووضعها فى السجن ، وقد ظلت به حتى تولى ميخائيل باليولوجوس عرش نيقية فى عام ١٢٥٩ ، وفى ١٢٦١ تم له استرداد القسطنطينية من يد اللاتين، وقد انتقلت كونستانس من سجن نيقية ، لتوضع فى سجن القسطنطينية . ولم يلبث ميخائيل باليولوجوس أن أغرم بشدة بالارملة الشابة كونستانس وأراد أن يقيم معها علاقة غير شرعية، ولكنها رفضت باصرار وأباء ، وأفهمته أنها ابنة امبراطور ، وأرملة امبراطور ، ولا يليق بها أن تنزلق الى هذا المنحدر ، أما ان أراد أن يتخذها زوجة فلا مانع لديها^(١) . وقد وافق ميخائيل على أن يتزوجها ، بل انه حلم بذلك ، ولكن برزت أمامه مشكلة ، وهى انه كان متزوجا بالفعل ، وحينما أراد أن يتفصل عن زوجته ثيودورا تمهيدا لزواجه من كونستانس رفضت زوجته ، وأيدها بطريك القسطنطينية فى موقفها ، وأمام نصائح وتهديدات البطريك ، صدع ميخائيل بالامر ، وتم الاتفاق بين الجميع على أن يصرح لكونستانس أن تغادر الاراضى البيزنطية ، فرحلت الى شقيقها مانفريد فى صقلية^(٢) .

ولم يكن ذلك نهاية المطاف بالنسبة لكونستانس ، فلم تلبث أن روعت بفقد أخيها مانفريد ، اذ أن البابا أيربان الرابع (١٢٦١-١٢٦٤)

(1) Diehl : op. cit., pp. 220 — 221.

(2) Marinesco : Du Nouveau Sui Constance de Hohenstaufen, p. 453.

استأنف الصراع ضد الهوهنشتاوفن ممثلا في مانفريد ، فوقع عليه قرار
الحرمان في ٢٩ مارس ١٢٦٣ ، وجاء خليفته البابا كليمنت الرابع (١٢٦٥ -
١٢٦٨). الذي كان من أصل فرنسي ، فقدم تاج صقلية الى شارل دانجو
Charles D'Anjou الفرنسي^(١) ، وجرت المعركة الحاسمة بينه وبين
مانفريد في ٢٦ فبراير ١٢٦٦ عند مدينة بنفنتو الإيطالية ، وقتل مانفريد في
هذه المعركة^(٢) . وبعد المصير الذي آل اليه والدها وزوجها
وشقيقها ، لجأت كونستانس الى اسبانيا ، عند ابنة أخيها
مانفريد وتسمى كونستانس أيضا ، التي كانت قد تزوجت من بطرس
الثالث Peter III وريث عرش مملكة أراجون . وقد وصلت كونستانس

(١) ولد شارل دانجو في عام ١٢٢٦ ، وهو الابن العاشر لملك فرنسا
لويس الثامن ، الذي منحه حكم كونتية انجو التي تقع الى الغرب من فرنسا
على ضفافه نهر اللوار . وعن طريق زواجه من بياتريس Beatrix
وريثة اقليم بروفانس ، أصبح أيضا كونتا على بروفانس ، ثم بدأ يتدخل في
شئون ايطاليا وبمساعدة شقيقه لويس التاسع ملك فرنسا حارب شارل دانجو ،
مانفريد هوهنشتاوفن ، وفتح صقلية ، وحاول تأسيس مملكة تسيطر على البحر
الابيض المتوسط تكون صقلية عاصمتها . ثم قامت الاضطرابات السياسية في
حماة بنحريض من ملك أراجون بطرس الثالث الذي كانت زوجته كونستانس
ابنة مانفريد هي وريثة عرش صقلية ، حتى كانت الثورة الكبرى في صقلية
Sicilian Vespers في ٣٠ مارس ١٢٨٢ ، التي اطاحت بحكم شارل
دانجو في صقلية ، وتم اعلان بطرس الثالث الارجوني ملكا على صقلية في عام
١٢٨٢ ، وعادت كونستانس ابنة مانفريد كملكة على ملك أبيها في صقلية . اما شارل
دانجو فقد نقل مقر حكمه الى نابلي ولم يلبث أن توفي في ٧ يناير عام ١٢٨٥ .

راجع :

Previté - Orton : Italy (1250 — 1290), C. Med. H. Vol VI, pp. 197 — 202.

Runciman : The Sicilian Vespers, 1958.

Lewis : Later Medieval France, 1968.

Chaytor : A History of Aragon and Catalonia 1933.

(2) Previté - Orton : op. cit., pp. 183 — 186.

الى أراجون في سبتمبر ١٢٦٩ ، واستقبلها الملك جاك الاول Jacques I (١٢١٢ - ١٢٧٦) استقبالا طيبا جدا ، ومنحها مدن وأراضى في مملكة
فلنسية . وخلال حكم من تلاه من ملوك أراجون وهم بطرس الثالث (١٢٧٦-١٢٨٥ -
١٢٨٥) ، وابنه وخليفته ألفونسو الثالث Alfonso III (١٢٨٥ -
١٢٩١) ، وجاك الثانى Jacques II (١٢٩١-١٣٢٧) عاشت كونستانس
محفوظة بكل مظاهر الرعاية والاهتمام .

وفي أواخر حياتها ترهبت كونستانس ، والتحقت بدير للراهبات في
فلنسية يدعى Saint - Barbe . وحينما شعرت بدنو أجلها، أحصت
ثروتها وممتلكاتها التى كان والدها وزوجها قد منحها إياها ، وكانت هذه
الثروة تقدر بحوالى ٣٠٠ ألف بيزانط ، وكانت موجودة كلها داخل أراضى
الدولة البيزنطية . وقد حاولت كونستانس استرداد ثروتها هذه، مرة خلال
أقامتها بصقلية ، وأخرى خلال أقامتها باراجون ولكن المحاولتين باءتا
بالفشل ، بعد أن رفض البابايرة البيزنطيون ردها إليها .

لذلك فقد كتبت وصيتها ، وتنازلت فيها عن كل ممتلكاتها لدى
البيزنطيين لصالح جاك الثانى الاراجونى^(١) ، اعترافا منها بفضلها عليها هو
وأسلافه من ملوك أسبانيا .

(١) هذا وقد أرسل جاك الثانى رسولا من عنده الى الامبراطور البيزنطى
أندرونيكوس الثانى باليولوجوس (١٢٨٢ - ١٣٢٨) فى ١٣٢٢ للمطالبة بتنفيذ
وصية كونستانس وتسليمه ممتلكاتها ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح ، كذلك أعاد
المحاولة من جاء بعده من الملوك الاسبان ، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل . راجع:
Marinesco : op. cit., pp. 456 — 457.

وفي عام ١٣١٣ وافاها الاجل ، بعد حياة امتدت لاكثر من ثمانين عاما ،
ودفنت في كنيسة صغيرة تسمى Saint - Jean في فلنسية ، في
تابوت من الخشب كتب عليه باللغة الاسبانية ما معناه :

« ترقد هنا كونستانس ، الامبراطورة العظيمة لليونان » (١) .

وعلى هذا النحو وضعت الخاتمة لحياة كونستانس هو هنستاوفن بعد
قصة زواج تحالف كانت فيه الضحية لاهداف سياسية خاضة بوالدها
وحليفه يوحنا فاتاتريس ، ثم رحل والدها الامبراطور العظيم فردريك
الثاني ، ورحل زوجها الامبراطور يوحنا فاتاتريس ، ورحلت معهما اهدافهما
السياسية ، ولم يبق من ذلك كله سوى ضحية بريئة استمرت في المعاناة
ما بقي لها من الحياة داخل حدود الامبراطورية البيزنطية ، من جراء هذا
الزواج الذي لم تسعد به يوما واحدا ، ثم رحلت عن هذه الاراضي التي
شهدت تعاستها ، وخلعت عنها هذا الاسم اليوناني (آنا) الذي كان لا بد
وأنة يذكرها بهذه التعاسة ، واستردت اسمها اللاتيني (كونستانس) وهو
كل ما تبقى لها ، بعد أن جردها اليونان من جميع ممتلكاتها ، وحتى متعلقاتها
الشخصية ، ولولا استضافة الملوك الاسبان لها ، لما تمكنت من مواصلة
الحياة الكريمة ، بعد كل المصائب التي حلت بها وبعائلتها .

كانت هذه قصة زواج تحالف واحدة ، من بين قصص عديدة ، لزيجات
تحالف عديدة لم تبحث بعد ، ترى كيف كانت حياة العديد من الفتيات

(1) Diehl : op. cit., p. 207.

Marinesco : op. cit., p. 457.

اللاتى تزوجن زواج تحالف ؟ كيف كانت حياة ماريا حفيدة رومانوس
ليكابينوس وسط قبائل البلغار ؟ وكيف مضت حياة آنا حفيدة قسطنطين
السابع وشقيقة باسيل الثانى المقدونى وسط القبائل الروسية ؟ وما هو
المصير الذى آلت اليه برثا أوف سلزباخ الالمانية أو أيرين كما أسمتها
الكنيسة اليونانية ؟ وغيرهن وغيرهن •

ان الموضوع مفتوح ، وفى حاجة للمزيد من الجهود والابحاث •

المصادر والمراجع

- Amari : *Storia dei Musulmani di Sicilia*, 1937.
- Angold : *A Byzantine Empire in Exile, Government and Society Under the Laskarids of Nicaea 1204-1261*, Oxford, 1975.
- Archer and Kingsford : *The Crusades*, London, 1894.
- Austin — Lane Poole : *Germany in The Reign of Frederick II*, in *C. Med. H. Vol VI*, ed. Hussey, Cambridge, 1968.
- Barrachough : *The Medieval Papacy*, London, 1976.
- Brehier : *Vie et Mort de Byzance*, ed. Albin Michel, Paris, 1969.
: *La Civilisation Byzantine*, ed Albin Michel, Paris, 1970.
: *L'Institutions de L'Empire Byzantine*, ed. Albin Michel, 1970.
- Buchler : *Die Hohenstaufen*, 1925.
- Chaylor : *A History of Aragon and Catalonia*, 1933.
- Choniates : *Historia*, ed. Bekker, *Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae*, Bonn, 1835.
- Cinnamus : *Historiarum*, in *C.S.H.B.* Bonn, 1836.
- Clari (R.) : *La Conquete De Constantinople*, ed. par Lauer, Paris, 1924.
- Constantini Porphyrogeniti; *De Administrado Imperio*, *C.S.H.B.*, Bonn, 1840.
- Demetrios Chomtianos, ed. Pitra, in (*Analecta Sacra Spicilegio Solesmensi Parata*) Rome, 1891.
- Diehl (Ch.) : *Figures Byzantines*, Deuxième Serie, Paris, 1921.
- Festa (N.) : "Le Lettre greche di Federigo II", *Archivio Storico italiano*, XIII, 1894.
- Finlay : *History of the Byzantine Empire. from DCXIV to MLVII*, london. 1856.
- Ford : *The Byzantine Empire*, London, 1911.

- Georgii Acropolites opera, ed. Heisenberg. Leipzig. 1903. (Bibliotheca Scriptorum Graecorum et Romanorum Teubneriana).
- Gregoras (N.) : *Historiae Byzantinae*, in C.S.H.B. ed. Weberi, Bonn, 1829.
- Grousset (R.) : *Histoire des Croissades et du Royaume Franc de Jerusalem*, Paris, 1946.
- Grumel (V.) : *L'Authenticité de La Lettre de Jean Vatatzes empereur de Niceé, au Pape Gregoire 1 X*, *echos d'orient*, XXIX, 1930.
- Guillon : *La Civilisation Byzantine*, Arthand, Paris, 1974.
- Hetherington : *Byzantium, city of Gold, City of Faith*, obris Publishing limited, 1983.
- Huillord (B.) : *Introduction d'histoire diplomatique de l'empereur Fredric 11*, Paris, DL VII.
- Hussey (J.) : *The Later Macedonians The Comneni and The Angeli, 1024 — 1204*, in C. Med. H. Vol IV, Part 1, ed. Hussey, Cambridge, 1975.
- Hyde : *Society and Politics in Medieval Italy*, 1973.
- *The Illustrated Encyclopaedia of Medieval Civilization*, U.S.A. 1980,
- Kantarowicz (E.) : *Frederick The Second*, English Transl. London 1931.
- Lewis : *Later Medieval France*, 1968.
- *Lexicon Universal Encyclopedia*, Published by Lexicon Publications, U.S.A. 1983.
- *Lincoln Library of Essential Information*, Thirty — Ninth edition, U.S.A. 1978.

- **Marinesco : Du Nouveau Sur Constance de Hohenstaufen**, in (Byzantion) *Revue Internationale des Etudes Byzantines*, tome I, Paris, 1924.
- **Mas - Latrie : Histoire de l'île de Chypre Sous les Princes de la maison de Lusignan**, 3 Vols, Paris, 1852 — 1961.
- **Mathew de Paris : Chronica Majora**, 1877.
- **Michelangelo-Schipa : Italy and Sicily Under Frederick II**, in C. Med. H. ed. Bury, Vol VI, Cambridge 1968.
- **Miller : The Empire of Nicaea and the recovery of Constantinople**, in C. Med. H. ed. Bury, Vol IV, 1923.
- **Miller : Imperial Constantinople, U.S.A.**, 1969.
- **Nicol (D.) : Byzantium, its ecclesiastical history and relations with Western World**, Variorum Reprints, London, 1972.
- **Nomo canon Photii Patriarchae Constantinopolitani**, ed. Christophorus Iustellus, Latins transl. Paris, 1615.
- **Ostrogorsky : History of the Byzantine State**, English transl. by Hussey, Oxford, 1968.
- **Painter : A History of The Middle Ages**, New York 1954.
- **Pears : The Fall of Constantinople being The Story of The Fourth Crusade**, New York, 1975.
- **Polemis (D.) : The Doukai, A Contribution to Byzantine prosopography**, University of London, Historical Studies, XXII, 1968.
- **Previté - Orton : Italy (1250 — 1290)** in C. Med. H. Vol. VI, ed Bury, Cambridge, 1968.

- Psellos : Chronographie, Serie par Renauld, Paris, 1928.
- Roncaglia (M.) : Les Freres Mineurs et l'eglise grecque Orthodox du XIII^e Siècle, 1231 — 1274. Biliblioteca della Terra Santa edell, Oriente Francescono, Ser. 4. Studi Cairo, 1954.
- Runciman : the history of the the Crusades, 3 Vols, Cambridge University Press, 1966.
- Runciman : The Byzantine Civilisation, Seventh Impression, Great Britain, 1975.
: The Byzantine Theocracy, Cambridge University Press, 1977.
- Schlumberger (G.) : L'epopeé Byzantine à la fin du dixième Siècle, 3 Vols, Paris, 1896 ; 1950.
- Setton : A History of Crusades, Pensylvania, 1958.
- Stubbs : Seventeen Lectures on the Study of Medieval and Modern History, Oxford, 1900.
- Vasiliev : History of the Byzantine Empire, (324 — 1453), 2 Vols, U.S.A. 1971.
- Villehardouin : La Conquete de Constantinople Par Les Barons Français associez que Venitians l'an: 1204, English Trans. by Sir Marzials, London, 1965.
- Waley (D.) : The Italian City Republics, 1969.
- Whitting : Byzantium, Oxford, 1981.
- Wood and Fyfe, Trans. and ed., The Art of Falconry. 1943.
- Zonaras : Epitomae Historiarum, C.S.H. B. Bonn, 1838.

طبع بمطابع جريدة السفير

رقم الايداع بدار الكتب

٨٨ / ٥٥٨٨

بتاريخ ١٩٨٨ / ٨ / ٣٠

البحث الرابع

معركة بلا جونايا
ونهاية الصراع بين نقية وايسروس حول القسطنطينية

دكتور
اسم غنيم

١٩٨٩

دار المعرفية الجامعية
شارع ستينز الإدارية
الاستعمارية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ليس هناك حدث في تاريخ منطقة شرق أوروبا وغرب آسيا الصغرى ،
ثناء الفترة السابقة مباشرة على استرداد امبراطورية نيقية البيزنطية
للقسطنطينية في عام ١٢٦١م ، أكثر أهمية من معركة بلاجونيا (١) أكتوبر
١٢٥٩م ، والانتصار الذى حققته قوات ميخائيل باليولوجوس على قوات
الحلف الثلاثى ضده ، الذى تكون من ميخائيل الثانى أنجيلوس اليونانى
الاصل ، حاكم امارة ابيروس ، وما نغريد هو هنتاوقن ، الالماني -
النورمانى ملك صقلية ، ووليم الثانى أوف فيلها رديوين ، الفرنجى ،
امير امارة آخايا فى شبه جزيرة المورة .

والمعروف أنه كان هناك تنافس شديد بين نيقية وابيروس ، وهما
الامارتان اللتان أسستا بعد الفتح اللاتينى للقسطنطينية فى ١٢٠٤م ،
وظلتا تناضلان من أجل استعادة القسطنطينية ، وقد استطاع الامبراطور
يوحنا فئاتزيس (١٢٢٢ - ١٢٥٤م) وهو ثان امبراطور بتولى عرش
امبراطورية نيقية البيزنطية ، أن يجرد امبراطور القسطنطينية اللاتينى من
معظم أملاكه فى آسيا الصغرى وأوروبا . ففى عام ١٢٢٥م . نجح فئاتزيس
فى فتح معظم أملاك اللاتين فى آسيا الصغرى ، كما قام أسطوله بالاستيلاء
على شبه جزيرة غاليبولى Gallipoli ، وجزر لسبوس ، خيوس ،
ساموس ، ايكاريا ، ورودس . وقد اضطر اللاتين الى عقد هدنة
معه اعترفوا له بكل فتوحاته على حساب ممتلكاتهم فى آسيا الصغرى ،

(١) يطلق على هذه المعركة أيضا اسم معركة كاستوريا Castoria
وهو اسم المدينة التى يقع على سهل بلاجونيا بالقرب منها فى غرب اقليم
مقدونيا ، راجع :

Vasiliev, A, History of the Byzantine Empire (324-1453) U. S. A.
1971, Vol. 11, P. 537.

فيما عدا مدينة نيقوميديا التي بقيت في أيديهم(١) .

ولم يلبث فاتاتزيس أن نقل نشاطه العسكري الى الجانب الاوروى واستولى على العديد من المدن الساحلية، ثم استولى على مدينة أدرنة وهي المدينة الرئيسية لللاتين في الجانب الاوروى ، مما أشعل النضال بينه وبين حاكم ابيروس اليوناني ثيودور انجيلوس (١٢١٥ - ١٢٣٠م)، الذي كان قد استولى على مدينة سالونيك في ١٢٢٤م ، وتوج بها امبراطورا وأطلق على نفسه لقب ، امبراطور وأوتوقراطور الرومان ، Basileus and Autocrator, of the Romaioi فقد اندفع ثيودور من سالونيك شرقا وفتح معظم اقليم تراقيا في شمال بلاد اليونان ، وانتزع أدرنة من يد فاتاتزيس ، وواصل فتوحاته بتراقيا حتى وصل الى اسوار القسطنطينية(٢) .

وقد انتهى الصراع بين الطرفين اليونانيين ، باجتياح فاتاتزيس لاقليم تراقيا ومقدونيا ، ووصله حتى نهر ماريقا Marica في تراقيا ، ونهر الفاردار Vardar في مقدونيا ، ثم اتجه الى سالونيك ودخلها في ديسمبر ١٢٤٦ ، وقبض على امبراطورها اليوناني ديمتريوس انجيلوس (١٢٤٤ - ١٢٤٦م) الذي كان يحكمها مع والده الضير ثيودور انجيلوس ، وأرسله الى نيقية أسيرا ، وعين لحكم سالونيك أحد رجاله وهو أندرونيكوس باليولوجوس ، الذي أصبح له حكم جميع فتوحات نيقية في الجانب الاوروى(٣) .

-
- 1) Nicephorus Gregoras : Historiae Byzantinae, in C. S. H. B. Ed weberi, Bonnae, valumen I, P. 29.
 - 2) Wolff : Studies in the latin Empire of constantinople; London 1976, chapter I, P. 215.
 - 3) Miller : The Empire of Nicaea and the recovery of constantinople in C. Med. H. Ed. Bury, Cambridge, 1923, Vol. IV, P. 493.
Ostrogorsky : History of the Byzantine state, English translation by Hussey, Oxford, 1968, PP. 439-440.

لكن أحد أبناء ميخائيل الاول أنجيلوس ، وهو ميخائيل الثانى استطاع أن يستقل بابيروس وضم اليها اقليم تساليا Thessally ، وكون منهما امارة خاصة به (١) ، استأنفت الصراع مع امبراطورية نيقية البيزنطية ، خاصة وأن ابن يوحنا فاتاتريس وخليفته ثيودور الثانى لاسكاريس (١٢٥٤ - ١٢٥٨م) لم يفرط فى فتوحات والده فى الجانب الاوروبى ، بل لقد نجح فى امتلاك مدينة سرفيا Servia ومدينة ديراخيوم Dyrrachium (دورازو) على ساحل البحر الادرياتيكي ، والمدينة الاولى تقع الى الشرق من امارة ابيروس ، أما المدينة الثانية فتقع الى الغرب من هذه الامارة (٢) .

وقد استغل ميخائيل الثانى انجيلوس ، حاكم ابيروس الاحداث الداخلية التى مرت بها امبراطورية نيقية البيزنطية ، ليوسع ممتلكاته على حساب املاكها فى الجانب الاوروبى وليطرد نفوذها من هناك ، تمهيدا لانفراده بالاستيلاء على القسطنطينية .

وتتلخص هذه الاحداث ، فى أن ثيودور الثانى لاسكاريس كان مصابا بمرض الصرع وفى اواخر أيامه ، حينما أخذت نوبات المرض تشتد عليه ونظرا لأن ابنه الذى سوف يخلفه على العرش ، وهو يوحنا الرابع لاسكاريس ، كان لايزال طفلا صغيرا لم يتعد بعد السابعة من عمره ، فقد

1) Miller : Op. Cit. P. 494.

Ostrogorsky : Op. Cit., P. 440.

2) Pappadopoulos (J.); Theodore II Lascaris Empereur De Niceé, Paris, 1098, PP. 97-98.

وهذا الكتاب على جانب كبير من الاهمية فيما يتعلق بعصر ثيودور الثانى لاسكاريس وعلاقاته بمختلف القوى فى عصره .

Brehier(1.); vie et Mort de Byzance, ed. Albin Michel, Paris 1969, P. 316.

Gardner : The lascarids of Nicaea, London, -1922, P. 219.

أخذ اسم ميخائيل بالبولوجوس^(١) يتردد بين مختلف الاوساط في نيقية ، وكان قد شغل عدة مناصب منها منصب حاكم المدينتين التراقيتين ميلنيك وسيسيريس Melnik and Serres ، تحت قيادة والده الدمستق الاكبر اندرونيكوس بالبولوجوس ، ثم أخذ ميخائيل في الترقى حتى وصل الى منصب القائد الاعظم Megas Dux ثم منصب الامير Despot وتمتع بشعبية كبيرة في مختلف الاوساط البيزنطية في نيقية^(٢) .

لكن الامبراطور ثيودور الثاني لاسكاريس ، اختار أحد أصدقائه من ذوى الاصل التوضيع ويدعى جورج موزالون George Muzalon وصيا على

(١) ينحدر ميخائيل بالبولوجوس من نسل كبرى بنات الامبراطور اليكسيوس الثالث انجيلوس (١١٩٥ - ١٢٠٣م) وتدعى ايرين ، التى تزوجت من اليكسوس بالبولوجوس ، وأثمر هذا الزواج ابنة واحدة هى ثيودورا ، التى تزوجت الدمستق الاكبر اندرونيكوس بالبولوجوس وأنجبا ميخائيل فى عام ١٢٢٤ أو ١٢٢٥م فى مدينة نيقية ، أو Nymphaeum التى كان الامبراطور فاتاتريس قد اتخذها عاصمة ثانية له . ونظرا لأن والدى ميخائيل كانا من نفس عائلة بالبولوجوس ، فقد أطلق عليه اسم Diplopalaologos . وحينما بلغ ميخائيل سن الصبا ، لفت نظر الامبراطور فاتاتريس الذى نقل اقامته الى القصر الامبراطورى ، وعامله كما لو كان ابنه ، خاصة وأنه كان فى نفس عمر ابنه ثيودور الثانى لاسكاريس ، وحينما بلغ سن الشباب أرسله فاتاتريس ليتولى القيادة فى بعض غزواته فى اقليمى مقدونيا وابيروس . راجع عن حياة ميخائيل بالبولوجوس :

Pachymeres : Historiae Byzantinae, liber I, De Mechaele palaeologo, weberi, 1835. Bonnae; Geanakoplos (D.), Emperor Michael Paleologus and the west, 1258-1282, Harvard university press, 1959, PP. 16-38; Laurent, V. la Genealogie Des premiers paleologues, dans (Byzantion), Revue internationale des Etudes Byzantines, Tome VIII, Bruxelles, 1933, PP. 125-149.

2) Ostrogorsky : Op. Cit., P. 447.

Finlay (G) : A History of Greece from its conquest by the Romans to the present time B. C. 146 to A. D. 1864, AMS press, New York, vol. IV, P. 324.

ابنه الصغير ، ثم توفي ثيودور في أغسطس ١٢٥٨م في سن السادسة والثلاثين . وبعد تسع أيام فقط من وفاته ، وبينما كان جورج موزالون داخل كنيسة دير سوسندرا Sosandra في مغنيسيا حيث دفن ثيودور بجوار والده فاتاتريس ، لحضور الاحتفال بأحياء ذكرى الامبراطور الراحل ، تم تنفيذ المؤامرة ضده ، فتم قبحه هو وشقيقه أمام مذبح الكنيسة حيث كانا يقفان^(١) وعلى أثر ذلك تولى ميخائيل باليولوجوس الوصاية على الامبراطور الطفل يوحنا الرابع لاسكاريس (١٢٥٨ - ١٢٦١م) . ولم يلبث ميخائيل باليولوجوس أن توج امبراطورا مشاركا في العرش للامبراطور الطفل ، وكان ذلك في بداية عام ١٢٥٩م^(٢) .

وقد اشتهر ميخائيل الثاني أنجيلوس ، أمير ابيروس ، كل هذه التطورات وما صاحبها من أحداث واضطرابات داخلية في نيقية ، واران ان يحقق حلمه في تحطيم القوة الرئيسية المنافسة له في الصراع حول القسطنطينية ، وهي قوة امبراطورية نيقية عن طريق تجريدها من الاقاليم الاوروبية التابعة لها ، بما في ذلك مدينة سالونيك عاصمة الامبراطورية التي كان عمه ثيودور أنجيلوس قد اقامها ، كما سبق ان فكرت .

وكانت الادارة المدنية لممتلكات امبراطورية نيقية البيزنطية في الجانب الاوروبي ، منذ عهد ثيودور الثاني لاسكاريس ، في يد المؤرخ جورج اكروبوليتيس^(٣) وقد أخذ أمير ابيروس في تحريض سكان هذه الاقاليم ضد النفوذ النيقى ، وحثهم على خلع الطاعة ، كما قام بحصار اكروبوليتيس في قلعة بريلاب Prilap ، وقد تعرض اكروبوليتيس لخيانة

1) Poppadopoulos : Theodore II Iscaris, PP. 131-132. Brehier, Op. Cit., P. 318.

2) Pachymeres : Historiae Byzantinae liber I, De Michaele palaeologo, vol. 1, P. 81.

3) Pappadopoulos, Theodore II Iscaris, PP. 116-117.

الحامية التى قام أفرادها بفتح بوابات القلعة للمحاصرين ، وتم القبض على اكروبوليتيس وسيق مكبلا بالسلاسل حيث وضعه أمير ابيروس فى سجن مدينة أرتا Arta ، احدى المدن الرئيسية لامارة ابيروس ، وفى سجنه أصبح لديه متسعا من الوقت ليكتب الاحداث التاريخية لعصره (١) .

وقد استولى ميخائيل أنجيلوس كذلك على بقية الاقاليم الاوروبية التابعة لنيقية فى الجانب الاوروبى ، ومد بذلك حدود امارته حتى نهر الفاردارا ، ثم شرع فى المطالبة بميراث عمه والعمل على استعادة سالونيك ليد عائلة انجيلوس (٢) .

لكن أمير ابيروس ، كان يعلم أن ميخائيل باليولوجوس ، ليس بالخصم الهين ، بل هو داهية سوف ينشد الانتقام حينما تستقر سلطته بصفة نهائية فى نيقية ، ولذلك قرر انشاء تحالف قوى مع بعض حكام عصره ، فاتجه صوب ما نفريد هوهنستاوفن ملك صقلية ، ووليم الثانى اوف قيلها ردوين ، أمير آخايا فى شبه جزيرة المورة . وقد استغل حاكم أبيروس بناته الجميلات لخدمة اهدافه السياسية ، فزوج ابنته الكبرى هيلن من مانفريد ، وزوج ابنته الثانية من وليم الذى اعتقد من جانبه أن زواجه من يونانية سوف يرضى رعاياه اليونان . وقد عرض المؤرخ باكميريس لهذا الحدث بقوله (٣) :

“Generos enim habebat et Helena quidem filia Manfredum Apulia regem fratrem Anna Augustae, quam Iohannes imperator iam senier uxorem, et Anna vero altera filia principam Achaiae Gulielmum”

-
- 1) Miller, W. The latins in the levant, A History of Frankish Greece (1204-1566), London, 1908, P. 109.
Brehier, vie et Mort de Byzance, P. 316.
 - 2) Georgii Acropolitae, opera, ed Heissnberg leipzig, 1093, P. 139
pachymeres, P. 82.
Gregoras, P. 71.
 - 3) Pachymeres : P. 82.

ولكن لماذا اختار امير ابىروس التحالف مع مانفريد هوهنشتاوفن ملك صقلية ، ووليم أوف فيلهاردوين أمير آخايا ، بالذات دون باقى حكام عصره ؟

لقد أراد أمير ابىروس أن يستفيد من فرسان آخايا الفرنجة المشهورين بمهارتهم فى القتال ، كما أراد الاستفادة كذلك من الفرسان الالمان التابعين لمانفريد ، يضاف لذلك أنه كان لمانفريد ووليم دوافع ومصالح قوية وهامة فى هذه المنطقة ، كما كان لهما نفس أهداف أمير ابىروس ضد امبراطورية نيقية ، وقد أراد ميخائيل أنجيلوس استغلال هذا كله وتوجيهه لخدمة مصالحه وأهدافه .

وقد أوضح المؤرخ باكيميريس أهداف ميخائيل أنجيلوس من هذا التحالف فقال (١) :

Constituit videlicet contractas quam passet plurimas copias ipis protinus admoveere constantinopli, eamque obsidere et occupare conari, tum si negotium surcederet. efficere ut ibi Romanorum imperator ipse proclamaretur. naminem enim esse putanat qui alius ad id halberet vel verisimilis spei, non Iascharin, non alius quemlibet, utique quorum nulli vires sustinendo imperio idoneae adessent. quippe se et nobilem et ex Angelorum gente."

والترجمة العربية لهذا النص هى :

« جمع (أمير ابىروس) قوات كثيرة بقدر استطاعته ، لمهاجمة

=

ويذكر باكيميريس أن مانفريد ملك أبوليا وشقيق الامبراطورة آنا التى كانت متزوجة من الامبراطور يوحنا . والمقصود هو الامبراطور يوحنا فاتاتزيس ، عن زواج فاتاتزيس وآنا راجع :
اسمت غنيم، زواج التحالف فى العصور الوسطى - الاسكندرية ١٩٨٦ ،
ص ص ٦١ - ٧٥ .

1) Pachymeres : P. 82.

القسطنطينية ومحاولة الاستيلاء عليها ، وحينئذ ينادى به امبراطورا على الرومان ، لأنه يعتقد أنه لا أحد هناك ، سواء عائلة لاسكاريس أو أى عائلة أخرى ، أحق بالامبراطورية من أنجيلوس .

ويعود باكيميريس للتأكيد مرة أخرى على أهداف ميخائيل أنجيلوس فيقول (١) :

“his igitur tunc congregatis in unum omnibus despota, et eodem adiectis quot ex suis ipse terris potuerat cogere, cogitabat primum quidem acie decernere cum adversaris ducibus tum is, ut sperabat, victis aggredi Thessalonicom et Occidnas regiones incursionibus vastare, ipsamque adeo tentare constantionpolim,”

« بعد أن جمع أقطاب حلفه ورجالهم الكثيرين ، خطط أولا للهجوم على القادة (قادة نيقية) ثم لمهاجمة سالونيك والتغلب على الاقاليم الغربية ، وبعد ذلك يتجه للهجوم على القسطنطينية ذاتها » .

كان هذا فيما يتعلق بأهداف ميخائيل أنجيلوس من وراء هذا التحالف الثلاثي ، أما عن مانفريد ملك صقلية ، فقد كان متمسكا بخطط اسلافه النورمان في غزو وفتح بلاد البلقان ، ويذكر المؤرخ جريجوراس أن هدف مانفريد كان الاستيلاء على « كل الاقاليم اليونانية من البحر الايوني الى القسطنطينية » (٢) .

وقد انتهر مانفريد فرصة انشغال أمير ابيروس في بداية عام ١٢٥٨م . بقتال قوات نيقية في اقليم مقدونيا وقام بغزو بلاد البلقان ، واستولى على الممتلكات السابقة للنورمان سادة ابيروس السابقين ، على ساحل البحر الادرياتيكي .

وهناك وثيقة مؤرخة في ٢٦ فبراير ١٢٥٨م . توضح أنها أول سنة

1) Pachymeres : liber I, P. 83.

2) Gregoras : P. 72.

لسيادة مانفريد على الاقاليم التي حول ديراخيوم وافلوننا ، وجاء في الوثيقة أن هذه الاقاليم هي ديراخيوم التابعة لامبراطورية نيقية البيزنطية ، وبلجراد ، وافلوننا ، وجبال مئينا ريزا Sphinariza mountains وكلها تتبع امير ابيروس (١) .

وفي ٢ يونيو ١٢٥٩م . تم زواج مانفريد من هيلين ، والغريب أن والدها ميخائيل الثانى أنجيلوس لم يعتبر فتح مانفريد لهذه الاقاليم التابعة له في البلقان ، اغتصابا لملكاته ، ولكنه أكثر من ذلك أباح لمانفريد اضافة اقاليم جديدة حسبما يريد .

ويعلل المؤرخ دينوجياناكوبلوس Dino Geanakoplos ذلك بقوله ، اننا لكي نفهم ذلك يجب علينا أن نعلم أن امير ابيروس وجد أن مانفريد احتل هذه الاقاليم بالفعل (بحق الفتح) لذلك زوج ابنته من مانفريد ، واعتبر هذا الاقاليم وغيرها مما يتاح لمانفريد فتحه في البلقان بمثابة صداق Dowry هيلين ، وبهذه الطريقة تجنب امير ابيروس خوض صراع مع مانفريد ، يكون له أثره في اعاقته عن نضائه ضد امبراطورية نيقية البيزنطية ، وفي نفس الوقت كسب حليفا نافعا ومفيدا له في صراعه المرتقب ضد هذه الامبراطورية .

ويستطرد جياناكوبلوس قائلا ، أنه في ضوء التحالف السابق بين امبراطور نيقية البيزنطية يوحنا فانتازيس وفريدريك الثانى (٢) ، يبدو للوهلة الاولى أن الغاء السياسة الصقلية الودية نحو نيقية كان شيئا مستغربا ، ولكن مانفريد كان الآن في مركز قوى بما يكفى في ايطاليا لينبذ تحالف والده ، ولينظر باتجاه أى شخص يساعده في تنفيذ طموحاته في

1) Buchon (J.) : Recherches historiques sur la principauté française de Moreé, et ces hautes baronnies, I, Paris, 1845, PP. 103-104.

(٢) عن هذا التحالف وظروفه راجع :
اسمت غنيم : زواج التحالف في العصور الوسطى ، ص ص ٣٣ - ٦٨ .

امتلاك البلقان (١) .

أما المؤرخ الالماني نوردن فقد رأى أن مانفريد كان يريد مملكة على ساحل البحر الادرياتيكي ، وفي المقابل فانه يجيز لحماية أمير ابيروس أن يستولى على القسطنطينية (٢) .

وذكر المؤرخ الفرنسي بيشون Buchon أن مانفريد طلب اقليما تابعا لامارة ابيروس في منطقة البلقان ، ووعد ميخائيل انجيلوس بأن يحقق له ذلك ، في مقابل مساعدته في نضاله ضد امبراطورية نيقية ، ثم في الاستيلاء على القسطنطينية (٣) .

وقد أورد المؤرخ جياناكوبلوس رأيا للمؤرخ اليوناني Dendias مؤداه أن مانفريد طلب الاقاليم التابعة لابيروس كصداق لهيلين ، ليتخذها مأوى يلجأ اليه في حالة هزيمته في صراعه مع البابوية . لكن المؤرخ جياناكوبلوس يرد على هذا الرأي بقوله أن سطوة ونفوذ مانفريد في ايطاليا في ذلك الوقت تعارض وجهة النظر هذه ، التي تبدو بعيدة الاحتمال ، ويضيف الى ذلك قوله انه من الهام أن نذكر أن دوافع مانفريد للاشتراك في هذا الحلف تتعلق باهدافه الأساسية الثابتة باعتراف البابوية بسيادته على صقلية ، وسيادة الهوهنشتاوفن على كل ايطاليا وإن نجاحه في السيطرة على بلاد البلقان والتحالف مع اليونان في ابيروس تخدم أهدافه في ايطاليا ، وتظهره بمظهر القوة على الاخص أمام البابوية ، الحامية الحقيقية للامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية وبلاد اليونان (٤) .

كان ذلك فيما يتعلق بأهداف مانفريد ملك صقلية ، أما عن أهداف

1) Geanakoplos : Op. Cit., P. 50.

Ostrogorsky : Op. Cit., P. 448.

2) Norden : Der vierte Kreuzzug im Rahmen der Beziehungen des Abendlandes zu Byzanz. Berlin; 1898, PP. 333-334.

3) Buchon : Op. Cit., P. 279.

4) Geanakoplos : Op. Cit., PP. 53-54.

وليم الثانى أوف فيلها ردوين أمير آخايا ، فقد أوضح المؤرخان البيزنطيان اكروبولتيس وباكيميريس ، أن وليم توقع جنى مكاسب هامة من هذا التحالف ، لاعتقاده أنه بمساعدة ميخائيل أمير ابيروس يستطيع أن يخضع البارونات الفرنجة المتمردين عليه في وسط بلاد اليونان ، أو على الأقل يستطيع أن ينمى ولاء الحكام اليونان التابعين لامارة آخايا ومنعهم من خلع طاعته مثلهم مثل غيرهم . علاوة على ذلك فانه يستطيع أن يكسب حليفا هاما ضد ميخائيل باليولوجوس الذى أصبح اهتمامه ينمو بوضوح في استرداد الاقاليم البيزنطية السابقة على حساب بلاد اليونان الخاضعة للفرنجة (١) .

وذكر المؤرخ ميللر Miller أن وليم كان يتوق لاحياء مملكة أسلافه اللومبارديين في سالونيك التى أسست بعد الفتح اللاتينى للقسطنطينية في عام ١٢٠٤م ، وكان يحلم بأن يحكم من مقدونيا حتى ماتابان Matapan (٢) .

أما المؤرخ أوستروجورسكى فقال أن نجم دوق آخايا في ذلك الوقت كان آخذا في الصعود ، لأن دوقية أثينا القريبة ، واللوردات الثلاثة لايوبيا Euboea اعترفوا به سيدا أعلى لهم ، وقد شجعه هذا على أن يحقق المزيد من المكاسب الاقليمية (٣) .

لكن ما هو موقف بلدوين الثانى ، الامبراطور اللاتينى بالقسطنطينية من هذا التحالف الثلاثى بين امارة ابيروس ومملكة صقابة وامارة آخايا ، وهل اشترك في هذا التحالف ضد امبراطورية نيقية البيزنطية ؟

المرجح أن المتحالفين أرادوا ضم بلدوين الى جانبهم على الأقل ،

1) Acropolites : P. 165.

Pachymeres : PP. 87-88.

2) Miller : The latins in The levant, P. 110.

3) Ostrogorsky : Op. Cit., P. 448.

حتى يتخذوا من القسطنطينية قاعدة لمهاجمة نيقية ، التي لا تبعد عنها أكثر من أربعين ميلا فقط ، خاصة وأن امبراطورية نيقية البيزنطية كانت العدو الاول للامبراطور اللاتيني وكان الهدف الاول لباطرة نيقية واحدا تلو الآخر هو القضاء على الامبراطور اللاتيني بالقسطنطينية واسترداد العاصمة البيزنطية . وقد أراد بلدوين أن يستغل هذا التحالف الثلاثي للضغط على ميخائيل باليولوجوس ، وعن هذا الطريق يمكنه أن يكسب أقاليم تزيد من أملاكه من ناحية ومن ناحية أخرى تكون بمثابة المنطقة الحاجزة Buffer area بينه وبين الحلفاء الثلاثة في اقليم البلقان .

وفي أواخر عام ١٢٥٨م أرسل بلدوين سفارة الى ميخائيل باليولوجوس، وكله ثقة في أن ميخائيل سوف يرحب بتقديم تنازلات اقليمية لصالحه ، مقابل عدم انضمامه لهذا الحلف الثلاثي ، لذلك فقد طلب الرسل من باليولوجوس التخلي عن سالونيك وكل الاقاليم الواقعة بينها وبين القسطنطينية للامبراطور اللاتيني . وقد أجاب باليولوجوس أنه يعتبر سالونيك في منزلة موطنه الاصلي ، وأنه لا يفكر في التنازل عنها ، عندئذ طالب الرسل بمدينة سيريس Serres والاقاليم التي تقع شرقها حتى القسطنطينية ولكن باليولوجوس أعلن أن هذا الموقع كان مركز قيادته العسكرية الاولى وعلى هذا الاساس فانه لن يتخلى عنه . ولما قصر الرسل مطالبهم في أخذ اقليم يقع من فوليرون Voleron الى الشرق ، كان رد ميخائيل باليولوجوس أن هذا هو المكان المفضل لديه لممارسة هواية الصيد(١) .

وأخيرا ، سأل الرسل ، الذين أصيبوا بالاحباط ، ما هي الارض التي هو على استعداد للتنازل عنها لامبراطور القسطنطينية ؟ وكانت الاجابة أنه ليس على استعداد للتنازل عن أية أرض ، وأنه اذا أراد امبراطور القسطنطينية اللاتيني أن يسأله ميخائيل باليولوجوس ، فان

1) Acropolites : P. 161.

Wolff : Op. Cit., P. 228.

عليه أن يتنازل له عن نصف عائد الرسوم الجمركية للقسطنطينية وكذلك عن نصف محصول النعناع (١) .

والواضح أن رد ميخائيل باليولوجوس على هذا النحو ، هو انعكاس لثقته الكاملة في النصر . ورغم ذلك فإن المصادر لم تشر الى اشتراك بلدوين في هذا الحلف الثلاثي .

والواقع أن هذا يدل على بعد نظر من جانب الامبراطور بلدوين الثاني أو البابوية المسيطرة على المملكة اللاتينية في القسطنطينية ، لأنه يبدو للوهلة الاولى أن هذا التحالف الذي قصد به في المرتبة الاولى القضاء على امبراطورية نيقية البيزنطية وتدمير قوة ميخائيل باليولوجوس المطالب الاول بعرش القسطنطينية ، هو لصالح الامبراطور اللاتيني بلدوين الثاني . لكن النظرة البعيدة العميقة للامور توضح أن القضاء على باليولوجوس وتدمير قوة نيقية ليس معناه القضاء على المطالب الوحيد بعرش القسطنطينية ، لأن هناك مطالبين آخرين ، أولهم ميخائيل الثاني انجيلوس امير ابيروس ، ثم مانفريد ملك صقلية الذي كان يرى أن استمرار الامبراطورية اللاتينية في الشرق ، عاملا من عوامل قوة البابوية وكان تدميرها والاستيلاء عليها عاملا من عوامل القضاء على قوة البابوية ، وكسب جولة جديدة وهامة في سلسلة الصراع بين البابوية وآل هوهنشتاوفن بصفة عامة ، وهي نفس سياسة والده الامبراطور فردريك الثاني .

وهناك أيضا وليم أوف فيلها ردوين دوق آخايا الذي لا تقل أطماعه في القسطنطينية عن أطماع الاثنين الآخرين ، خاصة وأن وليم يعتبر تابع اقطاعي Vassal لبلدوين وكان يحلم بأن يحل محله على عرش القسطنطينية .

وهكذا ، فقد كان القضاء على باليولوجوس وامبراطورية نيقية

1) Acropolites : P. 163.

Wolff : Op. Cit., P. 229.

البيزنطية ، ليس في صالح بلدوين الثاني تماما ، لأنه في حال النصر فان الحلفاء الثلاثة سيتفرغون له ، ويكون هو الفريسة التالية السهلة لهم ، فالأفضل أن يستمر باليولوجوس وامبراطوريته على قيد الحياة ، تناوى وتناضل الحلفاء الثلاثة فيشغل بهم ويشغلون به ويبقى بلدوين متخذا موقف المتفرج .

وقد قام ميخائيل باليولوجوس بمحاولات دبلوماسية تجاه المتحالفين الثلاثة لتبديد تحالفهم ، وأورد المؤرخ البيزنطى اكروبوليتيس أخبار هذه المحاولات فروى أن ميخائيل باليولوجوس أرسل الى ميخائيل الثانى أنجيلوس ، أمير ابيروس ، رسولا كفيفايدعى ثيودور فيلس Theodoros philes الذى عرض عليه امتيازات اقليمية مقابل السلام ، لكن أمير ابيروس رفض ورد « ردا مهينا وتفوه بالفاظ بذينة » (١) .

ولما لم تفجح محاولة السلام التى تقدم بها باليولوجوس الى أمير ابيروس ، اتجه امبراطور نيقية الى الحليفين الآخرين ، فأرسل الى مانفريد ملك صقلية رسولا يدعى نقفور الياطى Nikephoros Alyattes وقد ذكره الرسول بالحلف النيقى الصقلى السابق بين يوحنا فاتاتزيس وفردريك الثانى ، وأعلن عن رغبة امبراطور نيقية فى احياء هذا الحلف ، كما أعلن الرسول أيضا عن رغبة الامبراطور ميخائيل باليولوجوس فى اطلاق سراح كونستانس (آنا) أرملة الامبراطور الراحل يوحنا فاتاتزيس وشقيقة مانفريد التى كانت فى سجن نيقية منذ وضعها به ثيودور الثانى عقب وفاة والده فى ٢٥٤م (٢) .

لكن مانفريد رفض هذه المقترحات كلها « لأن خياله صور له مكاسب أكبر » على حد تعبير المؤرخ اكروبوليتس وقد قبض على الرسول ووضعه

1) Acropolites : P. 163.

2) Schlumberger G. le Tombeau d'une impératrice Byzantine Avalence En Espagne, dans le livre de "Byzance et croisades" pages Medievales, Paris, 1927, P. 71.

في السجن وبقي به لمدة عامين (١) .

كذلك كان الحال مع وليم أوف فيلها ردوين حاكم اميرة آخايا الذي رفض الاستجابة لمبادرة ميخائيل باليولوجوس للسلام، وكان هو الآخر يتوقع فوائد كثيرة من وراء هذا الحلف الثلاثي (٢) وهكذا لم يعد أمام باليولوجوس الا أن يقوم بمحاولة أخيرة فاتجه نحو البابوية ، العدو اللدود لآل هوهنشتاوفن والقادرة على كبح جماح مانفريد والحد من أطماعه وقد قدم باليولوجوس عرضا للبابوية ضرب به على الوتر الحساس لديها ، وهو اتحاد الكنيستين اليونانية واللاتينية ، مقابل أن يعترف البابا باعتلاء باليولوجوس لعرش نيقية ، وأن يمنع البابا أية محاولة للاعتداء على امبراطورية نيقية تات من جهة الغرب . لكن البابا الاسكندر الرابع Alexander IV ، لم يرد على سفارة باليولوجوس ، لأنه وجد أن الثمن الذي سيدفعه مقابل اتحاد الكنيستين يعتبر ثمنا باهظا (٣) .

وعندما وجد باليولوجوس ان مبادراته للسلام لم تنجح لم يعد أمامه سوى اللجوء للقوة العسكرية .

وقد أراد باليولوجوس ان ينفرد بميخائيل انجيلوس أمير ابيروس ، قبل أن تصله قوات من حليفه ، فأصدر أوامره الى شقيقه جون الذي كان يشغل منصب الدمشق الأكبر *loani palaeologo magno Domestico* والقائدان الآخران وهما اليكسيوس ويوحنا راثولي *Alexios et Ioanni Rauli* ليشعلوا الحرب فجأة على أمير ابيروس (٤) . وقد خرجوا بصحبة الجيش في أواخر سبتمبر ١٢٥٨ م ، أما ميخائيل باليولوجوس نفسه فقد ظل في نيقية ، وظهر يوحنا باليولوجوس في أعالي مقدونيا عن طريق

1) Acropolites, P. 165.

2) Acropolites : P. 165.

3) Wolff : Studies in the latin Empire of constantinople, P. 646 ff.
Miller : The latins in levant, P. 110.

Geanakoplos : The Emperor Michael paleologos, PP. 61-62.

4) Pachymeres : De Michael paleologe, liber I, P. 83.

عبور فودينا Vodena ، وفاجأ أمير ابيروس وجيشه الذى كان يعسكر بالقرب من مدينة كاستوريا Castoria فى غرب اقليم مقدونيا وقد أصابت المفاجأة أمير ابيروس وجيشه مما أدى الى أن يسود الارتباك بينهم فتقهقروا سريعا عبر الممرات الصخرية ، مما أدى الى قتل الكثير من رجاله ، أما أمير ابيروس فقد انسحب خلف جبال بندوس Pendus وعسكر بالقرب من افلونا Avlona التى تقع داخل أملاك مانفريد ، ومنها أرسل يستدعى النجدة من حليفه مانفريد ووليم ، أما يوحنا باليولوجوس فقد استولى على أخريدا Ochridal ديافوليس Deavolis ، برسبا ، بلاجونيا Pelagonia ، وسوسكوس Soskes (١) . وعلى الفور وصلت الى أمير ابيروس مساعدة حليفه وقد طلب الحليفان تنفيذ خطط الفتح المتفق عليها بينهم منذ بداية تأسيس حلفهم ، وقد أرسل مانفريد الى حمية أمير ابيروس مساعدة عسكرية ذكر المؤرخ باكييميريس أنها تألفت من ثلاثة آلاف فارس من الفرسان الألمان المعروفين بقوتهم وشجاعتهم فى القتال ، فقال (٢) :

"... et a Manfredo quidem permissos ad eum certos homines impetraverat tria millia lectorum ex Germanis militum, virorum fortium, quos ipsi caballarios Vocant".

أما المؤرخ اكروبوليتيس فقد ذكر أن المساعدة العسكرية التى أرسلها مانفريد لحمية كانت مكونة من أربعمئة فارس ألماني مجهزين تجهيزا تاما بالأسلحة (٣) . وربما كان عدد القوات التى ذكرها اكروبوليتيس أقرب الى الحقيقة ، خاصة وأن ما نفريد كان يخوض حربا ضد أعدائه من حزب

1) Acropolita : PP. 165-166.

Finlay : Op. Cit., PP. 338-339.

Brehier : Vie et Mort de Byzance, P. 319.

2) Pachymeres : P. 83.

3) Acropolites : P. 168.

الجلف في ايطاليا(١) وبالتالي كان في حاجة ماسة الى قواته ، وليس من المنطق أن يرسل عددا كبيرا مثل ثلاثة آلاف فارس مساعدة لأمير ابيروس .

وقد ذكر كل من المؤرخ البيزنطي جريجوراس(٢) وأحد أصحاب الحوليات الايطالين ويدعى ماتيو سبينللي Matteo Spinelli أن مانفريد جاء بنفسه على رأس قواته(٣) . ولكنني أتفق مع المؤرخ دينو جياناكوبلوس الذي أوضح أن هذا القول ليس له ما يؤكده ، كما أنه مرفوض تماما من جانب المؤرخين الحديثين(٤) .

والمرجح أن مانفريد لم يات على رأس قواته ، نظرا لأنه كان مشغولا آنذاك بحروبه ضد الجلفيين في ايطاليا ، كما سبق أن ذكرت .

وان كان وجد لدى مانفريد من الظروف ما أعاقه عن الحضور بنفسه على رأس قواته الا أن وليم اوف فيلها ردوين أمير آخايا ، قد جاء بنفسه على رأس قوات كثيرة ، بعد أن فرض تجنيدا اقطاعيا في مارس ١٢٥٩م على كل أتباعه ، وقد اشتمل جيش وليم على قوات من الارخبيل وآثينا ، وعدد كبير من اللوردات الاقطاعيين صاحبوه بأنفسهم على رأس قواتهم مثل الكونت ريتشارد صاحب كيفالونيا Count Richard of Cephalonia وتوماس الثاني صاحب سالونا Thomas II of Salona واوبرتينو صاحب بودونيتزا Ubertino of Boudonitza وفرق عسكرية من ثيبس Thebes وآثينا Athens(٥) .

1) Previté-Orten : Italy, 1250-1290, C. Med. H. Vol. VI ed. Hussey, Cambridge, 1968, PP. 180-182.

2) Gregoras : P. 75.

3) Geanakoplos : P. 64.

4) Geanakoplos : Op. Cit., P. 64.

Brehier : Op. Cit., P. 319.

Ostrogorsky : Op. Cit., P. 448.

5) A cropolit es : P. 168.

Pachymeres : P. 83.

Gregoras : P. 71.

وقد جاء ابني امير ابيروس الى والدهما ومعهما قواتهما وهما نقفور Nikephoros والابن الآخر جون John وهو ابن غير شرعى لامير ابيروس وكان متزوجا من ابنة تارون Taron زعيم قبائل الوالاش الذين يقيمون في الاشيا الكبرى باقليم تساليا(١) .

وهكذا لم يتاح لامير ابيروس أن يقود جيشا كبيرا مثل هذا الجيش جمع من جميع أنحاء بلاد اليونان(٢) . أما عن القوات التي استعدت بها امبراطورية نيقية لمواجهة هذا التحالف الثلاثى ، فقد تمت الاستعانة بالقوات المرتزقة لمواجهة سلاح الخيالة الفرنجة ذات الصيت الذائع في القتال ، وكانت على النحو التالى : ثلاثمائة فارس المانى تحت قيادة دوق كارينثيا Duke of Carinthia ، ١٥٠٠ فارس من رماة السهام من هنغاريا ، وأكثر من ٦٠٠ فارس من سرفيا Servit ، وكتيبة من الجنود من البلغار وعدد من المحاربين من اقليم الاناضول وهم معروفون بحروبهم ضد الاتراك ، ٥٠٠ فارس من الاتراك الذين يقيمون عند نهر الدانوب ، ٢٠٠٠ فارس من الخيالة من عنصر الكيومان ، بالاضافة الى رماة السهام من اليونان ، وحاميات مقدونيا وتراقيا(٣) .

والمرجح أن قوات الحلف الثلاثى فاقت في العدد قوات امبراطورية نيقية ، لذلك فقد كان واضحا أنه اذا أراد الجانب النيقى أن يحرز الانتصار ، فانه عليه أن يخطط لاستراتيجية جديدة مبنية على أساس استغلال الثغرات في جانب المتحالفين . وقد لجأ جيش نيقية الى حيل مختلفة حتى يبدو حجم جيشهم أكبر من الحقيقة بكثير . وقد أرسل قادة جيش نيقية بعض رجال الكشافة سرا لنشر بذور الخلاف والفرقة بين العناصر المختلفة التى ضمها جيش المتحالفين وخاصة عنصرى اليونان

1) Pachymeres : P. 83.

2) Miller : The Latins in The Levant, P. 110.

3) Pachymeres : P. 83.

Miller : The latins in the Levant, P. 111. . . .

والفرنجة (١) .

وقد ازداد اتساعا الافتقار الى الانسجام بين الحلفاء ذوى الاهواء المختلفة نتيجة لخلاف شخصى بين وليم أمير أخايا والابن غير الشرعى لامير ابيروس ، الذى ذهب الى وليم شاكيا من ان بعض فرسانة الفرنجة قد أبدوا اعجابهم بطريقة غيرلائقة بزوجته الوالاشية الجميلة ، وبدلا من انصافه من جانب وليم ، فانه أهانه ولمح الى مولده غير الشرعى ، وكنوع من الانتقام ، فان جون فر وانضم الى جانب جيش نيقية فى هذه اللحظات الحاسمة (٢) .

وقد ارسل امبراطور نيقية ميخائيل باليولوجوس الى شقيقه جون بعدة تعليمات عسكرية ، أهمها ان يتجنب الصدام المباشر مع العدو ، وان يحاول اكتشاف المناطق التى تفتقر الى الاتحاد ، وذلك عن طريق المناوشات العديدة والمفاجئة ، ونتيجة لاتباع هذه التعليمات ، قام جون باليولوجوس بتوزيع قواته ببراعة ، وذلك اثناء اقترابه من قوات العدو فى غرب مقدونيا وقد أسند جون باليولوجوس مهمة احتلال المواقع القوية فى التلال المحيطة بهم الى القوات المسلحة تسليحا قويا ، بينما أسند الى من يرمون السهام والمسلحين تسليحا خفيفا والاكثر حركة من الكيومان والاتراك واليونان مهمة ارهاق العدو فى السهول بهجمات وانسحابات مفاجئة ، وقد تقابلت طليعتا الجيشين فى مكان يدعى فوريلالونجوس فى سهل بلاجونيا Pelagonia بالقرب من مدينة كاستوريا Castoria فى غرب اقليم مقدونيا ، وذلك فى أكتوبر ١٢٥٩ (٣) .

وحسب الخطة التى وضعها قائد جيش نيقية جون باليولوجوس فقد

1) Miller : Op. Cit., P. 111.

Finaly : Op. Cit., P. 339.

2) Miller : The Latins in the Levant, P. 111.

3) Acropolites : P. 164.

Geanakoplos : Op. Cit., P. 67.

Brehier : Op. Cit., P. 319.

قامت القوات ذات التسليح الخفيف بمناوشات مع العدو ليلا ونهارا دون انقطاع ، كما قاموا بسلب ونهب القوافل التي تحمل المؤن . وهكذا فقد هلك سلاح الفرسان الفرنجة الذي كان يحارب على أرض لم يعتاد عليها ، كما بدأت المؤن في النقص بسرعة ، وفقد جيش أمير أبيروس معنوياته تماما . وحسب رواية المؤرخ البيزنطي جريجوراس ، فان جون باليولوجوس قام بمحاولة لبث الفرقة والانقسام بين صفوف الاعداء ، فارسل سرا رجلا ادعى انه هارب من جيش نيقية ، وأخبرا أمير أبيروس ان حليفه عقدا اتفاقية سرية لخيانته مع جون باليولوجوس قائد جيش نيقية وذلك مقابل مبالغ ضخمة من المال ، وأن الحل الوحيد أمامه للنجاة هو الهرب ، وبعد أن اقتنع أمير أبيروس بما سمعه من الرجل ، فر هاربا ليلا وصحب معه كل من استطاع جمعه من رجاله ، أما الباقيون فبعد ما علموا برحيله ، فروا هارين هم الآخرون ليلا ، وفي الصباح عندما اكتشفت القوات التابعة لمانفريد ووليم هروب أمير أبيروس من أرض المعركة ، أدركوا في الحال أنه تمت خيانتهم (١) .

وقد ظهر لبعض الوقت أن شجاعة أمير أخايا وليم أوف فيلها ردوين قد خابته ، ولكن قدوم أحد أتباعه ، وهو ابن شقيقه البارون القوي جيوفري دي بريير Geoffroy de Bryeres جعله يتغلب على ضعفه ، وقد قاتل الفرنجة بكل الشجاعة المعروفة عن عنصرهم آنذاك ، واختصوا الفرسان الالمان التابعين لجيش نيقية ، وركزوا عليهم هجومهم مما أدى الى انسحابهم قبل أن يجتثوا « مثلما يجتث العشب من المروج » عندئذ أمر قائد نيقية الفرسان الهنغارين ورماة السهام من الكيومان بالرمي في اتجاه الفرسان الفرنجة ، وسقط فارس بعد فارس وأخذ أسيرا جيوفري دي بريير « زهرة فرسان أخايا » وبينما كان الأمير وليم يحاول انقاذ ابن أخيه من أيدي الاعداء ، سقط عن فرسه ، وقد حاول وليم أن يختفي تحت كومة من القش ولكنه كشف وعرف عن طريق أسنانه الامامية

1) Gregoras : P. 71.

البارزة ، وسبق وليم دوق أخايا وباقي الاسرى الرئيسيين الى خيمة قائد جيش نيقية الذي أرسلهم بدوره الى شقيقه الامبراطور ميخائيل الذى كان آنذاك فى مدينة لامبساكوس Lampsakos ، وكان الذين نجوا من المعركة هم فقط والاش تساليا الذين ظلوا مخلصين لابن غير الشرعى لامير ابىروس ، وقد أخذوا طريقهم عائدين الى بلادهم^(١) .

هذا وقد تابع القائد جون باليولوجوس انتصاره فاتجه بجزء من الجيش المنتصر الى بلاد اليونان حيث نهبوا ليفاديا Livadea ، واتجه جزء آخر من جيشه بقيادة القائد الكسيوس فاستولى على جوانينا Joannina وأرقا وهما المدينتين الرئيسيتين فى اماره ابىروس ، وتم تحرير المؤرخ اكروبوليتيس من سجنه ، واستقر اليكسيوس فى ابىروس^(٢) ، بينما سار جون باليولوجوس وجون انجيلوس الابن غير الشرعى لامير ابىروس خلال تساليا الى نيوباتراس Neopatras الى ثيبس Thebes ، ونهبوا المدينة بينما عاود جون انجيلوس خيانتة مرة أخرى وفر الى والده امير ابىروس ، الذى كان قد اتخذ مع عائلته من جزيرتى ليوكاس Leukas وكيفالونيا Ephalonia ملجأ له^(٣) .

وهكذا أحرزت امبراطورية نيقية البيزنطية هذا الانتصار على هؤلاء المتحالفين الثلاثة ، وتم هزيمتهم وتشتيتهم على النحو الذى سبق ذكره ، وعن هذا الانتصار يقول المؤرخ المعاصر اكروبوليتيس : « يفضل التعليمات الامبراطورية ، حققت قواتنا انتصارا باهرا ، طبقت شهرته أرجاء العالم ، حتى تضاءلت الشمس الى جواره »^(٤) .

وفى تحليل اسباب هزيمة الحلف الثلاثى ، تجدر الاشارة الى أن من

1) Miller : The latine in the Levant, PP. 111-112.

2) Finaly : Op. Cit., P. 339.

3) A cropolites : P. 172.

Miller : The latins in the Levant, P. 112.

Finlay : Op. Cit., P. 339.

4) Acropolites : P. 108.

أهم الأسباب هو تعدد القيادات ، وتعدد العناصر في جيش المتحالفين ، وتأصل الكراهية بين هذه العناصر بعضها والبعض الآخر منذ قرون عديدة سابقة نتيجة لاختلاف العنصر واللغة والاهواء والمذاهب الدينية ، ثم جاءت أحداث عام ١٢٠٤م وفتح اللاتين للقسطنطينية واقامة مملكة لاتينية بها ، والتفرقة العنصرية والدينية التي تحملها اليونان طوال سنوات الاحتلال لتضيق عاملا جديدا وهاما زاد من كراهية العنصر اليوناني لللاتين ، خاصة وأن اليونان كانوا يعتبرون أنفسهم أعلى مرتبة من اللاتين ، وكانوا يميلون الى النظر اليهم بتعالى واحتقار ، واعتبارهم هراطقة أما رأى اللاتين في اليونان فقد كان أكثر سوءا من رأى اليونان فيهم . فقد اعتبروا اليونان مجردين من الاخلاق وجبناء ومنشقين ولم يكن من الممكن أن تذوب هذه الكراهية بين العنصرين بعد أن توارثوها جيلا بعد جيل ، بين يوم وليلة نتيجة لهذا التحالف .

أما بالنسبة لمانفريد ملك صقلية ، سليل الالمان والنورمان ، فقد ورث كراهية هذين العنصرين لليونان ، كما ورث أطماعهما في بلاد البلقان وفي القسطنطينية ذاتها وقد أدى ذلك كله الى انعدام الثقة بين الحلفاء الثلاثة .

وقد كان ميخائيل باليولوجوس وشقيقه جون قائد الجيش الذى خاض هذه المعركة بارعين في فهم هذه العوامل كلها واستغلالها لبث الفرقة والانقسام بين صفوف المتحالفين ، ونجحا في تحقيق هدفهما الى حد بعيد ، على النحو الذى تم توضيحه في ثنايا هذا البحث .

أما عن الاهمية التاريخية لهذه المعركة ، فان المؤرخ دينوجينا كويلوس يقول في هذا الصدد : « ان معركة بلاجونيا كانت واحدة من أهم المعارك في القرن الثالث عشر الميلادى (١) » . ويقول المؤرخ جاردنر : « ان النتائج الكبيرة للمعركة تؤهلها لأن تتبوأ مكانة سامية كأحد المعارك الفاصلة

1) Geanakplos : Op. Cit., P. 73.

في تاريخ أوروبا» (١) .

ولم يبعد هذان المؤرخان عن الحقيقة ، اذ كان لهذه المعركة بالفعل نتائج بالغة الاهمية ، وخاصة فيما يتعلق باسترداد العاصمة البيزنطية القسطنطينية ، فقد استطاعت امبراطورية نيقية عقب هذه المعركة ونتيجة للانتصار الذي احرزته أن تقضى على قوة المنافسين لها ، وقد تقلصت املاك امير ابيروس وانحصرت فيما ورثه عن آبائه أما فتوحاته في منطقة ابيروس وتساليا ، فقد تم لامبراطورية نيقية الاستيلاء عليها .

كذلك فان أحد نتائج هذه المعركة كان انهيار النفوذ اللاتينى في شبه جزيرة المورة ، ويقول المؤرخ Setton ان معركة بلاجونيا هي « نقطة التحول والتغير الماساوى The dramatic peripeteia (٢) ليس فقط في مجرى حياة وليم أوف فيلها ردوين ولكن في تاريخ امارة الفرنجة في آخايا » (٣) وقد أصبح لامبراطورية نيقية القدم الراسخة هناك ، وبذلك فقد الامبراطور اللاتينى في القسطنطينية مساعدة امارة آخايا المهزومة وأصبح على بلدوين الثانى ، الاعتماد على نفسه وعلى موارده المحدودة في حماية القسطنطينية والدفاع عنها .

وهكذا كان انتصار بلاجونيا هو الحد الفاصل ، الذى وضع النهاية للصراع بين نيقية وابيروس حول القسطنطينية اذ بعد هذه المعركة أصبح واضحا للعيان أن مصير القسطنطينية قد تحدد ، وأنها ستكون من نصيب الطرف الاقوى الذى أصبحت له السيطرة على الموقف في هذه المنطقة ، وأعنى به امبراطورية نيقية البيزنطية .

1) Gardner A. : The Lascarids of Nicaea, London, 1922, P. 248.

(٢) كلمة Peripeteia هي في الاصل كلمة يونانية περιπέτεια

وهى بمعنى Change .

(٣) لقد ظل وليم أوف فيلها ردوين في الاسر أكثر من سنتين ، وللمزيد عن تاريخ امارة آخايا بعد معركة بلاجونيا راجع : =

وهذا ما حدث بالفعل ، اذ قبل أن يكتمل العامان على هذه المعركة ،
تم لامبراطورية نيقية البيزنطية استرداد العاصمة القسطنطينية في ٢٥
يوليو ١٢٦١م . ودخل ميخائيل باليولوجوس العاصمة الام في ١٥ أغسطس
١٢٦١ ، وتم تتويجه للمرة الثانية هو وزوجته ثيودورا في سبتمبر
١٢٦١ (١) .

وقد كان التتويج هذه المرة في الكنيسة الرئيسية معقل المذهب
الارثوذكسى آيا صوفيا ليسترد مجد آبائه وأجداده ، ويرفع عن اليونان
عار الهزيمة والنفى والتشرد ، بعد أن عادت القسطنطينية مرة أخرى
عاصمة ومقرا وقلبا نابضا للامبراطورية البيزنطية .

Setton : The latins in Greece and the Aegean from the Fourth Crusade
to the End of the Middle Ages. C. M ed. H. vol. IV, part 1,
ed; Hussey, Cambridge, 1975, PP. 401-408.

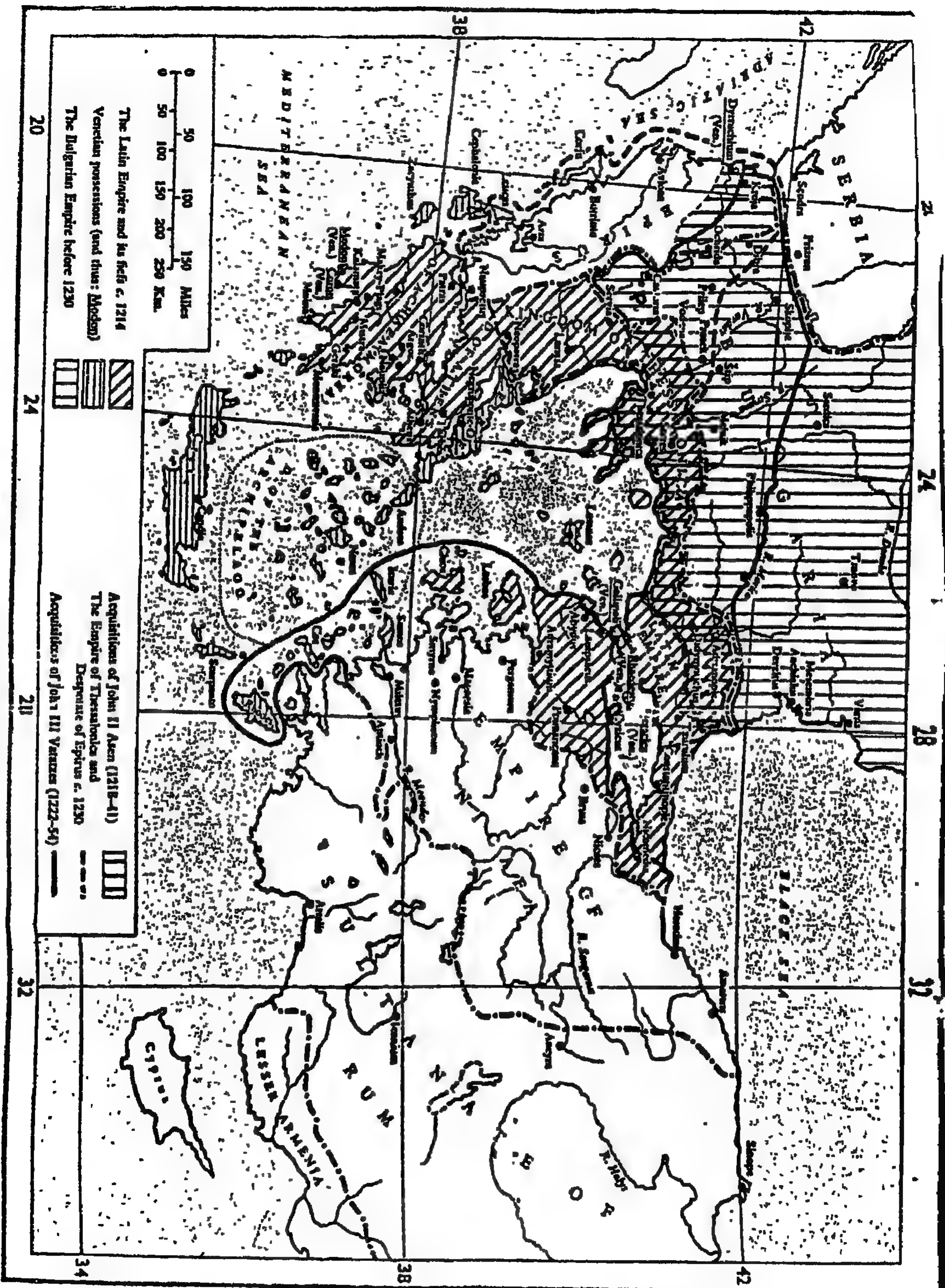
Miller : The latins in the Levant, A history of Frankish Greece (1204-
1566), London, 1908, P. 109 ff.

(١) بعد عدة شهور من تتويج ميخائيل باليولوجوس في كنيسة
آيا صوفيا ، تم له ابعاد صاحب الحق الشرعى فى العرش يوحنا الرابع
لاسكاريس ، عن طريق سمل عينيه وبذلك أصبح ميخائيل باليولوجوس
امبراطور وحيدا على العرش البيزنطى ، وأسس أسرة جديدة هى أسرة
باليولوجوس التى تربعت على العرش البيزنطى ما يقرب من القرنين من
الزمان ، حتى تم للاتراك العثمانيين فتح القسطنطينية فى ١٤٥٣م
راجع :

Vasiliev : History of the Byzantine Empire, vol. 11, PP. 580-722.

Brehier : Vie et Mort de Byzance, PP. 321-432.

Nicol : The End of the Byzantine Empire, London, 1979, PP. 13-96.



Map 6. The Latins and the Byzantine Empire.
C. Med. H. ed. Hussey, vol. IV, part 1, p. 288.

المراجع والمصادر

- 1 — A cropolites (C.) : Opera, ed. Heisnberg; Leipzeg, 1903.
- 2 — Angold : Aby zantine Government in Exile, 1204-1261, Oxford, 1975.
- 3 — Barrachough (G.) : The Medieval papacy, London, 1975.
- 4 — Brehier (L.) : Vie et Mort de By Zance, ed. A. Ibin Mickel, Paris, 1969.
- 5 — Buchon (Y.) : Recherches historiques sur la principauté française de Moree, et ces hautes baronnies, 1, Paris, 1845.
- 6 — Choniates (N.) : Historia, ed. Bekker, in corpus scriptorum Historiae Byzantinae, Bonnae, 1935.
- 7 — Finlay (G.) : A History of Greece from its conquest by the Romans to the present time, B. C. 146 A. D. 1864. AMS Press. New York.
- 8 — Foord : The Byzantine Empire, London, 1911.
- 9 — Garnder (A.) : The Iascarids of Nicaea, London, 1912.
- 10 — Geanakoplos (D.) : Emperor Michael Paleologus and the west 1285-1282, Harvard University Press, 1959.
- 11 — Gelzer (H.) : A briss der Byzantiniscfsen kaiesergetschicht, Munich, 1897.
- 12 — Gibbon (E.) : The decline and Fall of the Roman Empire, 6 vols, New York, 1976.
- 13 — Gregoras (N.) : Historiae Byzantinae ed. weberi, Bonn, 1829.
- 14 — Grousset (R.) : Histoire des croisades et du Royaume Franc de Jernsalem, Paris, 1956.

- 27 — Painter (S.) : A history of the middle Ages, New York, 1954.
- 28 — Pappadopoulos (J.) : Theodore II Lascaris Empereur De Niceé, Paris, 1908.
- 29 — Pears (E.) : The Fall of constantinople being the story of the Fourth crusade New York, 1975.
- 30 — Previt -Orton : Italy, 1250 - 1290, C. Med. H. Vol. VI, ed Hussey, Cambridge, 1968.
- 31 — Runciman (S.) : The History of the crusades, Vol. 3, Cambridge, University press, 1966.
- 32 — Schlumberger (C.) : Le Tombeau d'une imperatrice Byzantine A Valence En Espagne, dans la liver de (Byzance et croisesdes), Pages Medievales, Paris, 1927.
- 33 — Setton : The latins in Greece and the Aegean From the Fourth orusades to the End of the Middle Ages. C. Med. H. Vol. IV, ed. Hussey, Cambridge, 1975.
- 34 — Vasiliev : The History of the Byzantine Empire (324-1453), U.S.A. 1971.
- 35 — Walter : la Ruine de Byzance (1204-1453), ed. Albin Michel, Paris, 1958.
- 36 — Wolff (R.) : Studies in the latin Empire of constantinople London, 1976.

الفنية للطباعة والنشر
٤٨ شارع حمودة - الإسكندرية - الإكسبريس
تليفون ٨٠٢٢٥٠

بمكتبة
Bibliotheca Alexandrina



0266190